

تاريخ الأندلس

يوسف أشباح

تاريخ الأندلس

في عهد المرابطين والموحدين

الجزء الثاني

ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان

تقديم وتنويه: سليمان العطار

كيف حكم البربر الأندلس؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتتا في المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سميت أولى الدولتين نفسها دولة المرابطين، أما الثانية فسميت نفسها دولة الموحدين. هذه القصة الطويلة هي موضوع هذا الكتاب الممتاز الذي ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربي العلامة محمد عبدالله عنان.

والأهمية البالغة لهذا الكتاب ترجع لكون مؤلفه مطلعاً على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر الأوروبية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاثة، وارتباطها الوثيق وتداخلها. والمؤلف أيضاً ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوروبية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (1837) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة.



تاريخ الأندلس

في عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الثاني)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1880
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: الجزء الثاني
- يوسف أشباح
- محمد عبد الله عنان
- سليمان العطار
- 2014

هذه ترجمة كتاب:

Geschichte Spaniens und Portugals zur Zeit der Herrschaft
der Almorawiden und Almohaden
Von: Joseph Aschbach

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ الأندلس

في عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الثاني)

تأليف : يوسف أشـبـاخ
ترجمة وتعليق : محمد عبد الله عنان
تقديم وتنويه : سليمان العطار



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

أشباح: يوسف.
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: الجزء الثاني/
تأليف: يوسف أشباح، ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان
تقديم وتوثيق: سليمان العطار.
القاهرة: (المركز القومي للترجمة)، ٢٠١٤.
٢٩٢ ص: ٢٤ سم
١ - الأندلس - تاريخ - الموحدين.
٢ - الأندلس - تاريخ - الخلفاء المرابطون.
(أ) عنان، محمد عبد الله (مترجم).
(ب) العطار، سليمان (تقديم).
(ج) العنوان

٩٥٣.٠٧١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٠٥٤
الترقيم الدولي 4 - 497 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يشتمل هذا الجزء - وهو القسم الثاني من كتاب تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين - على بقية تاريخ دولة الموحدين منذ افتتاحهم لقرطبة حتى سقوط دولتهم في المغرب والأندلس . ويعنى المؤلف عناية خاصة بمرض تاريخ عبد المؤمن وفتوحه وتنظيم دولة الموحدين في عهده ، وتاريخ أبي يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك ، وهي أعظم الواقع التي نشبت بين الموحدين والأسبان ؛ ثم يقدم إلينا رواية ضافية عن موقعة العقاب التي تليها في الأهمية ، والتي حطمت فيها قوى الموحدين في الأندلس ، وبدأ انهيار دولتهم من بعدها .

ويعرض المؤلف خلال ذلك تاريخ الممالك الأسبانية النصرانية بتفصيل واف ، وهو ما ينقص المصادر العربية ، ويحدثنا عن أحوالها الداخلية ، وعن نظمها وقوانينها ، وعن نموها الطرد بما تفتتعه تباعاً من القواعد والنور الإسلامية ، وعن الحوادث والظروف التي أدت إلى تضييع دولة الإسلام بالأندلس ، وسقوط قاعدتها العظيمة قرطبة وإشبيلية في أيدي النصارى .

ويختتم المؤلف كتابه بالتحدث عن نظم دولتي المرابطين والموحدين ، وعن أحوال الحضارة والعلوم في عهدهما ؛ وحديثه في ذلك موجز ، بيد أنه يتضمن بعض المعلومات والتعليقات المفيدة .

وقد اتبعت في هذا الجزء نفس الطريقة التي اتبعتها في الجزء الأول ، من التلميق والشرح في جميع المواطن التي تقتضى شيئاً من الإيضاح ، أو التصحيح أو التذييل ، وعنت عناية خاصة بذكر الأصول والمصادر العربية ؛ وتفضل صديقي العلامة الأستاذ أحمد بك أمين بقراءة ترجمة هذا الجزء ، كما قرأ ترجمة الجزء الأول ، فله جزيل الشكر على جميل معاونته ما

محمد عبد الله عناية

القاهرة في ١٢ جادى الأولى سنة ١٣٦٠

للاوفى ٧ يولية سنة ١٩٤١

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومة الحماسية النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر

الفصل الأول

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ وفاة القيصر الفونسو ريمونديز

حتى ولاية الملك ألفونسو الثاني الأراجوني الحكم

كان المسلمون والنصارى ، يتناوبون التفوق في المارك الطويلة التي تنشب بينهما في شبه الجزيرة الاسبانية ، تناوب المد والجزر . فقد لاح قبيل عبور المرابطين إلى الأندلس ، أن الإسلام في اسبانيا قد انتهى أمره . وتسمى الفونسو السادس فيصراً على جميع اسبانيا ؛ ولكن تغير كل شيء بعد موقعة الزلاقة ، وأضحى يهدد النصرانية في شبه الجزيرة خطر الفناء على يد المسلمين ، شأن الإسلام بها من قبل ؛ بيد أن انهيار سلطان المرابطين بسرعة ، واتحاد القوى النصرانية تحت لواء القيصر الفونسو ريمونديز ، مكّنت النصرانية من التفوق مرة أخرى . فلما تمزقت اسبانيا النصرانية عقب وفاة هذا القيصر القوى ، وأدت فتوح الموحدين في الأندلس ، وفي البسائط المجاورة ، إلى تغيير جديد في سير الحوادث ، استرد الإسلام تفوقه من جديد ، واضمحلت سيادة النصرانية ، وخيل أنها لن تستطيع النهوض من عثرتها .

ولما توفي القيصر الفونسو ريمونديز ، لاح أن كوكب السعد الذي قاد النصرانية إلى اسبانيا حتى ذلك الحين إلى النصر ، قد خبا تألقه ؛ وفقدت أوصال الدولة الاسبانية ، الرأس ووحدرة العزم ، ونسيت خمس دول تتعادل في القوة ،

خلال مباركها الداخلية أمر العدو المشترك ، ولم تنب إلى رشادها ، حتى كان هذا العدو يهدد بالفتاء كل شيء ؛ وعندئذ فقط أحمد النصارى إزاء الخطر المشترك ، وعاد التوفيق يحالفهم في كفاحهم ضد الإسلام .

وقسم القيصر مملكته بصورة خطيرة على مستقبلها ، فتح أكبر أولاده سانشو الثالث عرش قشتالة والأراضي التابعة لها في أمالي التاج ، وعاصمتها طليطلة ، وجعل له أيضاً حق الجزية على مملكتي نافارا وأراجون ؛ ومنح ولده الأصغر فرديناند الثاني مملكة ليون وجلبقية واشتوريس وجزءاً من الفتوح الجديدة في أراضي استرامادوره ، وكذلك دعوى السيادة على مملكة البرتغال . وإذا كان القيصر الفونسو الثامن (ريمونديز) لم يستطع مع ما اجتمع له من قوى قشتالة المتحدة ، أن يرغم ملك البرتغال على الخضوع لأداء الجزية ، أو أن يفرض على المالك البرينية (نافارا وأراجون) أى نوع من السيادة الحقيقية ، فقد كان من الواضح بعد تقسيم مملكة قشتالة ، أن المالك النصرانية الخمس التي قامت في شبه الجزيرة أخضعت كل منها تبحث عن موائعها الخاصة مستقلة عن الأخرى ، غير مكترثة بما إذا كان الوطن المشترك ينتم بذلك أو لا ينتم . ومن ثم فكثيراً ما كان يحدث أن يقتل القشتاليون ، والليونيون ، والبرتغاليون ، والنافاريون ، والأراجونيون فيما بينهم بأشد مما يقاتلون أعداءهم المسلمين في الأندلس أو في بلنسية . وقد كان رجال الدين الأسبان الفضل في أن وحدة اللغة والحلال والدين ، وهي التي كانت في بعض الأحيان ، قلما تحدث أثرها في القلوب التي تحجرت بطول الصراع ، لم ينجب أثرها ، وعاد السلام بعد الخصام بين الأمراء النصارى ، واجتمعوا في جبهة موحدة لقتال المسلمين .

ولما قسم القيصر مملكته بين ولديه . (وكان ذلك قبل وفاته بنحو عشرة أعوام) لم يكن في نيته قط أن يشطرها إلى مملكتين مستقلتين ، بل كلف يرى إلى أن تبقى مملكة قشتالة ، وعصمتها طليطلة ، مركز السيادة النصرانية في إسبانيا ، وأن تكون ليون مملكة تابعة لها ، مرتبطة بها ، على مثال أراجون

ونافارا . وهكذا كان من برنامج هذا المشروع أن يتخذ الملك سانشو الثالث ملك قشتالة لقب القيصر ؛ ولكن قشتالة لم يكن يوسمها أن تؤيد سلطانها على الدول الاسبانية الأخرى ، إلا إذا كانت متفوقة في القوى ، ولم يكن يتاح لها هذا التفوق إلا إذا ضمت لها مملكة ليون . وكانت الأسر القوية في ليون وقشتالة بما تضطرم به من الحسد والبغض ، تعمل على فصم أو اضعاف القوي التي تربط الأسرتين الملكيتين ، وعلى دفع الدولتين المتجاورتين إلى قتال بعضهما . ومن ذلك الحين اضطرت قشتالة أن تنزل عن سيادتها على اسبانيا النصرانية ، وحاولت نافارا وأراجون أن تتحررا من عهد الجزية ، وهي محاولة كالت بالنجاح .

وقد استطاع الملك سانشو الثالث بكثير من القوة والعزم أن يقيم هيئة قشتالة مدى حين ؛ بيد أن حكومته لم تمش طويلاً ، ولم تحظ نظمه وترتيباته بشيء من الدوام . وعمد أخوه فرديناند ملك ليون إلى جميع العظماء الذين يخلصون لقشتالة (وكان من بين هؤلاء القومس الشجاع بونسيوس دي منزا) فجردهم من ألقابهم ومناصبهم ، وأخرجهم من مملكته ، معتقداً أنه يندو بذلك أقدر على حفظ استقلال ليون . ولم يلق البمدون في قشتالة حفاوة وترحاباً فقط ، بل لقوا كذلك عوناً ضد مليكهم . وقاد سانشو ملك قشتالة أشرف ليون الفارين على رأس جيش قوى إلى ليون ، وأرغم أخاه الذي لم يكن قد تأهب للحرب بما ، على أن يرد البمدون إلى مناصبهم وأملأ بهم ، وأرغمه كذلك في لقاء خاص بينهما على أن يتعهد بأداء الجزية .

وانتهز سانشو السادس ملك نافارا الملقب بالقوى ، وعمره ولدى القيصر ، فرصة هذه الحرب الأهلية بين الأخوين ، ليرفع يده قشتالة عن مملكته ، وليسترد ولاية ريوجا التي كانت من قبل تابعة لمملكة نافارا ، واستطاع باتفاق عقده مع أراجون بأن ترد كل مملكة إلى الأخرى ما افتتحت منها من الأراضي ، أن يتفرغ لغارة قشتالة . بيد أنه لم يتح له بعد افتتاح ولاية ريوجا أن يحتفظ بها ، ذلك أنه كان يعتمد على انشغال قوات قشتالة بمحاربة ليون ، وعلى أن تهض مملكة

أراجون في الوقت نفسه فتعمل على التحرر من عهد الجزية لقشتالة ؛ فلما لم يقع هذا الحادث أو ذلك لم يرد أن يمضى وحده في خوض الحرب ؛ فترك ولاية ريوجادون أن يشتبك في أية معركة مع الجيش القشتالي الذي أرسل لقتاله ، متوجساً من زحف القشتاليين على ناقارا ذاتها ؛ ثم عقد بين الفريقين صلح ردت الأمور بمقتضاه إلى ما كانت عليه .

وهكذا أثبت سانشو الثالث أنه ملك ذو بأس ، واستطاع بسرعة أن يرد أخاه الملك ، والملكين التائبين له ، إلى واجب الخضوع والطاعة . وكان قد اتخذ الأهمية لتتويجه ؛ وكان المفروض بلا ريب أنه سيحذو حذو ملوك قشتالة السالفين في اتخاذ لقب القيصر ، وتقرر بالفعل أن يشهد ريموند برنجار الرابع ملك أراجون وقطالونية احتفال التتويج وأن يحمل الصولجان كتابع للعرش ، وأن يشهده كذلك الملكان الخاصمان للجزية ملكا ليون وناقارا ، وأن تنهز فرصة اجتماع الملوك الأربعة للتشاور في تنظيم حملة مشتركة ضد الموحدين ، الذين اتسمت فتوحهم في جنوبي اسبانيا اتساعاً يدعو إلى الجزع .

ولكن هذه الخطط كلها انهارت لوفاة ملك قشتالة على غير انتظار ؛ ذلك أن سانشو الثالث توفي فجأة في طليطلة ، بعد أن حكم لما واحدأ وشهراً (من أول أغسطس سنة ١١٥٧ إلى ٣١ أغسطس سنة ١١٥٨) . ولم يترك ذلك الملك البارع في الخلال والفروسة ، الذي سمي « بالمحبوب » ، وأجمت الروايات المختلفة على مديحه ، سوى طفل في الثالث من عمره هو الفونسو اللقب « بالتبيل » أو « الصنبر » . وحرص سانشو الثالث على أن ييعد ملكي أراجون وناقارا عن كل تدخل في شؤون الحكم في قشتالة فلم يختار زوجه الملكة بلانكا أخت ملك ناقارا ، أو أخاه فرديناند ملك ليون للوصاية ونيابة الحكم ، ولكنه اختار في وصيته ، للولاية على ولده وللنيابة في الحكم ، مؤديه الكونت جونيرو فرنانديز سليل أسرة كاسترو القوية ، وقرر في وصيته أيضاً أن يحتفظ جميع الأشراف بالقابهم ومناصبهم حتى يبلغ الفونسو سن الرشد .

ومن ذلك الحين يتخذ تاريخ اسبانيا النصرانية طابعا جديداً ، فلم يبق الملوك
يبدعهم عموماً السلطان والحكم ، ولكن الأسر الاسبانية القوية هي التي تتولى عندئذ
هذا الدور ، وهي التي توجه سير النظم والحوادث الداخلية وتسيطر بالأخص على
أقدار الحرب ضد العدو الخارجي ؛ أجل لم يقع تغلب الأرستقراطية على سلطة الملك
في الدول النصرانية الخمس في نفس الوقت ولا بنفس النسبة ، ولكن عوامل هذا
التغلب كانت تجمعت منذ بعيد . ذلك أنه حيث يسبح السيف والشجاعة أعظم التقدير ،
وحيث تندو الحرب الداعمة مهمة الحياة ، فإن النفوس التي تمردت مقارعة الحروب
والأخطار ، تأتي - إذا لم يكن خطر العدو الخارجي داهماً - أن تنحى أمام السلطان
أو تنزل دامية عند حكم القانون والنظام . ولم تكن معظم الممالك النصرانية في شبه
الجزيرة الاسبانية ينقصها الملوك الأقوياء ذوو الخلال الحربية الباهرة ؛ فإن سانشو
الثالث ملك قشتالة ، والفونسو هنريكز ملك البرتغال ، وفرديناند الثاني ملك ليون ،
وسانشو السادس ، الملقب بالقوى ، ملك نافارا ، وريموند برنجار الرابع ملك
قطالونية وأراجون ، كانوا جميعاً ملوكاً ، يقدمون في كثير من الحروب التي
يخوضونها على رأس فرسانهم الشجعان ، القدوة لكل فضيلة حربية ؛ ولكن
الأرستقراطية نمت واشتدت بأسها ، حتى غدوا ، أو غدا من بعدهم خلفاؤهم القصر ،
ماجزين عن التغلب على قواها المتفوقة . وظهر ذلك في البداية حينما توفي سانشو
الثالث ملك قشتالة ، وخلفه طفل قاصر ؛ ثم ظهر مثل ذلك سرعاً في أراجون
وقطالونية حينما توفي الأمير الباسل ريموند برنجار الرابع ، وخلفه أيضاً ولده القاصر
ألفونسو الثاني .

وتولى ريموند برنجار الرابع منشى مملكة أراجون وقطالونية المتحدة حكم
أراضيها الأصلية (قطالونية) زهاء إحدى وثلاثين عاماً ، وحكم مملكة أراجون مدة
تقل عن ذلك بضعمة أعوام ؛ وكان في حكمه أميراً ذكياً مستقيراً ، وحاكماً قوياً
في نفس الوقت . وأوحى إليه حسن فهمه لظروف اسبانيا ، أن ينصوي منذ البداية
تحت سلطان قيصر قشتالة القوى ، وأن يرتبط معه بأوثق الصلات ؛ وقد ضحى

في سبيل هذه الصلة حتى باستقلال مملكته ، موقفاً بأن انضواء مملكته المكونة من وحدات متنافرة تحت حماية قشتالة ، هو أسرع السبل لظفرها باستقلال قوى الدعائم .

وأنفق ريموند برنجار كل حياته في محاربة المسلمين ، ومحاربة ملك نافارا ، والأشراف الفرنسيين في لانجدوك وبروقانس . وقد تحدثنا فيما سبق عما قام به في سير الحوادث الإسبانية ، وخصوصاً في افتتاح اليربة ، وعن افتتاحه لطرطوشة ، ومكونيزا ، ولاردة ، وإفراغة ؛ وعن حروبه مع نافارا ، وصدائقه للقيصر الفونسو ريمونديز ؛ وبقى علينا أن نتحدث هنا بإيجاز عن حروبه في لانجدوك وبروقانس ، وهو حديث في الواقع أكثر اتصالاً بالتاريخ الفرنسي منه بالتاريخ الإسباني .

منذ اتحاد قطلونية مع أراجون في مملكة واحدة ، غاض كل أثر كان يربط قطلونية حتى ذلك الوقت ، بهمة تأدية الجزية لفرنسا ؛ وعيت من الوثائق الرسمية حتى عادة إثبات سني حكم الملوك الفرنسيين ، وأصبح معظم ولاية لانجدوك كما أسلفنا من قبل ، ملكاً لأمير قطلونية ؛ وكان يحكم ولاية بروقانس الكونت رنجار ريموند ، ولد صاحبها الكونت دولشي ، بالوراثة عن أمه ، وهو أيضاً أخ لريموند رنجار الرابع .

ولكن الكونت ريموند دي بو ، وله أخت الكونت دولشي ادعى حقاً على نصف ولاية بروقانس ، وحارب صاحبها الكونت رنجار ريموند بمعاونة الكونت الفونس أمير تولوز (تولوشه) ، والجنوئين ، وعدة كبيرة من الأنصار من فرسان الولاية ؛ وقبل أن يستطيع الكونت ريموند رنجار الرابع ملك أراجون أن يبادر بإيجاد أخيه الكونت رنجار ، قتل رنجار مدافعاً عن أرضه في موقعة نشبت بينه وبين سفينة جنوبية (سنة ١١٤٤ م) ، فتولى أمير قطلونية الوصاية على ولده الطفل ، ورباه في قصره ، وحفظ له أراضيه ، بالرغم من أن الكونت دي بوسى إلى لقاء القيصر الروماني كوزاد الثالث ، وهو صاحب السيادة على مملكة بروجونية التي تبناها ولاية بروقانس ، وذلك في فيرزابورج (في مارس أو أبريل سنة ١١٤٥) ،

وحصل منه لنفسه وللقب أخت الكونت دوشى على حق حكم جميع الأرضى المتنازع عليها ^(١) الجزية ؛ ولكن ريموند برنجار الرابع ، بمدان افتتح مدينة آرل ^(٢) ، أرغم أشراف الولاية على أن يؤدوا له عيى الطاعة ، وتلقب من ذلك الحين أيضاً بكونت بروفانس ، باعتباره حاكم الولاية بالنيابة عن ابن أخيه ، ورأى ريموند دى بر نفسه فى النهاية مرغماً على التنازل عن كل دعوى على بروفانس . ولكنه بمد أن توفى (سنة ١١٥٠م) ، حاول ولده الكونت هوجو أن يثير هذه الدعوى من جديد ، وحصل لنفسه أيضاً من القيصر فردريك الأول على تأييد حقه فى حكم أراضي جدته (سنة ١١٥٣م) ، وهكذا نشبت الحرب مرة أخرى ، وقدم ريموند برنجار الرابع إلى بروفانس بيمينش قوى ، وأرغم أعداءه على طلب الصلح ، والتنازل عن كل حق ودعوى .

وبينا كان ريموند برنجار الرابع ، تارة يقاتل فى جنوبى فرنسا ، وتارة فى مغاوى البرنيه ضد ناقارا ، وآناً يحارب المسلمين ، إذا به يعمل فى نفس الوقت باطراد لتوثيق الاتحاد بين أراجون وقطالونية . ولما توفى القيصر ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة ، وجاءت وفاته نذيراً باستقلال الدول النصرانية الاسبانية الأخرى ، لقي ريموند برنجار ، سانشو الثالث ملك قشتالة فى أوسمه ، ورغب إليه أن يتحرر من عهد الجزية ؛ ومع أنه لم يوفق إلى تحقيق أميته كاملة ، فإنه تقرر نظراً لتقديم الوحيدى فى جنوبى اسبانيا بصورة مزعجة أن يقتصر عهد الجزية بالنسبة للملك أراجون فى المستقبل ، على حضور حفلات تنويع ملك قشتالة وغيرها من الحفلات اللوكية المشهودة ، وعلى أن يقدموا أمداد الجند حين الطلب ؛ وأما حق ملوك قشتالة فى احتلال المناطق والمدن الخاضعة للجزية ، فقد أُلغى (سنة ١١٥٨م) .

وفى نفس الوقت الذى تراخت فيه عرى التحالف بين أراجون وقشتالة ، عقدت أراجون مع هنرى الثانى ملك إنكلترا محالفة ضد الكونت ريموند أمير

(١) كانت مدينة آرل يومئذ عاصمة ولاية بروفانس ، كما كانت من قبل عاصمة مملكة آرل القديمة التى انتصمها العرب سنة ٧٣٠ م (١١١٢هـ) ، وفرضوا عليها الجزية .

تولوز ، وصهر لويس السابع ملك فرنسا ؛ وكان هنرى الثانى مدعى على ولاية تولوز حقوقاً باعتبارها ميراثاً لزوجته اليونور دى جويان . وحاصر هنرى وريموند برنجار مدينة تولوز بقوات مشتركة ، ولكنهما لم يفوزا منها بباطل ، لأن لويس السابع بادر بإنجاد صهره ، وقضى على جهود المهاجمين ؛ ولما رأى الحليفان ما تكبدوا من خسائر غير قليلة ، قررا وقف الحرب ، وعقد الفريقان هدنة ، تلاها عقد صالح ، يحتفظ فيه ريموند دى تولوز بإمارته (سنة ١١٦٠ م) .

وفى تلك الأثناء توفى سانشو الثالث ملك قشتالة ؛ وترتب على وفاته أن نارت الخصومة من جديد بين نافارا وأراجون ، وهى خصومة عمل رجال الدين على إخمادها بسرعة ؛ وأثار الكونت هوجو دى بورغونى الوقت نفسه اضطراباً فى ولاية بروغانس ، ولكنه لم يقد منه شيئاً ؛ وأخيراً جنح القيصر فردريك الأول ، وهو الذى كان إلى ذلك الحين يحمى الكونت هوجو إلى تأييد أمير قطالونية ، ومنح القيصر أمير قطالونية ، وابن أخيه ، عهد الجزية على بروغانس ، كما كانت لأبيه من قبل ، ومنحه أيضاً مثل هذا العهد على مدينة آرل ، وولاية فوركالكيه ؛ وذلك على أن يقدم الأميران إلى القيصر عهد الطاعة بالنسبة للأراضي المذكورة ، وأن يشهدا بتقديم أعداد الجند ، وأن يمتدفا بالبابا فكتور الثالث الذى اختاره القيصر . ولما سافر الأميران إلى مدينة تورينو حيث كان القيصر يقيم يومئذ ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، مرض ريموند برنجار أثناء الطريق وتوفى فى السادس من أغسطس سنة ١١٦٣ ، وهو فى الخمسين من عمره ؛ فتابع ابن أخيه برنجار الثانى رحلته إلى تورينو ، وتلقى العهد النشود .

وفى وسعنا أن نقول إن ريموند برنجار الرابع ، ولو أنه لم يقدم قط بملك أراجون حتى بعد وفاة راميرو (رذمبر) الثانى ، هو مؤسس عظمة أراجون الحقيقى . وقد كان باجماع الرواة أميراً مثالياً تتجلى فى شخصه كل الخلال البارعة ، التى تتطلبها الفروسة الحققة ، والحكم المستنير ، مثل المدالة ، والصدق ، والنزاهة والشجاعة ، وغيرها .

ولما وصل نياودة الكونت إلى اسبانيا ، استدعت أرملة بترونيلا طبقات
الامة الثلاث إلى الاجتماع في وشقة ؛ ونص على حضور نواب الطبقة الثالثة
بطريقة سريعة ؛ وفتحت في هذا الاجتماع وصية الأمير التوفى ، وفيها يعمد إلى
ولده ريموند برنجار ، الذى اتخذ عندئذ اسم ألفونسو الثانى ، بحكم أراجون
وقطالونية ، وأراضى لانجدوك ؛ وأن تمنح ولاية شرطانية^(١) ومعهما فرغشونة ،
وحق الجزية على الفيكونت ريموند ترنكاقل ، وكذلك على الجزء الذى يخص ريموند
برنجار الرابع من اربونة ، إلى ولده الثانى بيدور ، وذلك على أن يكون خاضعاً
لأخيه الأكبر . ولذا كان ألفونسو لم يجاوز العاشرة من عمره ، فقد تولت أمه
الحكم على مملكة أراجون ، وتولى عمه الكونت برنجار أمير بروفانس حكم
قطالونية ؛ ورعى الأمير الفتى ، الذى تلقب عندئذ بألقاب الملك في برشلونة . على أنه
لم يمض عام آخر ، وطلعت فيه بترونيلا سلام الملكة ، ووقعت أوامر التحالف
بينها وبين فشتالة وإنكلترا وناغارا ، حتى تخلصت عن الحكم بموافقة الأشراف
لابنها ألفونسو ، على أن تكون ولاية للمهد في عقبه ، فإذا لم يعقب آل الحكم
إلى إخوته أو عقبهم ؛ ونص على حرمان عقب الإبنات حرماناً مطلقاً ؛ وعاشت
بترونيلا بعد تخطبها عن الحكم ، عشرة أعوام أخرى ، ثم توفيت في برشلونة
في سنة ١١٧٣ م .

(١) هى بالانجليزية Cerdaña (سرديانيا) وهى مقاطعة صغيرة من أعمال البرنيز الصربية .

الفصل الثاني

قيام جماعات الفرسان الدينية

في اسبانيا والبرتغال

في نفس الوقت الذي غاضت فيه وحدة اسبانيا ، وأخذ سلطان الوجودين الناهض وفتحهم تنفر النصارى كل يوم بالويل الزائد ، يقع قيام جماعات الفرسان . ولما كان أولئك الملوك الذين يقاتل بعضهم بعضاً ، قد أصبحوا عاجزين عن صد « أعداء الدين » ، فقد برزت إلى الوجود هيئات كذلك التي أدت في فلسطين للنصارى أجل الخدمات ؛ ولولا قيام هذه الهيئات ، لضاعت جهود قرون عديدة في أعوام قلائل .

ومع أنه لم تقم في أراجون وقطلونية جماعات فرسان دينية خاصة بهما ، فإن أمراء هاتين الدولتين كانوا مع ذلك أول من قدر أهمية هذه الجماعات ، ولفتوا إليها الأنظار . وكان الملك ألفونسو الأول الأرجونى الملقب بالمحارب ، قد اعتزم أن ينشئ جماعة فرسان دينية ، وذلك في وقت لم تكن قد قامت فيه بالشرق أية جماعة من هذه الجماعات^(١) ؛ وكانت تقوم بين مسلمى الأندلس مثل هذه الجماعة ، ومنها اشتق ملك أراجون مشروعه . ولواقع أن مسلمى الأندلس أنشأوا قبل ذلك بمصدر نوعاً من الفرسان لحماية الحدود ، يسمون « بالرابطة » ؛ وكان هؤلاء

(١) الفروض أن للزلف يشير هنا إلى جماعات الفرسان الدينية النصرانية التي قامت فيها بعد جلطيط والنشام ، مثل البناوية والاسبجارية ؛ ذلك أن للشرق قد عرف جماعات المحاربين الدينية المسلمة قبل أن تعرفها الأمم النصرانية بصورة ، ويمكن أن تحتل لذلك بجماعات الفداوية الإسلامية الذين أخذوا في الفرج النصليين وقتلوا منهم عدة أمراء ، وقد ظهرت في الشرق منذ أواخر القرن الخامس الهجري .

يخصصون حياتهم مختارين للقتال ، ويهبون أنفسهم لحماية الحدود (التغور) من غارات النصارى الفجائية وحملاتهم^(١) ؛ وكانوا يعيشون في تقشف بالغ ، ولا ينظم في سلوكهم سوى فرسان امتازوا بالشجاعة وثقاء السيرة ؛ وقد مروا من حياة القتال الدائمة على الجلد والثبات في أشد الأزمات ، فكانوا يقاتلون في الحرب بشجاعة فائقة ، ولا يسمحون لأنفسهم بالفرار قط ، فإذا قاتلهم الناصر ، فإن الموت يندو واجبه ومعالجه . أجل عرف النصارى الاسبان جماعات من الفرسان تربطها نظم وصفات معينة ، بيد أنها لم تكن جميعات منظمة وفقاً لقانون معين . وكان الجند الأرجونيوون الخفاف ، وهم الذين يسميهم العرب « بالمجاورين » ، يؤلفون في بداية القرن الثاني عشر جماعات شديدة البأس ، صرنت على احتمال كل ضروب الحرمان والمحن ، ويحسب لها السلون أيما حساب ؛ بيد أنها لم تكن تنظم في جمعية حربية منظمة .

ولما أنشأ ألفونسو الأول عقب افتتاحه لسرقطة سنة ١١١٨ م (٥١٢هـ) قلعة « موزيال » على الحدود لتقوم بدفاعة المسلمين^(٢) ، كان يفكر في إنشاء جماعة من الفرسان يرسم للقبر المقدس ؛ وليس من الحق ما إذا كان قد عرف عندئذ بقيام جماعة « النابوية » (فرسان المبد) ^(٣) ، وجماعة فرسان القديس يوحنا ؛ وعرض ملك أراجون مشروعه على الأشراف (البارونات) ، وطلب إليهم مبالغ طائلة من المال لإمداد الجماعة والعمل على نشرها . ولكن المشروع بقى بلا تحقيق ، وذلك

(١) سبق أن شرحنا كلمة الرابطة ومصدر اشتقاقها ، ومزاجها التاريخي (راجع الحاشية في ص ٦٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) وتزيد هنا أن أطراف الأندلس الشمالية بما يلي برشلونة وسرقطة إلى ما وراء جبال البرنيه ، كانت منذ الفتح تعرف بالنفر أو «رباط النفر» وكانت المدن أو القواعد الأمامية المجاورة لأراضى المدوم تعرف بالرباط ؛ فكان نفر «أربونة» مثلاً يعرف قبل سقوطه في يد الفرنج برباط النفر ؛ وقد اشتهر للدافون عن هذه النور في تاريخ الأندلس بالشجاعة النافذة . وظاهر أن طوائف الفرسان التي يشير إليها المؤلف ، هم جماعة الرباط ، أو التغور ، أعني أطراف الحدود المجاورة للناصرى ، وقد ورنوا تقاليدهم وخلالهم الحرية المتأخرة عن أسلافهم حاة الرباط .

(٢) راجع ص ١٥٣ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) راجع الحاشية الخاصة بالنابوية (ص ١٧٥ من الجزء الأول) .

فما يظهر ، لعدم وجود الفرسان الصالحين لتنفيذه .

على أن الفكرة آتت مع ذلك ثمرتها ؛ ذلك أنه لنا أخفق مشروع إنشاء جماعة دينية اسبانية من الفرسان ، أجهت الفكرة إلى إنشاء فرع من فرسان الداوية في اسبانيا ؛ وانتظم الكونت ريموند رنجار الثالث أمير برشلونة قبيل وفاته بقليل (سنة ١١٣١ م) في سلك الداوية ، وأنشأ ولده وخلفه أول دبر للجماعة في قطالونية . وذهب ألفونسو المحارب ، حسباً ذكرنا من قبل ، بعيداً في تأييد الداوية فنزل لهم في وصيته عن ثلث مملكته ؛ ولكن الجماعة لم تحصل على هذا الثلث ، لأن الشعب الأرجوني أبي عزيق الملكة ، يد أنه لا طالب الداوية بعد وفاة ألفونسو بأهوام قلائل بحقوقهم في الملكة ، عقدت بينهم وبين أراجون في عهد ريموند رنجار قسوية في هذا الشأن خلاستها ، أن يعنى فرسان الداوية من الخوض لقضاء الملك ، وأن يعلوا نصيباً مميئاً في الدن التي انتزعت من المسلمين مثل وشقة ، وبربشتر ، وقلمة أبوب ، وسرقسطة وغيرها ؛ وفي مقابل ذلك يتعهد الفرسان بأن يخصصوا خدماتهم لحاية النصرانية في تلك الأنحاء ؛ وتم هذا الاتفاق في اجتماع عقد في جيرونة في سنة ١١٤٣ م ، وشهده الندوب البابوي وكثير من الأساقفة وأشرف أراجون وقطالونية .

وسرعان ما ظهرت أهمية العون الذي يينله فرسان الداوية في كل حرب تنشب مع المسلمين ، ولا سيما في الدفاع عن حدود أراجون الجنوبية وما ترتب على هذا العون من النجاح والظفر ، حتى أنه عهد إليهم ، كإحداث مع فرسان القديس يوحنا ، بحراسة معظم الحصون التي افتتحت في المهد الأخير ، وكان من الطيبى أن يقع مثل ذلك في قشتالة والبرتغال ، فيمهد بالدفاع عن حصون الحدود الهامة المجاورة للمسلمين إلى فرسان الداوية ضد الغزوات الإسلامية ، ويحصل الفرسان غير بعيد جزاء جهودهم على كثير من الأراضي .

ونستطيع أن نقول إن جماعات الفرسان الدينية في اسبانيا ، وجماعة «آفيس» Avis البرتغالية كانت تقليداً لجماعة فرسان الداوية التي نقلت نظمها من فلسطين

إلى اسبانيا ؛ وقد بدأت هذه الجماعات في معظم الأحيان صغيرة لأهمية لها ، وقامت وفقاً لضرورات الحوادث ، وسرعان ما اشتدت وقوى بأسها .

ومن القريب ، أنه لم تنشأ في أراجون ، أى في نفس الأرض التي استقر الداوية فيها قبل غيرها ، وكانوا فيها أكثر عدداً ، أية جماعة محاربة جديدة إذ لم تدع الحاجة إلى قيام مثل هذه الجماعة ؛ أما في قشتالة الجديدة وفي استرماادوره ، وما أشد النواحي تعرضاً لفزوات الموحدين وعينهم ، ولم يحتل الداوية فيهما سوى قلاع قليلة ، فقد حدث بالعكس أن قامت جماعتان محاربتان ، لا يفصل بين قيامهما سوى أموام قلائل . ذلك أن رجال الدين ، وخصوصاً في الأديار ، كانوا يمشون من أجل الحرب والدعوة إلى الصليب أكثر مما يمشون للمزلة والمبادة ، وقد رأوا حينما قسمت مملكة قشتالة ، وما ترتب على تقسيمها من تعزيز لاسبانيا ، أنه لابد من قيام جماعة مستغلة من الفرسان تكون بمنزلة عن تقلبات السياسة في الدول الاسبانية النصرانية ، لتفود عن الدين السيجي ، وقد تجلت قوة الشهور بهذه الحاجة ، بما بذل يومئذ من جهود عديدة في هذا السبيل .

أما أى الجماعتين القشتاليتين من الفرسان كانت الأولى فأمر يختلف عليه المؤرخون الاسبان ، يبعد أنه بعد تمحيص مختلف الروايات يمكن القول بأنه إذا كانت جماعة « فرسان القنطرة » Alcantara التي اتخذت هذا الاسم فيما بعد (في سنة ١٢١٩) هي أقدم الهيئتين ، فإنها لم تنم وتتقدم بمثل السرعة التي تقدمت بها جماعة « فرسان قلعة رباح » Calatrava . وإليك كيف تقدم إلينا الرواية نشأة « فرسان القنطرة » : في سنة ١١٥٦ م ، في عصر القيصر الفونسو ريموندز ، وقبل وفاته بقليل ، اتفق فارسان من شلنقة أحدهما يدعى سويرو والآخر جومر نذرا حياتهما لمحاربة المسلمين ، مع ناسك يعيش بقرب شلنقة واسمه سانت أماندوس على البحث عن مكان يصلح لإقامة حصن ، تؤسس فيه جماعة من الفرسان لمحاربة أعداء الدين السيجي ؛ وألقوا طلبتهم في المكان الذي يقع فيه دير سنت جوليانوس ، فبنوا حول الدير باذن الأسقف أردونو ، أسقف شلنقة الذي يقع

الكان تحت رعايته ، حصناً يحيط به ، وسرعان ما اجتمع إلى الفارسيين والناسك عدد من الفرسان والزهادين الذين تحذوهم نفس المواطن ، وندروا أنفسهم للكفاح من أجل الدين والموت في سبيله ، وقامت من هؤلاء جماعة محاربة سميت أولاً بجماعة « سنت جوليان دل بيريرو » S. Julian del Pereiro ، وانتخب رئيسها الأول الفارس سويرو القسى تقدم ذكره ، وأمدّه أردونو أسقف شلمنقة بأنظمة جماعة « الستريسيان » إحدى فرق « القديس بندكت »^(١) ، ليكون منهاجاً للجماعة مع بعض النظم الحربية ، وبعد ذلك بأكثر من خمسين عاماً ، في أوائل القرن الثالث عشر ، اتخذت هذه الجماعة اسم جماعة فرسان القنطرة .

ولكن صمت المصادر التاريخية الوثيقة الماصرة عن ذكر هذه الجماعة ، وما ورد عن قيامها في الروايات المتأخرة ، مما يحمل على الشك في صدق هذه القصة . أما الروايات التي انتهت إلينا عن قيام جماعة « فرسان قلعة دباح » فهي أصح وأوثق ؛ وقد قص علينا مؤرخ عاش بعد ذلك بقليل ، هو الأسقف رودريك الطليطلي ، عن قيامها ما يأتي : لما انتهى سانشو الثالث ملك قشتالة من الاتفاق مع أخيه فرديناند في سنة ١١٥٨ م ، وعاد إلى طليطلة ، جاءت الأنباء بأن المسلمين يزحفون على قلعة دباح في جيش ضخم . وكانت القلعة قد سلمت إلى فرسان الداوية للدفاع عنها ، ولكنهم لما أبقنوا بمعجزهم عن الاحتفاظ بها إزاء تفوق الأعداء ، غادروها وردوها إلى ملك قشتالة . وكان يوجد وقتئذ في طليطلة رجل ورع هو ريموند رئيس دير فيترو ، ومعه راهب من أسرة نبيلة يدعى دياجو لاسكيز ، وكان فارساً ظهر في ميدان الحرب ، ورعى في البلاط . فلما رأى هذان الرجلان جزع الملك لما يتوقمه من سقوط قلعة دباح في يد الأعداء ، خصوصاً وأنه لم يتقدم للدفاع عنها أحد بعد

(١) سبق أن أشرنا إلى جماعة القديس بندكت (الجزء الأول من ١٢٥) . وأما جماعة الستريسيان Cistercians ، فهم إحدى فرق البندكتيين ، وقد أسست في مكان يدعى ستو Citeaux بالقرب من مدينة ديجون سنة ١٠٩٨ م على يد راهب يدعى سان روبر . وقد انتزت أنظمة هذه الجماعة بالحنوة وتختيل الملل الشاق في الحقول وغيرها على الإنعراق في الصلاة والعبادة .

أن غادرها فرسان الداوية ، اعترضا أن يتوليا هذه المهمة ، وسألا الملك أن يمهدها إليهما ؛ فأجاب الملك سؤالهما ، لا يملأه من ورع الراهب ريموند ورفيع مكانته لدى الشعب ؛ وأيد برحاتماطران طليطلة مشروع الرجلين ، وألقى عظمتا دينية ، وعد فيها بالفران لكل من يتقدم للدفاع عن قلعة رباح ، ولم يمحض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموند أن يجمع حوله في قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمدته كثير من أولئك الذين لم يشتركو في الدفاع بأشخاصهم ، بالتلجيل والدواب والسلاح والمؤن والمال ، حتى فاضت القلعة بكل ما هو ضروري للدفاع ؛ وألقى المسلمون أنه ليس من الحكمة أن يقدموا على مهاجمة مكان اتخذت للفران عنه مثل تلك الأهمية ، وهكذا أنقذت قلعة رباح .

ثم رأى الراهب ريموند تخليداً لثواب الدفاع عن النصرانية في اسبانيا ، أن يؤلف من هؤلاء القاتلين الذين احتشدوا حوله ، ممن يرغبون في تخصيص حياتهم للدفاع عن النصرانية إزاء الإسلام جمعية من الأخوة ؛ وهكذا قامت جماعة « فرسان قلعة رباح » ، وقوامها الحماسة الدينية والشجاعة ، وتألفت نواة فرسانها الأولى من رهبان دير فتيرو ، الذين بادروا بالرغم من سنهم وضعفهم إلى اللحاق برئيسهم ريموند في قلعة رباح ، وهم يحملون معهم كل ما كان بالدير من متاع ومؤن وافرة ؛ وطبقت على الفرسان النظم الحربية لطائفة السترسيان ، وانتخب الراهب ريموند أول « أستاذ أعظم » للجماعة ، ونمت الجماعة باطراد ، وصادق البابا إسكندر الثالث على قيامها ، وتوالت عليها الهبات الفخمة من الملوك والأفراد ، واعتقد الناس أن تمضيده هذه الجماعة المحاربة هو خير ما يملأ لخدمة الدين والوطن .

وهكذا بدت على عمر الأيام ، أهمية ما يقوم به الفرسان من الخدمات والحماية ، وحمل تفرق ملوك اسبانيا النصرانية ، وتقادم خطر التزوات الإسلامية ، الشعب على أن يبحث لنفسه عن وسائل الدفاع ، وقامت في جليقية في سنة ١٢٦١ م ، بعد قيام فرسان قلعة رباح بثلاثة أعوام ، جمعية محاربة جديدة هي جماعة القديس ياقب S. Jacob ، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدة فرسان من قطاع الطريق ، كانوا من قبل يخوضون حياة مهجبة عنيفة ، ويرتكبون كثيراً من الآثام والجرائم ،

فوعظمهم رجال الدين ونصحوهم بالاستقامة والتوبة ، فتأبوا عما ارتكبوه في شبابهم من إثم ، ووهبوا بقية حياتهم للدفاع عن دين المسيح ضد أعدائه ، وأن يقوموا بحماية الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب في كومبوستل ، وعين أول رئيس لهذه الجماعة بموافقة فرديناند ملك ليون ، الفارس بيدرو فرنانديز ، وهو من أهل فونيتا انكالاذا من أعمال استرقة ، فنظمها وفقاً لتأهيج القديس أوغسطين^(١) وأسبغ عليها الطابع الحربى ، وأبيح الزواج لأعضائها خلافاً لفرسان قلعة رباح ، واتخذ شعارها سيف القديس ياقب القادى فى صورة الصليب ؛ وتوالت عليها الهبات ولا سيما هبات الملوك ، فتمت بسرعة ، واشتد ساعدها ، وكثرت أملاكها .

أما فى البرتنال ، فقد ظهر فيها فرسان الداوية وفرسان القديس يوحنا بندي قامت المملكة ، وكان الملك ألفونسو هنريكيز ، تحمله عاطفة المنافسة لقسثالة وليون على أن يحتذى مثلهما فى كل شىء ، فمول بعد القى رآه من ضحايا الفرسان الواضحة أن ينشئ جماعة من هذه الجماعات ؛ وعلى ذلك فإنه من الخطأ أن ترجع قيام جماعة الفرسان فى البرتنال إلى سنة ١١٤٧ م ، فهى لم تقم فى الواقع قبل سنة ١١٥٨ ، وربما كان قيامها سنة ١١٦١ ؛ وترجع وثيقة تأسيس هذه الجماعة التى سميت عند قيامها بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، إلى سنة ١١٦٢ م ؛ وكانت تنظمها شبيهة بتنظم فرسان قلعة رباح ، ومشتقة مثلها من نظم الآباء اليسوعيين . وتتلخص واجبات الأخوة فى أن يجاهدوا من أجل الدين المسيحى ، وأن ينزلوا الميدان دائماً لقتال المسلمين ، وألا يتزوجوا ، وأن يكونوا خاضعين لكبير فرسان قلعة رباح ، بالرغم من أن لهم رئيساً خاصاً ؛ وفى ذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الجماعة المحاربة البرتغالية الجديدة لم تكن فى الواقع سوى فرع لجماعة فرسان قلعة رباح ؛ وكان أول أستاذ أعظم لجماعة الفرسان البرتغالية هو بيدرو أخو الملك

(١) عاش القديس أوغسطين فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) و هو من أعظم أركان الكنيسة اللاتينية . وأسست جماعة القديس أوغسطين فى القرن الحادى عشر الميلادى ؛ وشعارها الفقر والطاعة والفن ؛ وتأهيجها فى غاية الاعتدال بالنسبة لتأهيج الجماعات الأخرى ؛ وهى منتشرة فى جميع أنحاء العالم .

غير الشرعى ، ولما استولى الفرسان فى سنة ١١٦٦ م على قلعة يابرة من يد المسلمين ، وعهد إليهم بحراسة القلعة ، ثمثوا « بفرسان يابرة » ، ولما وهبهم الملك ألفونسو الثانى بعد ذلك ، فى سنة ١٢١١ م ، عملة « آفيس » Avis ، وأقاموا فى هذه الحملة قلعة جديدة ، سموها عندئذ « بفرسان آفيس » . وكان يوهيم عندئذ عبارة عن عبادة طويلة ذات برنس أسود ، ولكنه غير فيما بعد ، إذ كان يضاهيهم أثناء القتال ؛ كذلك سمح لأبناء هذه الجماعة فيما بعد أن يتزوجوا مثل فرسان شنت ياقب ، ولكن على أن لا يتكرر الزواج .

وفى بعض الروايات أن ألفونسو هنريكز ، أنشأ بعد قيام الجماعة الحاربة الجديدة بأعوام قلائل ، فى سنة ١١٦٧ م جماعة ثانية سميت « بجماعة القديس مخائيل ذى الجناح » S. Michael del Ala ؛ وزعمون فى سبب هذه التسمية ، أنه رأى أثناء موقعة شترين ذراع يتفاد سيفاً فظنوه ذراع قديس . ولما كان ألفونسو قد أحرز فى هذه الموقعة ظفراً بامراً ، ولم ينج من الملاك فيها إلا بمعجزة ، فقد قيل إنه أنشأ لهذا السبب جماعة من الفرسان تتخوى تحت اسم الملاك مخائيل ، وقد ورد فى وثيقة لا شك فى بطلانها ، أن أعضاء هذه الجماعة الذين سمح لهم بالزواج يجب أن يكونوا من الأشراف ، وأن يكونوا فى الحرب حرساً للملك والأعلام ، وأن يخضعوا لرئيس دير الكوبزا ، وأن يحملوا شعارهم جناحاً أحر ذهبياً بضمونه على صدورهم .

ولما كانت الروايات قد تضاربت فى أمر هذه الجماعة ، ولم تذكر عنها شيئاً من بعد وفاة ألفونسو هنريكز ، وكانت هذه الوثيقة تتضمن منهاجاً متناقض للتاريخ الحق ، فانه يسوغ لنا أن نشك فيما إذا كانت هذه الجماعة قد أنشئت وقامت فعلاً . هذا ، وبينما كان الفرسان ينفذون عن حدود المملكة النصرانية ضد غزوات المسلمين إذ قل اهتمام النصارى بحماية أعدائهم المسلمين ، وحزقت قوى النصرانية على يد صراع داخلى طويل الأمد حتى بدا خطر للوحدين داهماً على الجميع ، قاضطر الملوك النصارى معتدلين إلى توثيق اتحادهم من جديد .

الفصل الثالث

صراع أسرتي كاسترو ولارا

في سبيل السيادة في قشتالة

لا توفى الملك سانشو الثالث ظهرت في قشتالة أسرتان قويتان على جميع الأسر الأخرى ؛ وكانت كلتاها تضارع الأخرى من حيث الثراء والقوة ووفرة الأنصار ، وكلتاها تحسب في عداد الأسراء أكثر مما تحسب في عداد الأنباغ ؛ هاتان الأسرتان هما آل لارا ، وآل كاسترو ، كلتاها عريقة في الحسب ، وكلتاها ساهمت في تشييد قوة اللوكية واستولت على كثير من الأراضي بمهد الجزية وظفرت بأعظم المناصب والألقاب ؛ وكان ملوك قشتالة يعتبرونها عضد النرش ودعامته . فلما توفى سانشو الثالث ، وآثر في وصيته آل كاسترو باختيار زعيمها الشيخ جونيو فرنانديز مؤدبه القديم ، للوصاية على ابنه أثناء طفولته ، حنق آل لارا من هذا الإيثار لآل كاسترو ، وعملوا على إثارة حرب كانت وبالا على قشتالة ؛ وقد حاول الشيخ جونيو ، حينما شمر بنذر هذه الحرب ، اجتنابها بشيء من البذل والتساهل ولكنه لم يفعل سوى أن يجل بوقوعها ؛ وكان تصرفه بمفرده في تغيير الوصية الملكية دليلا على نيائه السلبية ، ولكنه لم يكن دليل الحكمة ؛ وكان يزعم آل لارا ثلاثة أخوة ، هم أبناء الكونت بيدرو ، وزوجه الدونا آفا ، وهم الماريس ، والقارو ، ونونيو ، وكانت لهم ضياع واسعة على شفاف دويرو (نهر دودو) ويحصل بهم بطريق القرى والمصلحة أوتق الصلات ، الكونت جارسيا دى آتيا من أسرة الكونت دى كابرا .

وقد عهد جوتيرو إلى جارسيا دى أنياس بترية الملك ، وكأنه أراد بذلك أن يبنى الملك تحت سلطانه ، وذلك بعد أن استعطف آل لارا على حفظ السلم ؛ وكان جوتيرو يؤمل أن يجتنب بذلك كل خلاف حتى يبلغ الملك أشده ، إذ كان جارسيا فيما يبدو ، يستعليح بمجوله الملكية ، وصلته بآل لارا أن يحمي الرب والظنون المضطربة ، بيد أنه حدث عكس كل ما كان ينتظره الشيخ الضميف جوتيرو .

ذلك أن الكونت جارسيا كان رجلا قليل الذكاء والكفاية ، تنقل كاهله تربية الملك وما يقترن بها من الشؤون ، وكان يخشى بالأخص أن يتكبد في سبيلها بعض الخسائر ، إذ لم تربط لها مخصصات ثابتة ، ومن ثم فإن الكونت المازيش كبير أسرة لارا لم يجد صعوبة في إقناعه بأن يسلمه الملك الطفل ؛ وهكذا نقل الملك من يد آل كاسترو إلى يد آل لارا ؛ فلما علم جوتيرو فرنانديز بذلك ، طالب في الحال بأن يباد الملك إلى إشرافه ، فسخر آل لارا من طلبه . وهنا فقط أدرك جوتيرو سوء تصرفه ؛ وتفاقم الشر ، حين شهر الكونت الشيخ الحرب ليسترد بالقوة ما لم يك ثمة ضرورة للتسليم فيه ؛ وأنقذه الموت الماجل من لوم أسرته وصحبه ، ولم يخلف ولداً ، ولكن أبناء أخيه رودريك فرنانديز ، وهم فرديناند ، والقارو ، وبيدرو ، وجوتيرو ، وصهرهم القارو ردريجيز ، تابعوا الكفاح في سبيل قضية الأميرة ، بتزعمهم فرديناند كبير الإخوة ، مستفدين إلى نصوص الوصية الملكية التي تخص أسرتهم بالوصاية ، فلما استمر الحصوم في موقفهم ، ولم يسلموا الملك الطفل ، لجأ آل كاسترو إلى فرديناند ملك ليون ، عم الملك لكي يحمي ابن أخيه ، فقدم ملك ليون في الحال في جيش ضخم ، واحتل معظم أراضي قشتالة ، وأعلن توليه لتمام الحكم وللوصاية على ابن أخيه ، واعترف به معظم الشعب ملكاً على قشتالة (سنة ١١٥٩ م) ، واشتد في مطاردة آل لارا حتى أرغمهم أخيراً على تسليم الملك الطفل في مدينة «سوريا» (Soria) . ومن الصعب أن ندلل على أن فرديناند كان ينوي انتزاع الحكم من ابن أخيه ، على أنه بسط حكمه على المملكة كلها تقريباً ، على نحو ما كان يحكم والده القيصر ، وتسمى بملك اسبانيا ، واتخذ من

آل كاسترو الذين دعوه إلى المملكة ، أخلص أنصاره ، وأعقد عليهم كل المناصب والألقاب ، واعتبر آل لارا عصاة خارجين ؛ وإذا كان الملك سانشو الثالث قد نص في وصيته على أن يبقى الجميع محتفظين بأراضيهم ومناصبهم وألقابهم حتى يبلغ الملك الطفل الخامسة عشرة من عمره ، فقد طالب آل لارا بأراضيهم وحقوقهم ، وفقا لهذا النص . فلما رفضت مطالبهم ، عمدوا إلى جثة جونيرو فرنانديز فأخرجوها من القبر ، وأقسموا أنهم لن يردوها إلى القبر قبل أن يرد المقتضون إليهم حقوقهم ؛ فمندئذ دعت محكمة للفصل في النزاع ، فقضت ضد آل لارا ؛ ودمرت نصوص الوصية بصورة أخرى ؛ وهنا ثارت بين الفريقين حرب دموية عنيفة دامت بضعة أعوام ، ولم يتمكن آل كاسترو من إحراز النصر فيها إلا بمعاونة ملك ليون ؛ وخربت أراضي قشتالة وأجدبت ، وافتحمت القلاع ، وأحرقت المدن والقرى ، وعومل المواطنون معاملة الأعداء ، فمهبوا ، وأسروا ، وقتلوا . ولما نفذت قوى آل لارا في النهاية ، طلب إليهم الملك فرديناند تسليم الأراضي الباقية تحت أيديهم من مملكة قشتالة ، ومنها العاصمة طليطلة ، وأن تؤدي جميع الضرائب إلى ملك ليون ؛ وفرد آل لارا حرج موقفهم ، فأعلنوا أنهم على استعداد لتقديم الطاعة إلى الملك فرديناند ، إذا سلم إليهم الطفل الملكي قبل ذلك ، وأنهم يريدون أن يقسموا بين الخضوع والإخلاص للملك فرديناند باعتبارهم حاة وحراسا للملك المستقبلي .

وانفق الفريقان على أن يجتمع قدامك الفرض مجلس شسورى فى « سوربا » بشهده آل لارا ، والملك فرديناند مع ابن أخيه الطفل ، وهناك سلم الطفل للملك إلى الكونت الماريس دى لارا ، وقرن تسليمه بهذه الكلمات : « إنا نسلمه إليك مختارين ، فقم على حراسته مختاراً » ؛ وهنا بدأ الطفل يصيح بين يدى حامله متألماً من ألم أسابه بطريقة خفية ؛ فحملوه بعيداً بحجة إعطائه بعض الطعام وتهديته روعه ، على أن يباد إلى عمه فى المجلس ، بعد أن يكف عن البكاء . وفى الوقت الذى شغل فيه الملك فرديناند بالتشاور مع الكبراء ، فى انتظار بقطلة

الطفل من نومه الزعوم ، وثب فارس جرى من الخلعين لآل لارا ، واسمه بيدرو نونيز ، وحمل للطفل فوق أسرع جواد ، واستطاع أن يصل به في نفس اليوم إلى قلعة استبان دى جورماز ، التي كانت باقية بأيدي آل لارا ؛ وعمد زعماء آل لارا في الوقت نفسه إلى الفرار من المجلس ، قبل أن يفسموا بين الطاعة للملك ؛ ولم يقف فرديناند على هذه الخدمة إلا بعد فوات الوقت ، ولما أرسل إلى الكونت الماريش فارساً بنى عليه نكته وغدره ، وبهمه بالخيانة العليا ، استقبله آل لارا بالتهديد والوعيد ؛ وأعلن الماريش أنه لا يريد أن يناقشه أحد فيما إذا كان قد أخلص أو نكث ، وأن كل ما هنالك ، أنه لجأ إلى جميع الوسائل الممكنة لينفذ سيده الشرعي ، القى ما زال طفلاً ضعيفاً ، من برائن اليهودية ، وأن القوانين وأصوات الشعب كفيلة بتبرئته من كل إثم وعيب .

ومن ذلك الحين ، أعني منذ سنة ١١٦٦ م نسترد أسرة لارا فونها وبأسها ، إذ كان الشعب يرى دائماً أن الحكومة توجد حيث يوجد الملك ؛ كذلك كانت المدن الواقعة على ضفة دويره ، والتي كانت تابعة لآل لارا ، كفاحاً شديداً ، ومع ذلك فقد بقي التفوق في جانب فرديناند وحلفائه آل كاسترو ، وكان يؤيدهم أكابر رجال الدين ومنهم مطران طليطلة . وإذا كانت أسرة لارا قد استطاعت بالرغم من هزائهما في ميدان الحرب أن تحتفظ بسلطانها ، فإن في ذلك ما يدل على أنها كانت تعتمد على مساومات هامة ؛ ورجع ذلك أيضاً إلى أسباب عديدة أخرى . وقد حدث أنه بينما كانت أسرة لارا تكافح ملك ليون وآل كاسترو بكل ما وسعت ، أن قام في وجهها عدو جديد ، هو سانشو السادس ملك نافارا ، وانتزع ولاية ريوجا من قشتالة وضمها إلى مملكته ، وبلغ من ثقته بثبات هذا الفتح ، أن ترك ريوجا دون حرس ، وأرسل قوة من النافاريين لمداونة حليفه أمير بلنسية^(١)؛ فانهز آل لارا فرسة هذا التهاون ، ولستردوا ريوجا دون كبير جهد .

(١) كان أمير بلنسية وشرقي الأندلس يوسف عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش ؛ وكان قد قوى أمره واشتد بأسه وأرسل جيوشه إلى غرناطة وقرطبة لمحاربة اللوحدين ، وأوقع =

وبينا كان يبدو آل لارا في صورة الدافعين عن استقلال قشتالة والقومية القشتالية ، وينتمون بذلك عطف فريق كبير من الشعب ، كان آل كاسترو ، الذين كتبت على يدهم هزيمة النصارى إزاء المسلمين ، يفقدون سلطانهم شيئاً فشيئاً . بيد أنهم بادروا قبل أن يفقدوا كل سلطانهم إلى التفاوض مع خصومهم ، وعقدوا معهم في « سوريا » في سنة ١١٦٣ م ، اتفاقاً على وقف القتال ، حتى يستطيع النصارى رد غزوات المسلمين بصورة أقوى وأجمع . ومع ذلك فقد اقتصر الفريغان في الاشتراك في محاربة الموحدين على إرسال فرسان قلعة دباح والداوية ومعاونتهم ، للدفاع عن الحدود . وما كاد ينقضي خطر المسلمين الدائم ، حتى نشبت الحرب الأهلية في قشتالة من جديد ، ذلك أن أسرة لارا لم تنقد الهدنة إلا لكي تخدر أعصاب خصومها ، ثم لتضربهم الضربة القاضية ، بغاغته طليطلة عاصمة قشتالة . ولكن فرديناند رويز عميد آل كاسترو كان على قدم الحذر من غدر آل لارا .

ومن ثم فقد حطم الهجوم على طليطلة ، وفقد الماريتش دي لارا الشجاع حياته في المركة (سنة ١١٦٤ م) ، فأعلن أخوه نوبو نفسه وصياً لقشتالة ومضى في متابعة الحرب بمنف وشدة ، وماد آل لارا لجمعوا قواتهم بسرعة ، واستطاعوا أن يستمروا بذكاء كون الملك الطفل في يدهم ، وأن يقتسموا بذلك تأييد كبير من القشتاليين ، الذين دهمهم ظفر الليونيين من قبل إلى مساواة آل كاسترو ؛ وتقدم نوبو في غزو أراغنى طليطلة بسرعة ، حتى أن الملك فرديناند اضطر أن يحالف أعدى أعداء عرش قشتالة ، أعني سانشو ملك ناغارا ، وألفونسو الأول ملك البرتغال ، على محاربة ابن أخيه وحماه آل لارا ؛ ذلك أنه كان يرى أسفاً كيف تنمو هيبة الملك الطفل في نفوس القشتاليين يوماً عن يوم ؛ وكان كثير من القشتاليين الذين يخشون من تسلط الأجانب على حقوق البلاد ، يزداد

==
 منهم عدة مزاعم ، وتحالف مع النصارى ، واستأن بهم في محاربة الموحدين ؛ وكانت وقته في سنة ١١٦٧ م (١١٧١ م) (راجع ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٦٦ ، وابن الأثير في الحلة السراة ص ٢٢٠ ، والاستقصاء ص ١٥٧)

سخطهم تباعاً على آل كاسترو الذين يستدم الليونيون ؛ ولم تأت محالفة فرديناند للبرتغال بالتناج المشودة ؛ فقد اضطر أن يخوض الحرب في ولاية اسنرما دوره ، حيث ثارت مدينتا شلمنقة ، وآبله^(١) ضد سلطانه ، إما بتحريض البرتغال أو أسرة لارا ، ونادياً بشخص اسمه نونيو سيرانيز ملكاً عليهما ؛ ولم يستطع إخماد الثورة إلا بعد كبير جهد ، بل لقد كان انتصاره على الثوار محض مصادفة سميده ؛ وأسر الزعيم الثائر ، وقتل .

وفي تلك الأثناء كان آل كاسترو قد أساءوا استعمال سلطانهم ، وأصرفوا في التمسك ، وشددوا في اضطهاد كل من كان في قشتالة وطليلة ، عيّل في نظرم إلى خصومهم ، حتى ضاق القشتاليون ذرعاً بحكمهم وعسفهم ؛ وعملت أسرة لارا على استثمار هذه الحالة بكاء ، وعقدت مع سكان طليطة أوامر التفاهم ، وحققت عندئذ ما لم تستطع تحقيقه من قبل ، فاستولت عنوة على عاصمة قشتالة ، ولم تلبث أن نادى بالملك الطفل ألفونسو ، الذي لم يجاوز عندئذ الحادية عشرة من عمره ، والذي اتخذته عضداً لدمعواها ، ملكاً على قشتالة ، وذلك في سنة ١١٦٦ م ، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعي ، ومقاومة الليونيين ، وآل كاسترو الظالمين .

وأبدت قشتالة كلها من ذلك الحين ولاءها للملك ألفونسو ، الذي بلقب بالنبيّل ، وبلقبه البعض بالصنير ؛ واستأثر آل لارا بجميع السلطة ، وحتى رجال الدين ، بعد أن لبثوا إلى ذلك الحين يمسدون ملك ليون ، أعلنوا ولاءهم عندئذ لألفونسو ؛ وعمل المطران سربرون أسقف سيجوزا الذي عينه كبيراً للكنيسة الاسبانية بعد وفاة المطران يوحنا مطران طليطة ، كل ما في وسمه لتدعيم عرش الملك الطفل . وعقدت قشتالة مع ملك نافارا هدنة مدتها عشرة أعوام ؛ ثم عقدت بعد ذلك ببيعة أعوام (في سنة ١١٧٠ م) مع أراجون معاهدة حماية وتحالف ؛

(١) شلمنقة هي (Salamanca) ، وآبله (Avila) ، (راجع جدول الأعلام الجغرافية في نهاية الجزء الأول) .

وهنا أتى فرديناند ملك ليون أن الأمور قد سامت ، ولم يبق في دسمة ان
يماون أصدقاؤه آل كاسترو ، فتركهم لصيرهم ، حتى لا يخاطر بالدخول في حرب
مع قشتالة ؛ ولم يجد آل كاسترو ، الذين أخرجوا من قشتالة أمام سخط الشعب
وتفوق آل لارا عليهم في القوى ، ملجأ بلوذن به سوى أراضي المسلمين ، وهناك
أخذوا يدبرون وسائل الانتقام من أعدائهم

ولم تهدأ الحرب الأهلية في قشتالة ، سوى بضعة أعوام . ذلك أن الفارين
من آل كاسترو وعلى رأسهم فرديناند رويز ، عكفوا على تخريب الضواحي على
غزو قشتالة . ثم نجحوا أخيراً في إقناع فرديناند ملك ليون أن يؤيدهم إلى مملكته
وعول فرديناند أن يشغل ابن أخيه ألفونسو ، الذي أسلم في يده إلى آل لارا ،
وكان يضطرم نحوه بنفساً ، فمضد الزعماء الفارين ، وأمدتهم بجيش غزوا به قشتالة
وخرّبوا أراضي أسرة لارا . وهكذا أسفر الحلال الحزى عن ضحايا جديدة ؛
ونشبت في «لوركال» على مقربة من استبان دي حورماز معركة دموية (سنة
١١٧٤ م) ، وكان يحارب إلى جانب آل لارا الكونت أزوربوس صهر فرديناند
رويز دي كاسترو ، فسقط في الميدان قتيلاً وسقط معه عدة كبيرة من القواميس
والفرسان القشتاليين ، وأسر من الفريق الآخر الكونت نونيو والكونت
رودريجو ولدا جونيو ، ولم يطلق سراحهما إلا بعد أن أقصيا بالموعدة إلى التسليم ،
ووعد رودريجو أن يهود إلى الأسر بعد أن يشهد دفن أخيه الثارو الذي سقط
في الموقعة ، ولكن جثة الميت بقيت في نابونها ولم يتم الدفن ، ولم يعد رودريجو .
أما الكونت نونيو فقد عاد إلى خصومه في اليوم المحدد ، ولكنه لم يعد وحده ،
وإنما عاد في سبائة فارس ، ولم يجرؤ بذلك إنسان أن يقوده إلى الأسر ؛ وهكذا
أصلح آل كاسترو بالنكث والندما أفسدته المزعجة .

وقد وصل آل كاسترو يومئذ إلى ذروة الخطوة لدى فرديناند ملك ليون .
يدل على ذلك أنه قدم أخته غير الشرعية الدونا ستفانيا زوجاً لفرديناند رويز ،
بعد أن طلق زوجته الأولى ابنة الكونت أزوربوس ؛ وكان الكونت الشهير

بيدرو فرنانديز من عقب هذا الزواج . بيد أنه مما يدعو إلى التأمل أيضاً ، أن الملك فرديناند طلق زوجته الأميرة البرتغالية أورا كا بسبب القرابة الباشرة ، وتزوج من الدونا فيرزا ابنة الكونت نونيو دي لارا . وفي ذلك ما يدل على أن أسرة لارا كانت تعتبر في عداد الأمراء ، وقد كان هذا الزواج أكبر عامل في تهدئة النضال بين أسرتي لارا وكاسترو . أما كيف انتهى النزاع بينهما فلم نشر إليه الرواية ، وتوفي فرديناند دويز عميد آل كاسترو في سنة ١١٨٥ م .

الفصل الرابع

تاريخ مملكة البرتغال وليون

منذ وفاة التيمر ألفونسو إلى وفاة ألفونسو هنريكز وفرديناند الثاني

تلقى فرديناند ملك ليون ، وجليقية ، واشتوريش عن أبيه الفيصر ألفونسو ، إلى جانب هذه الأقاليم الثلاثة ، دعوى السيادة على البرتغال . على أن مملكة البرتغال كانت تعمل لتوطيد استقلالها يوما عن يوم بما تحرز من نصر على المسلمين ، وما يتخذه ملكها من التدابير الحازمة ؛ وكان الشعب البرتغالي بأسره يمارض كل المارضة في الاعتراف بأي نوع من التبعية لاسبانيا . وكان ملك ليون من جهة أخرى ؛ قد شغلت قواه في البداية بموقف فتشالة الخطر ، ثم بعد وفاة سانشو الثالث بما تلا من ظروفها وحوادثها الزعجة ، فلم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال . ولكنه ماكاد يسطر سلطانه على فتشالة واسترمادوره بمعاونة آل كاسترو ، حتى بدأ يشهر عدوانه على جارته البرتغال ، مع أنه لاح قبل ذلك بقليل أن ليون والبرتغال كانتا على وشك عقد محالفة وثيقة بينهما ضد فتشالة وضد المسلمين ؛ وكان فرديناند قد تزوج بالفضل ابنة ملك البرتغال الأميرة أوراكا (سنة ١١٦٥ م) ، ولكن أوامر الماهدة والتقرب لم تستطع أن تحمد من أطماع الأمير وشهوته في الفتح ؛ ذلك أنه — نزولا على نصيح زعيم برتغالي أثنى ملاذآ في بلاط ليون — عمد إلى تحصين مدينة ددريجيو (Ciudad Rodrigo) الواقعة على حدود البرتغال (سنة ١١٦٥) واتخذها قاعدة لقيام بمدة غارات مخربة على الأراضي البرتغالية المجاورة ، وأقام في الوقت نفسه عدة قلاع وحصون على حدود البرتغال

وأخذ يهدد الملكة الناشئة تهديداً قوياً .

وإذ كان الملك ألفونسو هنريكز^(١) يقوم في ذلك الحين بفزوات هامة في أراضي المسلمين وقد انتزع بالفعل منهم عدة مواقع بينها قلعة بارة (سنة ١١٦٦ م — ٥٦١ هـ) ، وكان فرديناند من جانبه مشغولاً بمحاربة سكان شلمنفة وآبله ، الذين تاروا بتحريض البرتنال وأسرة لارا ، فبا يظهر ؛ ومشغولاً في الوقت نفسه بمحاربة المسلمين حيث انتزع منهم القنطرة والبوكرك والفاس^(٢) ، فإن الحرب بين ليون والبرتنال هدأت مدى حين ، وذلك بالرغم من توفر جميع الموامل لإضرامها .

وما كاد ملك البرتنال ، يقف على تطور الحوادث في فشتالة ، وما وقع فيها من نفي آل كاسترو ، وتحطيم سلطان فرديناند على يد آل لارا ، حتى بادر إلى حدود مملكته الجنوبية فخصنها ضد المسلمين ، وعهد بمحاربها إلى فرسان بارة ، وأرسل جيشاً بقيادة ولده وولى عهده سانشو لمحاصرة مدينة رديجو ؛ ثم سار بنفسه في سنة ١١٦٧ م في جيش قوى إلى ولاية جليقية ، واستولى على مدينة لمبسا والأنحاء المجاورة لها بحجة أن هذه الأراضي تتبع مملكة البرتنال ، باعتبار أنها أعطيت لأمه الملكة بربزا ، من أبيها ألفونسو السادس مهراً لزوجها ، بيد أن الجيش الذي سار بقيادة ولده إلى مدينة رديجو هزم أثناء ذلك على يد الجند الليونيين .

وفي العام التالي (سنة ١١٦٨ م — ٥٦٤ هـ) سار ألفونسو هنريكز إلى اقتتاح مدينة بطليوس من يد المسلمين ، وبدأ بالفعل محاصرة هذه القلعة الهامة ،

(١) سبق أن أوضحنا أن الرواية العربية تسمى الملك ألفونسو هنريكز « ابن الريني » صاحب فالرية (تراجع الحاشية في ص ٢٥٨ من الجزء الأول) ، ولكنها تسميه أحياناً « بان الزنك » (وربما كان صوابه ابن الزنك) (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، وكتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٧) .

(٢) تشير الرواية العربية إلى حته الفزوة وإغارة الفرنج على ما وراء حدود البرتنال ، على مقربة من بطليوس ، ولكن بصورة غير واضحة ، ومع أنه يمكن القول بمطابقة الزمن والحوادث ، فإنه يتعذر التحقق من مطابقة الأماكن (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١) .

ولكن وصلته الأنباء عندئذ بأن ملك ليون قد سار إلى قتاله في جيش ضخم ، وكان فرديناند قد حظر على البرتغاليين قبل ذلك أن يقوموا بفتح مكان معين من يد المسلمين مدعياً أن هذا المكان يدخل في منطقة أراضيه ، ولا يسوغ افتتاحه إلا لملك ليون ضد ألفونسو هنريكز في التمجيل بافتتاح بطليوس قبل مقدم فرديناند معتقداً أن السكامة ستكون لأقوى الفريقين ، واستطاع بالفعل أن ينزع معظم أنحاء المدينة . ولم يبق في يد المسلمين سوى قلعتها ؛ وهنا قدم ملك ليون في جيشه ، وأنيح عندئذ للمسلمين المهزمين أن يشهدوا منظرأ غريباً ، هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين ، من أجل الاستيلاء على المدينة ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكز ، بعد هزيمة قسم من جيشه على يد الليونيين أنه غدا أضعف من أن يستطيع الاحتفاظ بمدينة لم يستول على قلعتها بعد ، وأنه أصبح مهدداً بالحصار من عدو يعوقه في الكثرة ، رد المدينة إلى المسلمين الذين غدوا عندئذ أصدقاؤه ، واعتزم المبادرة بالفرار مع بقية جيشه ، ولكن حدث عند ما هم المسلمون بإغلاق الأبواب بسرعة ، أن علفت ساق الملك الفار برتاج الباب وسقط من فرسه ، فكسرت ساقه ، ووقع أسيراً في يد الليونيين .

وأبدى فرديناند شهامة وكرماً إزاء محنة عدوه ، فأمر أطباءه بأن يعالجوه بمنتهى العناية وعامله بكل ما يعامل به الملوك من صنوف التكريم والرعاية ، وكان يجلسه إلى جانبه ، ومع أن ملك البرتغال كان على أهبة لأن يمتدح بالخضوع وأداء الجزية افتداءاً لحريته ، فإن فرديناند اكتفى بأن يشهد ألفونسو هنريكز برد الأماكن والأراضي التي انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها ؛ ولما تم نفاذ هذا العهد عاد ألفونسو هنريكز إلى مملكته دون عائق ودون توضحيات أخرى ، بيد أنه استبقى ساقه المرجاء أثراً مؤلماً لسقطته وأسره ، يحول دون ركوبه الجواد ، والسير إلى ميدان الحرب ؛ أما فرديناند فقد حاصر بطليوس ، وآثر المسلمون حين أيقنوا أنهم لا يستطيعون الدفاع عنها طويلاً — أن يهادنوا ذلك الملك الظافر المتدلل ، وأن يقطعوا له عهد الخضوع ؛ فلما قدموا إليه طاعتهم

وخضوعهم ، أقر حاكم المدينة للسلم « ابن حابل » (كذا) على حكمها ، وارند عائداً إلى مملكته ، بيد أنه سرعان ما ندم على تساهله مع مسلمي بطليوس ، ذلك أنه لم يمض طویل حتى ثارت المدينة ، وعادت إلى الانضواء تحت سيادة الموحدین ، وغدت بقلمتها النيمة قاعدة لما يقوم به الموحدون من غارات مخزبة في أراضي استرامادورة ^(١) .

وقد وقعت أمور كثيرة نذل على مبلغ ما كان يسود اللسکین النصرانیين في شبه الجزيرة ويفرق بينهما من عوامل الحسد وسوء الظن ؛ فإذا أتیح لأحدهما مثلاً أن يحرز على السلبين الظفر في إحدى المواقف ، فإن الآخر يخشى أن يندو ذلك النصر خطراً على مملكته ؛ وكانت كل غزوة يقوم بها النصارى في الأراضي الإسلامية المجاورة تنبئ الانزعاج بين ملكي البرتغال وليون ، كأنما هذا الغزو كان يقع في أراضيها ؛ والواقع أنه لم يكن ثمة بين اللسکین أى سلام حقيقى ؛ وكان الخوارج البمدون من أتباعهما ، يلقون كل فريق لدى بلاط الآخر حسن الوفادة ، ويعملون بكل ما وسعوا لإذكاء الخصومة وسوء الظن بين اللسکین ؛ ولما استطاع الموحدون أن يقفوا تقدم البرتغاليين في أراضيهم ، وأخذوا يحاولون استرداد المدن المفقودة ، وحاصروا مدينة شترين بجيش ضخم (١١٧١ م - ٥٦٧ هـ) ^(٢) ، لاجـ .

(١) يبدو من مراجعة الرواية العربية أنها تتفق مع الرواية النصرانية في كون النصارى قد حاصروا بطليوس في تلك الفترة مرتين - الأولى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٨ م) ، وهذا الحصار هو الذى قام به ألفونسو هنريكز حبا تقدم ، والثانية في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) وهو الحصار الذى قام به فرديناند ملك ليون . وفي الرواية العربية ما يدل على أن الموحدین اشتركوا في الحصار الأول مع أهل بطليوس في الدفاع عنها . وفي الحصار الثانى ، بث الشيخ أبو حفص المثنائى كبير قادة الموحدین بالأندلس ، أخاه أبا سعيد إلى بطليوس لإنقاذها ، وآثر أبو سعيد أن يمتد الصلح مع النصارى . أما ابن حابل ، أو ابن حابل الذى تنبئ الرواية النصرانية إلى أنه حاكم بطليوس وقت الحصار فهو تحريف ظاهر لاسم مربي لم تتضح لنا حقيقة . ولعل الاسم الحقيقى هو « ابن الحاج » (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠) .

(٢) تنبئ الرواية العربية هنا إلى خروج النصارى إلى أرض السلبين بقيادة « القوسم الأحديب » ، ويلاحظ لنا أنها تصمد هنا القوسم هنريكز ملك البرتغال ، لأن كلمة قوسم هي تحريف كلمة Comes اللاتينية ومنهاتها السكونت ، وقد كانت تطلق يوشع على أسراء اسبانيا =

ملك ليون أن الفرصة قد تسنح ، إذا ما هزم الجيش البرتغالي للقيام بفتوحات جديدة ، فحشد في الحال جيشاً قوياً ، وبأمر بالسير إلى مقرية من ميدان الحرب . وأخذ يرقب الظروف والحوادث ؛ ولكن حدث قبل مقدمه ، أن نجح ملك البرتغال في إرغام المسلمين على رفع الحصار عن شنترين ، وهزمهم هزيمة قاذحة ، وأجّاهم إلى الفرار . ولما علم الفونسو هنريكيز بمقدم اللاتين على هذا النحو المفاجئ ساوره القلق ، لأنه قياساً على ما سبق ، لم يكن يؤمل خيراً من مقدم جيرانه حينما يحرز النصر على المسلمين . على أنه آانس من نفسه استمداداً ومقدرة للإقامة هؤلاء الأعداء الجدد . ولكن فرديناند لم ير من الحكمة أن يخوض المعركة مع البرتغاليين وهم في نشوة ظفرهم على المسلمين ، بل آثر أن يتظاهر بأنه لم يقدم بنية القتال ، وأرسل إلى ملك البرتغال رسولاً يهتبه بالنصر ، ويمرّب له عن أسفه لو سوله متأخراً ، وعدم تمكنه بذلك من معاونته ؛ فشكره ملك البرتغال على جميل عواطفه ، وانشهز فرصة هذا الظاهر الودي ليميل على إلقاء الرعب في قلوب المسلمين ، وليشتد في مطاردتهم .

وعاد فرديناند إلى ليون . وقلبه يفيض أسفاً لفشل خطته التي دبرها بإحكام . وكان قد طلق زوجته الأميرة البرتغالية أوراكا بحجة القرابة ، بالرغم من أنه أنجب منها ولداً ، هو ولي العهد (الانفانت) الفونسو ، ولم يكن متأثراً في ذلك بالقرار البابوي فقط ، ولكنه كان متأثراً بالأخص بخصوصيته للبلط البرتغالي .

وحكم الفونسو هنريكيز مملكته من ذلك الحين آنساً لا يرجمه أحد من جيرانه النصاري ، منتصراً في محاربة المسلمين كما سندكر بعد . وأخيراً صدر القرار البابوي التملق باستقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون ، بعد أن طال عليه الأمد ، وأصدره البابا اسكندر الثالث بمقتضى مرسوم بابوي في سنة ١١٧٩ م ، وفيه يمنح الفونسو هنريكيز لقب الملك ، وتوضع مملكة البرتغال الحرة من كل

= والأحدب وصف لافونسو هنريكيز ، يطلق عليه منذ إصابته في ساقه بامعة متدبة حسباً .
تقدم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠) .

عهود الجزية تحت حماية الكرسي الرسولى ، وفى مقابل ذلك تدفع البرتغال وفقاً لما تعهد به الفونسو الأول من قبل ، إلى الكرسي الرسولى قطعتين من الذهب كل عام جزية وضريبة . وقد كان هذا القرار البابوى ضماناً حقيقياً لاستقلال البرتغال عن الدول النصرانية المجاورة ، وذلك نظراً لما كان يشتمل به الكرسي الرسولى يومئذ من الهيبة والنفوذ فى اسبانيا ، وهذا القرار نفسه يعتبر دليلاً على ضعف الملوك الاسبان فى هذا العهد ، وهو ضعف كان يستغله الكرسي الرسولى لتوطيد سلطانه ونفوذه . ولم تكن البابوية تجرأ على اتخاذ مثل هذا القرار من قبل ، وعلى الأقل فى عصر القيصر الفونسو ريمونديز ، وذلك خوفاً من معارضة قشتالة الشديدة ، ولم يكن فى وسع القرارات البابوية أن تمحى دعاوى قشتالة على ولاياتها . ولكن قشتالة وليون كانتا عندئذ ثمانيان من خلاف الأشراف وغطرستهم ، ولم يجرؤ يومئذ أحد أن يثير أى اعتراض على القرار البابوى .

وأن الفونسو هنريكز ليستحق من جميع الوجوه أن يلقب بمؤسس المملكة البرتغالية ، فقد حقق سلطانه بالسيف ، وكانت تحاول انتزاعه منه أمه سيثة الأخلاق وزوج أمه الحاقدة ، وافتتح معظم أراضى مملكته بالسيف من يد المسلمين ، وانتزع بالسيف أيضاً من قيصر قشتالة استقلاله ولقبه الملوك ، وقد اتبع إلى جانب شجاعته وصفاته الحربية المتأخرة ، سياسة ملؤها الذكاء والفطنة ، ووطد بذلك العمل الذى بدأه بالنفى توطيداً أبدياً ، واستمال إلى جانبه رجال الدين وعلى رأسهم البابا — وهم يومئذ فى ذروة القوة والسلطان — بما بذله من النطاي السخية ، وما منحه من الامتيازات الخاصة ، وعرف كيف بذل الحاسة الدينية فى نفوس الشعب البرتغالى ، وأن ينضم تأييده بامسدار دستور يحقق الحرية والعدالة لكل الطبقات ، ويحيط وراثة الميراث بضمانات تحول دون نشوب الحرب الأهلية ، ويوطد دعائم القومية البرتغالية . وشغل أشراف المملكة بأن دفعهم لمحاربة المسلمين على الحدود ، واستطاع بتأسيس جماعة فرسان يابرة الذين خصصوا حياتهم كالحفاة المسلمين ، أن يحول شغف الأشراف بالحرب — وهو شغف كان فى دول شبه

الجزيرة الأخرى بتفجر في حروب داخلية مخربة — إلى وجهة قومية صالحة .
وحكم الفونسو هنريكيث الذي لقب بالفاتح بحق ، على هذا النوال البديع ، مملكة
البرتغال ، ردحا طويلا من الزمن ، مرهوب الجانب من التصاري والمسلحين على
السواء ، وتوفي بعد حكم طال نصف قرن ، في السادس من ديسمبر سنة ١١٨٥ م
في السادسة والسبعين من عمره .

وقد أشاد البرتغاليون دائماً ولا سيما رجال الدين بذكرى هذا الملك العظيم ،
وكان رهبان دير الكوبازة ، الذي يرجع فضل تأسيسه إليه ، يحتفلون حتى العصر
الحديث بعيدة رسوم خاصة ، احتفالهم بعيد قديس ، ولكن البابوية لم تصدر مع ذلك
قرارها بتفديسه بالرغم مما بذله الملك يوحنا الثالث في هذا السبيل .

ولم تغض بضعة أعوام على وفاة الفونسو هنريكيث ، حتى توفي خصمة فرديناند
الثاني ملك ليون في ٢٨ يناير سنة ١١٨٨ أثناء حججه إلى قبر القديس ياقب ، وذلك
بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة . وقد اشتهر فرديناند بخلال الفروسية والشجاعة
والجود والتقوى ، أكثر مما اشتهر بالفطنة وبعد النظر . وكانت هباته للكنائس
والأديار لا حد لها ، حتى أنه وهبها جميع أملاكه تقريباً ؛ وكان يعامل جميع الناس
بمناحة التواضع والرفقة ، ويحببه الشعب أكثر مما يرهبه كلك ؛ ولم يكن حكمه
سوى معترك من المنازعات والمعارضات ، التي لم يوفق حتى الكتاب المامرون
إلى استجلاء ظروفها ؛ ذلك أنه حينما يتصرف الأمير وفقاً لمأطفة مؤنثة أو هوى
طاري ، ولا تقوم السياسة عنده على مبادئ ثابتة ، فانه يتمسك على المؤرخ أن
يظفر بالبواغث الحقيقية التي أملت هذه التصرفات . أما حروبه ضد البرتغال ، فقد
كان يرجو أن يظفر بالنم فيها بالاستغلال والخدمة أكثر مما يرجو الظفر في ميدان
الحرب ، وسرعان ما نراه يتقرب إلى خصمه بمرض الصداقة والتحالف ، ثم يعود
فيعمل على تمزيقهما متى زهد فيهما . كذلك لم تكن سياسته نحو قشتالة قائمة على
مبادئ معينة ، فقد بدأ حامياً لآل كاسترو ، ولبت يدين لهم حيناً بسيادته على قشتالة
ثم ترك سير الحوادث بعد ذلك ، حتى أخرج آل كاسترو من قشتالة ، وتركهم

للقدر مدى حين ، حتى أن كبيرهم فرديناند رويز لم يلجأ إلى مملكة ليون ، بل لجأ إلى اللوحدين ، ثم إن هذا الزعيم القار لم يوجه أعداء دينه ضد قشتالة بادي ذي بدء بل وجههم ضد الملك فرديناند حاميه السابق ؛ وأغار في قوة من الموحدين على مدينة رديجو التي لم يكمل بناؤها بعد ، وكاد يظفر بافتتاحها ، لو لم يبادر فرديناند حيناً علم بالخطر المهدق بها إلى إنجادهما وإتخاذها فيما يشبه المعجزة . وقد عاد فرديناند بالرغم من خصومة آل كاسترو لمملكة ليون ، إلى استدعائهم إلى بلاطه ، وعهد إليهم بقيادة الجيش مرة أخرى . فلما أحرز على أيديهم في قشتالة ظفراً يذكركر على أسرة لارا ، انقلب غير بعيد إلى مصادقة آل لارا . ثم تزوج إحدى بناتهم ، وهي الدونا تيريزا ابنة فرديناند دي لارا ، وأرملة الكونت فونيو دي لارا (سنة ١١٧٦م) وضرب بذلك أوامر حلفه مع آل كاسترو . وقد فرديناند من ذلك الحين هيئته في قشتالة ، ثم انقلبت قشتالة بعد ذلك إلى معارضة غير مرة ؛ ولم تعقد الهدنة بين قشتالة وليون إلا في سنة ١١٨٠م ، بوساطة أراجون ، التي وثق فرديناند أوامر تحالفه بها منذ سنة ١١٦٢م ، ولكنه لم يلبث أن أهمل هذا التحالف ؛ ومن ذلك الحين ، تبدو مملكة ليون ، إزاء الأعمال المظلمة التي قام بها الملك الفونسو النبيل في قشتالة ، في مؤخرة دول إسبانيا النصرانية . ويقص علينا التاريخ بعد ذلك من سيرة فرديناند ، أنه تزوج للمرة الثالثة ، بعد وفاة زوجته الملكة تيريزا ، بالدونا أورا كاتبة أمير بسكونيه الكونت لوبوس . ثم توفي بعد أن أعقب منها ولدين هما سانشو وجارسيا . وخلفه في الحكم ولده الفونسو الثامن ، أو التاسع إذا احتسبنا الملك الفونسو الأول الأراجوني بين ملوك ليون ، وهو ولده وولي عهده الذي رزق به من زواجه الأول بالأميرة أورا كاتبة البرتغالية ؛ ومع أن هذا الزواج قد ألقى لشدة القرابة بين الزوجين ، فإن حتى الفونسو في ولاية العرش لم يستند إلا إلى كونه ولد أبيه البكر ، ولم يحصل الرلمان اللذان أعقبا من الزواج الثالث على شيء ، حتى ولا على حكم بعض الولايات ، مع أنه كان من التبع — في مملكة ليون — أن تقسم المملكة إذا تعدد الأبناء .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

في عهد الفونسو الثاني ملك أراجون

حينما تولى الملك الفتي الفونسو الثالث - ولد سانشو الثالث - عرش قشتالة وهو في الحادية عشرة بعامنة آل لارا ، عقب انتزاع طليطلة في سنة ١١٦٦ م ، لم يكن حكمه في البداية سوى إقرار لتصرفات أتباعه وحكومتهم . بيد أنه لم يمض سوى أعوام قلائل ، حتى استطاع الملك الفتي أن يقبض على زمام الحكم بنفسه بقوة وعزم ؛ وحدث ذلك حينما أعلن نواب الأمة في المجلس الذي عقد في برغش سنة ١١٦٩ ، بلوغ الملك سن الرشد ، وذلك وفقاً لما نص عليه في وصية أبيه من إعلان رشده حينما يبلغ الخامسة عشرة من عمره . واعتزم الفونسو ، أن يمدل لإصلاح شؤون مملكته المحتلة بعض الشيء ، وأن يقبض على خطر الفزو الدائم من جانب آل كاسترو وملك ليون والمسلمين ، فمقد السلم مع جاره من الشمال الشرقي ، سانشو ملك نافارا ، ومع الفونسو ملك أراجون ؛ واتفق على أن يكون الزهادن مع نافارا بشأن ولاية ريوجا لمدة عشرة أعوام وهو اتفاق لم يحترم ؛ وحارب ملك قشتالة في البداية ملك أراجون ، وهزمه على مقربة من قلعة دباح (سنة ١١٧٠) ، وحمله بذلك على عقد الصلح والزهادن وعاون في عقد هذا التحالف بين المسلمين ، هنري الثاني ملك إنكلترا ، الذي تقرر أن تزوج ابنته اليونور من ملك قشتالة ، وكان دائماً حليفاً مخلصاً لملك أراجون في حروبه في جنوبي فرنسا ؛ وتم زواج ملك قشتالة

بالأميرة الإنكليزية في نفس العام ؛ واستقبل سربون مطران طليطلة ، والكونت نونيو دى لارا أعظم أتباع الملك ، الروس في ولاية جويان ، وحجباها إلى قشتالة عن طريق أراجون ، ولم يخترقا أراضي نافارا نظراً لعدم التثبت من ولائها وصدقها ؛ وكان ملك قشتالة ينتظر عروسه في ثمر طركونه ومعه حليفه ملك أراجون ، ونم زفاف المروسين في حفلات باذخة نظمها ملك أراجون .

وسرعان ما أثار تقدم الوجودين في جنوبي اسبانيا جل عناية ملك قشتالة ونشاطه . وكانت قشتالة أشد الدول تضرراً لخطر الوجودين ، وإن لم تكن الدول النصرانية الأخرى — خلا نافارا — بمنجاة من هذا الخطر ؛ ومع ذلك فإنه تضرر على الملوك النصارى أن يضموا فيها بينهم خطلة موحدة لمحاربة المسلمين ، وكان كل منهم بالمكس يرمق نجاج الآخر بين الرب والحسد ؛ ولم يبنوا من سلوكهم ، حينئذ طلب إليهم الأمير ابن سعد بن مردنيش (وتسميه الرواية الاسبانية « ابن لوبي » . Abenlope) ، الذي استقل بحكم بالنسية ومرسية عن الوجودين ، وغدا منذ سنة ١١٦٧ م تابعا لملك قشتالة — عونهم المشترك . ولما لم يظفر هذا الأمير منهم بالمعاونة المنظمة القوية ، اضطر أن يخضع أمام تفوق أعدائه (سنة ١١٧٢ م)^(١) وبذا انهار هذا الحاجز الأخير الذي كان يوسع النصارى أن يصمدوا فيه أمام الوجودين من هذه الناحية ، وأصبح المدو القوي ، بمد استيلائه على ولايتي بالنسية ومرسية ، يشغل هنا وهناك في أراضي الدول النصرانية ويرجمها بنزواته الحربية ، ويرغمها على القيام باستمدادات حربية عظيمة ؛ وبينما كان ملك ليون يحاول ، في جنوب غربي الجزيرة ، أن يحول دون فتوح ملك البرتغال في أراضي المسلمين ،

(١) كان عهد بن أحمد بن سعد بن مردنيش أعظم الزعماء التأثيرين الذين ظهروا بالأندلس عقب انهيار سيادة للرابطيين ؛ وقد استولى أولا على مرسية منذ سنة ٥٤٢ هـ ، ثم اتسع ملكه تباعا حتى شمل شرقي الأندلس كله ؛ واستعان بالنصارى في محاربة الوجودين مراراً ؛ (راجع الجزء الأول من ٢٣٣ و ٢٤٠) ؛ واستمر في قتاله ضد الوجودين ، حتى غلبته بعوهم وجيوشهم التزالية ، وحاصره في مرسية سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفي أثناء الحصار في العام التالي (سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٣ م) ، (راجع في سيرته وتفاصيل ثورته وحروبه ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ و ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ وابن الأثير في الحلة السراء ص ٢٣٠ — ٢٣٢) .

وتفت الذيرة وسوء الظن في قواتهما ، كانت الدول النصرانية الثلاث في شمال شرق الجزيرة ، أعني قشتالة وأراجون ونافارا ، تتنازع فيها بينها على حقوق الفتح في أراضي المسلمين ، وتفاقم النزاع ، حتى كادت تقدو هي فريسة للمسلمين . وسرعان ما عقدت أوامر التحالف بين هذه الدول ، كما انفصمت من قبل ؛ وكانت المصالح المشتركة تحمل أراجون وقشتالة ، بالرغم مما كان ينشب بينهما من الخلاف في أحيان كثيرة ، على توثيق حلفهما ، ولو لم تكن مملكة أراجون مفككة مترامية الأطراف على هذا النحو ، لما بلغ ملك في شبه الجزيرة مبلغ ملك أراجون من القوة والسلطان ؛ كذلك لم تكن أراجون أقل مماناة من قشتالة من جراء غطسة الأمراء التابيين الذين يسيطرون على الجيش . أجل لم يكن الفونسو الثاني ملك أراجون عاطلا من صفات الملك العظيم ، فقد كان يتمتع بقسط وافر من الكفاية والشجاعة وحس العدل ، وقد دلل منذ حداثة على أهليته لتولى العرش ؛ وولى الحكم في سنة ١١٦٢ م ، وهو في الحادية عشرة من عمره ، تحت وصاية أمه برونيليا ، واتخذت في ذلك الحين ، في مجلس سرقسطة النيابي ، قرارات هامة للمحافظة على سلام البلاد ، والحد بقدر المستطاع من عسف الأشراف وعنتهم ، ورؤى لتوطيد دعائم السلم مع الدول المجاورة ، أن يُعاقب الذين يعمدون لتكبير السلم معاقبة الممتدين على العرش .

ولما بلغ الفونسو الثاني الخامسة عشرة من عمره ، وانتظم في سلك الفروسية وأعلن رشده ، لم يلبث أن اجتنب إلى ميدان الحرب ، واستفرقت المحافظة على أملاك أراجون الواقعة في جنوبي فرنسا ، كل جهوده وقواه ؛ ذلك أن الأمراء التابيين ، وجيرانهم من الزعماء الطامعين ، كانوا يشيرون ضرام الحرب في هذه الأنحاء بلا انقطاع ؛ وفي سنة ١١٦٦ م ، قتل الكونت رينجار أمير بروفانس وعم الفونسو الثاني في حصار « نيزا » ، فبادر الكونت ريموند دي تولوز ، الذي كان ابنه متزوجا بابنة رينجار الوحيدة ، باحتلال الولاية ، وتزوج من الكونتيسة ريشيلدا أرملة الأمير القتيل ، لكي يوطد حقوقه في امتلاكها . ولكن ملك أراجون ،

الذي أعلن أبوه أميراً لبروقانس في نفس الوقت مع الكونت برنجار ، على يد القيصر فردريك براروسا (ذو اللحية الحمراء) ، كان يدعى على الولاية حقوقاً ممتن وأوثق ، ولذا بادر إلى تأييد حقوقه بالسيف ؛ وحارب أشرف الولاية والجنوبيون في هذه الحركة إلى جانب ملك أراجون ، حتى ظفر بالنصر على خصمه الكونت دى تولوز ، خصوصاً وقد كان الكونت يشغل في الوقت نفسه بمحاربة هنرى الثانى ملك إنكلترا ؛ ولما كان حكم بروقانس أمراً صعباً نظراً لبعدها عن أراجون وكانت أحوالها المضطربة تستدعى أن يقوم على إدارتها حاكم مقيم ، فقد رأى ملك أراجون أن يقدم مع أخيه الأصغر بيدرو اتفاقاً بقبول الأراضى ، وأعطاه ولاية بروقانس ليحكمها بمهد الجزية من قبل العرش الأراجونى ، نظير استيلائه على ولاية شرطانية ، وقرقشونة وجزء من أرونة (سنة ١١٦٨ م) .. وتوطد سلطان الأمير الجديد فى الولاية ، باتفاق عقد فيها بعد ، فى سنة ١١٧٦ م ، مع الكونت دى تولوز ، والتزمت مدينة نيزا مع ذلك أن تدفع بمويعناً مالياً كبيراً إلى ملك أراجون نظير مقتل الكونت برنجار .

أما فى اسبانيا ، فكان ملك أراجون يسير من حرب إلى حرب ، ولم تكن الملائق بين أراجون وقشتالة طيبة فى البداية . ومع ذلك فقد رأى الفونسو الثانى أن صالحه يقضى بمقد السلم مع قشتالة والتحالف معها ، وذلك لىكى يستطيع محاربة المسلمين والنافاريين بنجاح وظفر ؛ ثم تم بعدة غزوات محزنة فى أراضى بلنسية ، وأرغم عدة من صفار الأمراء المسلمين على دفع الجزية ، وخصن مدينة ترويل ، ليتخذ منها فيما بعد قاعدة للغزو فى تلك الأنحاء .

وأثارت هذه الانتصارات غير سانشو السادس ملك نافارا ، فساد ملك أراجون يسير إلى محاربة المسلمين ، حتى انقض سانشو بقواته على أراجون ، واضطر الفونسو الثانى أن يترد إلى محاربته وأن يترك غزواته فى الجنوب ؛ ورأى الفونسو أن يستعين بقشتالة على محاربة خصمه فوثق أواصر حلفه معها ، وتزوج من أخت الفونسو التيبيل ملكها ، الأميرة سانشا فى سنة ١١٧٤ م ، وذلك بالرغم

من أن عروسه الأولى الأميرة يودشيا ابنة قيصر قسطنطينية ، كانت في طريقها يومئذ إلى اسبانيا . وهكذا خاضت قشتالة وأراجون الحرب معاً ضد نافارا مدى أعوام ، ومع ذلك فانهما لم يحققا من ورائها سوى نتائج يسيرة ، إذ كان من الصعب القيام بفتوح ثابتة في أرض تنقص بالجيال والقلاع النبعة ، ولذا رحبنا بما عرضه هنري الثاني ملك إنكلترا من التوسط بمقد الصلح بين الفريقين . ومع أنهما لم تنقبعا بنتائج هذا المسمى ، فانه أسفر مع ذلك عن وقف الحرب بين الدول الثلاث .

وتبدو أهمية هذا التحالف بين قشتالة وأراجون بالنسبة لملك قشتالة متى استعرضنا حال مملكته في ذلك الحين . فقد كان ملك قشتالة في حاجة دائمة إلى المال ؛ وحينما طالب الملك الأشراف في مجلس برغش بمبالغ طائلة اعترض بيدرو دي لارا على هذه المطالب الفادحة بشدة ، بحجة أنها تناقض حقوق الأشراف وانسحب من الاجتماع مع معظم أشراف قشتالة . ولم تكن السكينة قد سادت بعد أرجاء المملكة ، فقد كان القتال مستمرا بين آل لارا وآل كاسترو ، وكان فرديناند ملك ليون يعمل على إذكاء الاضطراب بكل الوسائل الممكنة ، وكان سانشو ملك نافارا يتحفر دائماً للزحف على برغش لانتزاع ولاية ريوجا ، وكان المسلمون يهددون كل آن بأن يبتاعوا المملكة كلها بجيوش ساحقة ، وكانت استرامادوره ، وهي ولاية قشتالة ، كلها في قبضة ملك ليون ؛ وكان ملك البرتغال خارجا على سلطان قشتالة ؛ فلم يبق إلى جانب قشتالة إزاء هذه الجبهة من أعدائها وخصومها سوى أراجون ؛ واضطرت قشتالة أن تشتري صداقة حليفها بثمان يدنو إلى التضحية ؛ فقد دنع الفونسو النبيل ثمن معاونة أراجون في حملته ضد الموحدون ، تنازله عن حق الجزية على سرقسطة وغيرها من الأراضي التي منحتها لياها القيصر الفونسو ؛ وأسفرت هذه الحملة المشتركة عن افتتاح قونقه (أوكونكه) في سنة ١١٧٧ م — ٥٧٢ هـ وهزم الموحدون بعد أن تقدموا حتى ظاهر طليطلة مزينة فادحة بيد أن ملك قشتالة لم يستطع أن يجتني ثمرات ظفريه إذ دبت النيرة إلى ملك أراجون ، وغدا

يخشى أن تصبح قشتالة من القوة بحيث تفتتح بافتتاح أراضي بلنسية ومرسية ،
وهي أراض كان ملك أراجون يرى أنها تدخل في منطقة الفتح الخاصة بمملكته .
ومن جهة أخرى فقد أخذ فرديناند ملك ليون يتحرك من جديد ، ولم يكن يفكر بنزو
أراضي قشتالة وانتزاع بعض الأماكن منها ، بل أخذ يستعد لاستئناف الحرب
مهما ؛ وترتب على ذلك أن تحالفت قشتالة وأراجون والبرتغال على محاربة ليون
ونافارا (سنة ١١٧٨ م) ، ولكن ملك أراجون اضطر أن يسير إلى جنوبي فرنسا
لكي يوطد وسائل المحافظة على أملاكه الفرنسية ومنها ولاية روسيون ، ومدينة
برزيه وما إليها من الأراضي التي آلت إليه باليراث ، ولم يجد النصراني إزاء غارات
الموحدين المستمرة بدا من الفضي في مراقبتهم والتأهب لردم ، وهكذا تطور الموقف
بين الدول النصرانية ، وعملت أراجون ، وربما أيضاً هنرى الثانى ملك إنكلترا ،
على إزالة الجفاء فيما بينها ، وأسفرت الوساطة عن عقد الصلح مرة أخرى بين قشتالة
وليون ، وذلك في مدينة تورديسيلاس في سنة ١١٨٠ م وسوى النزاع القديم بين
أمرقى لارا وكاسترو ، وكذلك أزيلت أسباب سوء التفاهم بين قشتالة وأراجون
وعقدت بينهما في كازولا (سنة ١١٧٩ م) معاهدة نص فيها على أن شاطبة وبلنسية
ومرسية وما إليها من الأراضي ، تقع في منطقة الفتح الخاصة بأراجون ، وأن
الأراضي الواقعة غرب ذلك ومنها غرناطة تقع في منطقة الفتح الخاصة بقشتالة .
وليس في تاريخ الممالك النصرانية الإسبانية في عشرة الأعوام التالية ما يستحق
التفصيل والإفاضة ؛ وقد رأينا ، لكي لا نرهق القارى بسرد حوادث وظروف
متباعدة ، أن نقتصر على وصف حالة إسبانيا بصفة عامة متخذين قشتالة دائماً محور
الحوادث والتطورات .

أفضت المارك والتنازعات المستمرة بين ملوك إسبانيا إلى أن اجتاحت إسبانيا
النصرانية موجة هائلة من القسوة والتوحش ، ووصل حكم العنف وعدوان الأقوياء
في شبه الجزيرة إلى ذروة الاضطرام ؛ واندفع الأشراف والفرسان جميعاً إلى خوض
الحرب ، يكافح بعضهم بعضاً في معارك ومبارزات لا نهاية لها ، وضربت الأهواء

الحزبية كل الأسر وروابط القرى ، وساد القتل والمطاردة ، حيث ضعفت السلطة العامة . وهكذا لاح أن نظم الدولة والحكومة قد غدت على وشك الانهيار ، وحتى الكنائس ورجال الدين ، بمد أن كان الدين يسبغ عليهم لونا من القدس ، لم تبقى لهم حرمة ، ووطئت بالأقدام كل الوصاية البشرية والساوية ، واضطرت جماعات الفرسان الدينية التي قامت لتكافح من أجل الدين ، أن تبذل في قمع أعمال العنف التي يقوم بها الناهبون من الفرسان النصارى ، مثل الجهد الذي تبذل في عاربة المسلمين ؛ ومع أن الأمير الشجاع الفونسو الثانى ملك أراجون ، استطاع أن يدافع عن مملكته ضد جميع أعدائها الخارجين ، وأن يضم إليها ولاية بروفانس عقب وفاة أخيه بيدرو الذى قتل فى سنة ١١٨١ ، وذلك بالرغم من معارضة الكونت دى تولوز ، فإنه لم يستطع مع ما اتخذ من الإجراءات الحازمة ضد آثام الأشراف وضد مزاوله حق القوة ، أن يحول دون وقوع أفطع الشناعات فى بلاده ؛ فى عهد مثلا وقعت حادثتا قتل فى طركونة قتل فى كل منهما مطران . وتفصيل ذلك أنه فى بداية حكمه حدث نزاع بين المطران هوجودى سرفيلوس ، وبين حاكم طركونة رويير بورديه ، وقام جيوم وله الحاكم بتخريب جميع الأراضى الواقعة حول طركونة . ولما أراد الملك أن يعاقب المتدين بشدة ، قتل المطران بتحريض رويير ، فأمر الملك بإخراج رويير وأسرته من المملكة ؛ ففر إلى ميورقة ولجأ إلى حماية المسلمين ؛ فغشى الملك أن يندو المجرم النار على هذا النحو خطراً على قطلونية ، فسمح بموده وأسرته إلى المملكة بالرغم من جرمته ؛ وكان لهذا التهاون أثره السيئ ، فإنه لم يحض سوى قليل ، حتى ارتكبت فى طركونة ذاتها نفس الجريمة على يد جيوم ومونديز دى مونكادا ، الذى اشتهر من قبل بمعارضته للملك ومنازعته له فى حقوق الملك ، فذا اغتال هذا الرجل الذى ينتمى إلى أكبر أسر قطلونية ، بنفسه ، حياة رينجار مطران طركونة ، وذلك فى سنة ١١٩٤ م ، ولم تكن الرواية بأن تقدم إلينا حتى سبب هذه الجريمة .

ولم يقتصر الأمر على أن كانت أسرتا لارا وكسترو تنتهزان في

النازعات والحروب التي تضطرم بين ملوك اسبانيا النصرانية ، لتفوز كل منهما بسلطة الحكم ، بل كان مثل ذلك يحدث في الممالك النصرانية الأخرى ؛ ففي أراجون كان بطل هذه الحركة بيدرو روي دي أزاجرا ، وهو نافاري استقر في الأراضي الأرجونية ، وكان مثل البطل القديم ، السيد الكنييطور ، فارساً شجاعاً وقائداً عظيماً ، يحارب طوراً إلى جانب المسلمين ، وطوراً إلى جانب النصارى ، ويبيع موارثته أحياناً إلى ملك أراجون ، وأحياناً إلى ملك قشتالة ، وآونة إلى ملك نافارا ، ويستغل منازعاتهم ، لتوطيد سلطانه ، واستقلاله عنهم جميعاً ؛ وقد استطاع بحالفة أمير بلنسية أن يستولى على مدينة شَنْتَمَرِيَّة الشرق (شَنْتَمَرِيَّة ابن رزين)^(١) ، وهي موضع أسبغت عليه الطبيعة والفن حماسة غارقة ، واستطاع بإعادة مركز الأسقفية القديم في سيجو بريجما ، بشمعيد البابا إسكندر الثالث ويوحنا مطران طليطالة أن ينضم عطف رجال الدين والأتقياء . ولما أدرك ملكا قشتالة وأراجون ما تنطوي عليه محاولته وخديسته ، وشهرا عليه الحرب ، ألقي بيدرو دي أزاجرا ، في نحاسد الملكين خير حليف ، إذ كان كلاهما يؤثر أن يرى بيدرو ، وهو زعيم محلي ، على أن يرى زميله ، مالكا لهذه القلعة الهامة الواقعة في شعب الجبال عند الحدود ؛ وهكذا استطاع بيدرو حتى وفاته أن يحتفظ بسيادته على شَنْتَمَرِيَّة الشرق ، بل لقد توارثها عقبه مدى حين .

وكانه لم يكن اسبانيا النصرانية ما كانت ثمانى من عوامل الاضطراب والتفرق ، فكان مما أذكى الفتنة إلى الندوة أن اختلف الملوك الأسبان مع الكرسي الرسولي ، وأدت منازعاتهم معه إلى أن تحرم البلاد حتى من عزاء الدين .

وقد كان الفونسو هنريكيث ملك البرتغال وفرديناند ملك ليون يجلان الكنيسة ورجال الدين أعيان إجلال ، ولكن ولهيما وخلفيها ، الملك سانشو الأول الذي

(١) هي حبا تدم في حواشي الجزء الأول مدينة Albarracin الحديثة وهو تحريف لاسم بني رزين حكماها للمسلمين أيام الطوائف . وتوه الرواية الإسلامية بما كانت عليه كنيستها الشهيرة من الفخامة وما كانت تحتويه من غنائم التحف (راجع معهم ياقوت تحت كلمة شنت مريّة)

تولى عرش البرتغال في سنة ١١٨٥ م ، والمالك الفونسو التاسع الذى تولى عرش ليون في سنة ١١٨٨ م ، لم يشاطرا الوالدين هذه الماطفة ، وقد لاح في بداية عهد الملكين ، أن الخصومة القديمة بين ليون والبرتغال من ناحية ، وبينها وبين قشتالة من ناحية أخرى ، قد خمدت جذوتها ، والتقى ملك ليون الفتى في مدينة كاربون في سنة ١١٨٨ ، بالفونسو النبيل ملك قشتالة ، وتلقى منه عهد الفروسة ، ولكنه حينما قبل يد ملك قشتالة إعرابا عن المحبة والرفاق ، عد ذلك منه رمزاً للخضوع والطاعة . ولم تقع النفرة بين الملكين بسرعة ، ولكنهما بالعكس قاما في العام التالي بحملة مشتركة لمحاربة المسلمين في أراضي إشبيلية ، بيد أنه ما كادت هذه الحملة تنهى حتى دب النزاع بينهما من أجل الأراضي المفتوحة ؛ فلك قشتالة يدعيها لنفسه باعتباره صاحب السيادة ، ويدعيها ملك ليون باعتبارها جزءاً من ولايته استرامادوره . ولما رأى ملك ليون الفتى أنه محصور بين جارين قويتين يهددانه بالحرب دائماً بالرغم مما يربطه بهما من أواصر القرى ، اضطر لكي يستطيع مدافعة ملك قشتالة الذى غزا أرضه بالفعل ، أن يعقد مع الملك الآخر حلفاً وثيقاً ؛ ومع أنه كانت نجمته باهية سانشو ملك البرتغال ، المدونا نيريزا ، رابطة قرابة مباشرة — (إذ كانت أمه خالة الأميرة) — تعتبرها الكنيسة مانعاً من الزواج ، فإنه اقترن بها (سنة ١١٨٩ م) ، إذ رأى في هذا الزواج وسيلة لتوطيد عرش ليون .

وما كاد البابا كلنضوس الثالث يقف على هذا الزواج ، حتى أرسل إلى اسبانيا مندوباً نادى بالإناء ؛ ولكن سانشو ملك البرتغال ، الذى لم يكن يبدى في مملكته كبير حساب للكنيسة ورجال الدين ، لم يعبأ بأمر البابا ؛ وكذلك لم يعبأ به صهره ملك ليون ، إذ كانا يريان في هذا الزواج عاملاً في توثيق الاتحاد بين مملكتيهما ، ويريان أن ما يملكه البابا من حق التشريع بالنسبة لطوائف الشعب ، لا يسرى على الرؤوس المتوجة .

وبى تلك الأثناء اعتلى سلسطان الثالث كرمى البايوية ، وأصر على وجهة نظر سلفه ، وتحدث مندوبه في المجتمع الكنسى الذى عقد في شلنقة في سنة ١١٩٢ م

لبحث الموضوع طالبا إلغاء الزواج في الحال ، ولكن أساقفة ليون واسترقة
وشلمنقة وسمورة عارضوه وصرحوا بأن الزواج صحيح لم تخرق بعقده أية نصوص
سماوية أو كنسية ، وأن مايعتبر من الموانع بالنسبة للقوانين الشمسية أو نظم الدولة
لا يطبق على الملوك ؛ إذ أنه في وسعهم إلغاء ماشرعوا ، وفي وسع الملوك أن يقرروا
عقد زواج شمي أو يلقوه ، ولكن ذلك لا يمكن أن يطبق عليهم بواسطة سلطة
أسمى إذ أن ذلك يتعارض مع سيادتهم المستقلة . ولكن النندوب البابوي أصر على
رأيه وقرر « حرمان » الأساقفة المخالفين ، وهدد السكسين « بالحرمان » أيضاً إذا
استمروا على معارضتهم للقرار البابوي . فلما أبى الملكان الخضوع صدر في العام التالي
(١١٩٣ م) قرار بابوي يحرم كل الراسيم والطقوس الدينية في مملكتي البرتغال
وليون . فنتدئذ بلغ الاضطراب والعنف في الملكيتين القدوة ، ولا سيما بعد أن
بث فيهما حكم القوة ومحاربة المسلمين وروح النضال والجريئة ، ولم يكن يحول دون
انحلالها النهائي سوى الدين وأعرافه ؛ ولما لم يذعن الملكان ، واشتد هياج الشعب
لحرمانه من الطقوس الدينية ، وأبدى رجال الدين امتناعهم من القرار البابوي ،
عاد البابا وأذن لزولا على ضراعة أسقف سمورة الذي زاره في رومة برفع قرار الحرمان
الديني من الملكيتين ، على أن يبقى البطلان سارياً على كل حفل ديني يقام بمحضرة
ملك ليون أو ملكتها ، وأخيراً بعد نضال دام بضعة أعوام نزل الزوجان الملكيان
على إرادة البابا ، وقررا الانفصال بعد أن أعقبا من الزواج ثلاثة أولاد ؛ وهكذا
انتصر الكرسي الرسولي ، وليس بعيداً أن يكون خطر الموحدين الداهم من بواثت
هذا الخضوع لإرادة البابا . ذلك أن الشعب كان يرى في انتصار المسلمين على
النصارى عقاباً من الله من جراء زلات ملوكه ، وكان معظم رجال الدين يروجون
هذه الفكرة ، ولم يكن من اليسور ضمان خضوع الشعب إلا بإذعان ملوكه
للكرسي الرسولي .

ولم يكن ملك قشتالة يومئذ عقب من الذكور ، ولكن كانت له عدة بنات
أكبرهن برنجاريا ؛ وكان لابد من اعتبارها وارثة العرش وفقاً لقانون الوراثة

القشتالي حتى يرزق الملك بولي للمهد ؛ وكان الفونسو يعتقد أنه يستطيع بمصاهرة آل هوهنتاوفن قياصرة ألمانيا أن يسبح على مملكته قوة جديدة ؛ وكان سيد ألمانيا يومئذ القيصر فريدريك برباروسا (ذو اللحية الحمراء) يعيل إلى هذا المشروع ، مؤملا أن يفتح بتحقيقه عرش قشتالة لولده الأصغر كوزاد ؛ وعلى ذلك فقد عقد الزواج ، وجاء ولد القيصر إلى اسبانيا في سنة ١١٨٨ وتلقى من ملك قشتالة عهد الفروسة في كاريون ، وأقيم الحفل الديني بقرانه بولية المهد في طليطلة في حفلات باذخة ، ولم يتم الزواج يومئذ نظراً لحدائثة ولية المهد . بيد أنه لما رزق ملك قشتالة بولد ذلك بولده وولى عهده فرديناند ، وقضى بذلك على آمال كوزاد في ولاية العرش ألغى الزواج ؛ وتزوجت برنجاريا فيما بعد بالفونسو التاسع ملك ليون .

وفي تلك الأثناء كانت الحرب تهدد بالاضطرام من آن لآخر بين الملوك الثلاثة الذين تلتقي أملاكهم عند منابع نهر دوبرة ، ولكن النار كانت تطفأ في كل مرة بسرعة قبل أن يمتد لمهبها بصورة مخربة ؛ ولم تكن سياسة مقردة ، ولكن المحالقات كانت تمقد وتفصم وفقا للأهواء والظروف ؛ فقد عهد الفونسو الثاني ملك أراجون مثلاً بالرغم مما اتصف به من الحزم وحسن التقدير لظروف عصره إلى مصادقة أعدائه سانشو السادس ملك نافارا ، وعقد معه في سنة ١١٩٠ م حلفاً ضد ملك قشتالة أخلص حلفائه ، ولم يقد من ذلك سوى صاحب شتمرية الشرق (البراسين) ، ولا توضح الرواية لنا بواعث هذا الحلف المدهش الذي مالبث أن غدا بانضمام ملكي ليون والبرتغال إليه في العام التالي خطراً حقيقياً على قشتالة . بيد أن هذا الحلف بالرغم من خطره الظاهر لم يحدث أثراً يذكر . ذلك أن الخلاف والتحاسد حالاً دون نجاحه ، ومالبث أن انتهى بالحل ، وأثار انقسامه بين الحلفاء منازعات جديدة . هذا إلى أن أراجون رأس التحالف لم يكن بوسمها يومئذ أن تشدد الضغط على قشتالة نظراً لأن تحريك الكونت دى تولوز ، وغزوات الموحدين على حدودها الجنوبية كانت تستغرق كل اهتمامها .

فهل نعجب بعد ذلك إذا كان الفونسو ملك قشتالة قد هزم حينما لقي وحده

قوى الموحدين الثالبة في ميدان الحرب في موقعة الأرك^(١) الحموية في سنة ١١٩٥م (٥٩١ هـ) . وقد خاضها دون أن يماونه أحد من باقي الملوك النصارى ؛ بل كان منهم من يماون الموحدين جهراً مثل ملك نافارا ، ومن يماونهم سرا مثل ملك ليون ، وكلاهما كان يتظاهر بصداقته وبمده بالمون .

وأخيراً اضطر ملك قشتالة لكي يستطيع الاحتفاظ بملكه أن يرتعى في أحضان الموحدين ، وأن يتبع سياسة المصلحة الشخصية التي سار عليها باقي ملوك اسبانيا النصرانية . وهنا فقط أدرك البابا - لستان الثالث ، والفونسو الثاني ملك أراجون فداحة الخطر الذي يهدد النصرانية في شبه الجزيرة ، وحاول ملك أراجون بكل ماوسع من غيرة وعزم أن يعمل على اجتماع القوى النصرانية ، فسافر إلى شنت باق وبمفاوض مع ملك ليون ، ثم سار إلى قُلمرية حيث التقى بإسانشو ملك البرتغال ، واجتمع مع ملك قشتالة وملك نافارا في مدينة ترارونا الواقعة على حدود مملكتيهما ؛ ولكن جهوده ذهبت عبثاً ولم يوفق إلى تهدئة الخصومات المضطربة ، ولا سيما بين ملكي ليون وقشتالة بالرغم مما كان يجمعهما من أواصر القرى .

فماد الفونسو الثاني إلى مملكته وهو يفيض أسفا لفشل مساعيه ، واستدعى مجلساً في برينيان يمثل الطبقات في لانجدوك وبروفانس ، وهناك أصابه المرض وتوفي في ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ في الرابعة والخمسين من عمره . بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاماً . وقد اشتهر الفونسو بفروسته وحزمه وحبه للمدالة ، واعتمد بالأخص على جهود الهادوية (فرسان المبد) ، وفرسان القديس يوحنا في حماية الحدود من غزوات المسلمين ، وعمل باتخاذ الإجراءات الصارمة على تأييد السكينة والنظام ، وقد كان يهددهما يومئذ حكم القوة بلا انقطاع ؛ وكان يضع المسافرين الذين يجوبون البلاد تحت رعايته الملكية لحمايتهم من كل اعتداء ، وعمل على تعزيد الزراعة وتحسين مستوى العيش في المملكة باتخاذ الإجراءات الحكيمة وتوفير أسباب العيش للفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى ، وأبدي نحو الكنائس والأديار

(١) هي المروقة في الرواية النصرانية بمركة « الأركوس » Alarcos .

منتهى الجود ، وكان قوى النفس والخلق يسبغ على المرش بجلاله وهيئته روعة ووقاراً ؛ وقد نى عليه بعض خصومه نكته وإخلاله بالمعهد ، ولكن هذا الاهتمام يرجع إلى الحفيظة أكثر مما يرجع إلى الواقع ، ولم يقصد به إلا النيل من سمته وهو بذلك غير جدير بثقة المؤرخ .

وكان ألفونسو الثانى مثل أبيه ريموند بنجمار الرابع نصيراً عظيماً للشعر وأرباب القريض الثنائى (طائفة التروبادور^(١)) ؛ وكانت أملاكه فى جنوبى فرنسا مهداً لازدهار الشعر البروفنسى (نسبة إلى بروفانس) ؛ وكان يتنافس مع صديقه ريتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا فى خلال الفروسية وفى بذخ الحفلات اللوكية التى لم تكن تخلو من المنين قط ، وكان يجمع حوله أشهر أقطاب الشعر الثنائى فى هذا العصر مثل بيير ريموند دى تولوز ، وهو جو برونيه ، وبيير فيدال وغيرهم .

وكان معظم أولئك الشعراء (التروبادورين) يتمتعون بمطف هذا الملك الرفيع الخلال وجوده ، ويكثر من الإشادة بذكوره فى قصائدهم وأنشيدهم ، ولم يهجه منهم سوى برتران دى بورن الذى سماه دانتى « بمنى الحرب » ، والذى لم يسلم من هجائه أحد من الأكابر ؛ فقد غمر هذا الشاعر ملك أراجون فى قصائده بمطاعنه ورماء بكل نقمصة ، لأنه تشاجر معه ذات مرة فى بعض حروب فى جنوبى فرنسا ، ولكن هذه المطاعن لم تنل من سمعة الملك الفارس المجيد .

ولم يكن ألفونسو صديقاً ونصيراً فقط للشعراء النشدين ، ولكنه كان مثل

(١) التروبادور Troubadours ، أو باللفظ البروفنسى Trobador هم طائفة من شعراء المصور الوسطى ظهروا فى ولاية بروفانس فى جنوبى فرنسا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتهروا بنظم الشعر الثنائى وشعر الفروسية ، ثم انتشروا فى بقى إمارات فرنسا الجنوبية مثل أكرتين ولانجدوك وكذلك ظهروا فى فلولونية وأراجون وشمال إيطاليا ، وملأوا هذه الأقطار زهاء قرنين بقصائدهم وأنشيدهم ؛ وكان أشهرهم طائفة من الفرسان برعت فى الشعر والرماية ؛ وكانوا يتنقلون من بلاط إلى بلاط ومن قصر إلى قصر ؛ ويشير أوتون مناما ذا شأن فى المجتمع الربيع فى ذلك العصر ؛ وشعرهم يمتاز بالبرقة والظرف وحب المتي ، ومصادر إلهامه الحرب والدين والحب . ويرى بعض النقاد أن طائفة « التروبادور » قد تأثرت فى وحيها وفى طرائق نظمها بالشعر الثنائى الأندلسى وقريض الفروسية الأندلسية .

وتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا شاعراً غنائياً (تروبادور) ، وقد ضاعت جميع قصائده الثنائية ولم يصلنا منها سوى قصيدة واحدة ، وهي تمتاز بالأخص بجمال أسلوبها وظرف معانيها .

وأورث ألفونسو ابنه الأكبر حب الشعر ، كما أورثه مملكته ؛ وكان قد اختاره في وصيته خلفاً له على عرش أراجون وأملاكه في جنوبي فرنسا ماعدا ولاية بروفانس وأراضي كاثيدون وميلور ، ودعوى الولاية على مونتبلية ؛ فقد أعطيت إلى ولده الثاني ألفونسو . أما ولده الثالث فرناندو فقد التحق بالرهابية في إحدى الأديار .

وتوفي قبل ألفونسو بعامين (سنة ١١٩٤) خصيمه الأله وحليفه أحيانا في أواخر عهده الملك سانشو السادس الملقب بالقوى ، بعد أن حكم نافارا أربعة وأربعين عاما ؛ ومع أنه كان يهدد بالحرب أحيانا من قشتالة وأراجون متحدثين ، وأحيانا من هذه المملكة أو تلك ، فقد استطاع أن يمتنع في مملكته الصغيرة المحاطة ببحيران أقوىاء ، وأن يرد كل المحجبات التي وجهت إليه ، وأن يفوز أراضي العدو بنجاح كلما لاحت له فرصة حسنة ؛ وأنه لم يلق الشاق بلا ريب أن تعرف الوسائل والطرق التي كان الملك سانشو يلجأ إليها لحماية استقلاله ؛ بيد أننا لم نتلق عن نافارا في ذلك العصر تاريخاً مفصلاً ولو بمض التفصيل ، ولذا فإنه ليس لدينا ما نقوله عن حكمه سوى ما قدمنا من سيرته ؛ واتخذ ولده وخلفه سانشو السابع الملقب « بالحكيم » حكم أبيه قدوة له ؛ بيد أنه كان يمانى مثل ماعان أبيه من الصواب والخطوب .

الفصل السادس

تاريخ الموحدين في الأندلس منذ افتتاح غرناطة

حتى وفاة يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك

١ - تنظيم حكم الموحدين في عهد عبد المؤمن

سبق أن فصّلنا فيما تقدم كيف أنهارت دولة المرابطين في المغرب والأندلس على يد عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وكيف استطاع عبد المؤمن أن يوطد عرشه بالمغرب بسحق الخارجين عليه ، وأن يفتح الأندلس كلها من يد خصومه المسلمين والنصارى . ولما كان عبد المؤمن ، قد استطاع بظفريه على آل حماد في المغرب الأوسط^(١) ، وعلى الفرنج النورمانيين الذين كانوا قد افتتحوها شاطئ إفريقيا الشمالى ، واستولوا على تونس والمهدية ، أن يدفع حدود دولته من الشرق إلى ما وراء القبروان ، فقد غدا بذلك متاخما للفاطميين أصحاب مصر^(٢) ، وغدت دولة الموحدين بذلك أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ؛ وكانت محمد بن عبد الله من الجنوب

(١) دولة آل حماد ، هي فرع من دولة آل زيري بن مناد الصنهاجى ، وتنسب إلى مؤسسها الأمير حماد الصنهاجى ، وقد قامت بالزاب والمغرب الأوسط في أواخر المائة الرابعة ، وخرج صاحبها عن دعوة المبيدين أصحاب مصر ، واستمر الملك في أسرته زهاء قرن ونصف . وفي سنة ٥٤٧ هـ ، أخذ الموحدون القلعة وهي مركز دولتهم بالجزائر ، من يد صاحبها يحيى بن عبد العزيز الصنهاجى آخر ملوك بني حماد ، وانتهت بذلك دولتهم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ وما بعدها والمراكشى ص ١١٣ و ١١٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٨) .

(٢) كان الفرنج النورمانيون أصحاب مقلية ، قد أغاروا على تونس وتوورها في أوائل القرن السادس الهجرى ، واستولوا على مدة تنور منها مثل صفاقس وتونس وسوسة ، ثم =

بالمصحراء الكبرى ، ومن الغرب بالمحيط الاطلانطي ، ومن الشرق بمصحراء لوبية التي تفصلها عن مصر ؛ وأما من الشمال فكان يحدها البحر الأبيض المتوسط ، وفيما وراء الضيق — في شبه الجزيرة الاسبانية التي كانت يومئذ قبلة الفتح — كان الموحدون يملكون جميع الأراضي التي يطلق عليها اسم الأندلس ، وقواعدها الآلهة الثيمة ، إشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، واليبرية ، وهكذا كانت منطقة الوادي الكبير كلها في أيديهم ؛ وكانت تفصل بينهم من الشمال الشرق ، وبين مملكة قشتالة ، وأماك ابن سمدة (ابن مردنيش) صاحب مرسية وبانسية وحليف النصارى ، سلسلة من الجبال الشاهقة تتخللها قلاع منيعة ، وعمرات تحرسها حاميات قوية ؛ وأما في الشمال الغربي فكان نهر وادي آنه الذي ملكه الموحدون ضفته اليسرى كلها ، وملكوا من ضفته اليمنى عدة مناطق مثل ولاية الغرب وعدة مدن تمتد إلى مقربة من نهر التاجية (تاجو) ، أقل مناعة وأيسر اقتحاماً ، وكان الموحدون أكثر عرضة لهجوم أعدائهم من هذه الناحية .

وقد رأى عبد المؤمن قبل أن يتابع الفتح في الأندلس بكل قواه ، من الحزم والفضيلة ، أن يضع للدولة الجديدة نظاماً موطناً الدائم ؛ فألقى معظم النظم المرابطية العسكرية ، وهي التي أدت في النهاية بقسوتها وما اقترن بها من صرامة الزعماء والقادة إلى سحق الشعب وثورته على المرابطين ، وأطلقت حرية العلوم والمعارف ، بعد أن كانت الأسرة القادمة تشتد في مطاردتها ، وسارت جنباً إلى جنب مع الدين ، ومع الدولة الناشئة ونظمها العسكرية الجديدة ، وأقيمت في مراكش عاصمة المملكة — بما تحصل من أموال المرابطين — طائفة من المساجد والمدارس الفخمة ، غدت

استولوا على المهديّة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ؟ من صاحبها الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوك دولة آل زيري الصنهاجين ؟ فليلاً الحسن إلى الموحدين واستأثرت بهم ، واعتزم عبد المؤمن أن يستعيد هذه التنوير الإسلامية من يد النصارى ؟ فصار إلى تونس سنة ٥٥٤ هـ ، وهاجها من البر والبحر بأسطول ضخم ؟ وحاول التفرج إغاة إخوانهم فيشوا الأساطيل إلى مياه تونس ووقعت بين المسلمين والنصارى مباركة بحرية حائلة انتهت بفوز المسلمين واستيلاء عبد المؤمن على المهديّة في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) بعد أن بقيت في يد النصارى اثني عشرة عاماً (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ وروض القرطاس ص ١٢٩ والحلل الرشيد ص ١١٦ و١١٧)

مراكر للعلوم والآداب ؛ على أنه لم يسمح لهذه الحركة العلمية بأن تنمو وتنسج إلا بالقدر الذى يفيد الدولة والحكومة ، هذا فضلا عن وضعها تحت إشراف الدولة ، واقتنائها دائما بالخدمة العسكرية والتحرين في فنون الحرب . ذلك أن عبد المؤمن كان يمتحن أن يؤدى الانقطاع إلى السلم والفرس ، إلى إضناف المهم ، وفنود الحاسة الحربية لدى الموحدين .

وأنشأ عبد المؤمن في مراكن مدرسة لتخرج رجال السياسة وموظفي الحكومة ، وقادة الجيش ؛ وكانت تضم زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء الأكابر في وقت واحد ؛ وكانوا يسمون طلبة العلم أو الحفاظ ، نظرا لأنهم فضلا عن حفظ القرآن ، كانوا يدرسون رسائل الهدى ويحفظونها عن ظهر قلب ؛ كذلك كانوا يدرسون عدة كتب في إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة ؛ وكان عبد المؤمن يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره ، ويمتنحهم فيها درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه ، تشجيا لهم على الاجتهاد ، ولكي يحمل منهم رجالا أكفاء قادرين ، يستطيعون بعلنتهم وذكايتهم أن ينفخوا البلاد سواء في السلم أو الحرب ؛ ثم يمد في أيام أخرى إلى معرفة مدى تقدمهم في فنون الحرب ، فيختبرهم في الطعن بالحرب والرى بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، والرکض ، وفن القتال ، ثم في السباحة والمراك البحرية ، وذلك في بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره ، وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة من كل ضرب ، ليمرن الشباب فيها على القتال في البحر ، والتجذيف وقيادة السفن ، والرتب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التي تقتضيها الخدمة البحرية . وكان يخص أولئك الذين يمتازون بالمهارة والشجاعة بمبارات المديح والثناء ، ويقدم إليهم بنفسه نفيس الهدايا ، ليحفز بذلك همهم ، ويستزيد من غيرتهم واجتهادهم ، وكان تعليمهم جميعا على نفقة الدولة ، وبصرف إليهم سائر ما يحتاجون إليه ، ومن ذلك الخيل والسلاح وغيرها^(١).

(١) يقدم إلينا ابن الخطيب في الملل اللوشية تفاصيل شائعة عن هذه الحركة الثنافية =

وكان لعبد المؤمن بين هؤلاء الحفاظ ثلاثة عشر ولداً ، تقفوا على هذا النحو .
وتؤكد الرواية أنهم كانوا يبدون في هذه الامتحانات براعة في الفنون الحربية
والمعارف الرقيقة^(١) . وقد اختار عبد المؤمن من هؤلاء الحفاظ جميع القضاة
والفقهاء والولاة والعلماء ، وكل من أولاهم مناصب النفوذ والثقة ، واستطاع بذلك
أن ينشئ في نحو عشرين عاماً نظاماً جديداً للدولة ؛ إذ لم يبق من قدماء الموظفين
المارضين من يعمل على منواله ، وبذلك اطمأن عبد المؤمن على توطيد سلطان
الوحدين . على أنه كان يعمل من جهة أخرى على جعل هذا السلطان وراثياً في
أسرته ؛ إذ كان ثمة على قيد الحياة من أصحاب المهدي المشرقة اثنان هما في مرتبة
عبد المؤمن ، وفي وسعهما بعد موته أن ينازعا أسرته الملك ، وعلى ذلك فقد دعا
عبد المؤمن جميع الولاة وأشباه القبائل من جميع أنحاء مملكته الناشئة إلى
اجتماع عقد في سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) ، وأعلن فيه محمداً أكبر أولاده ولياً لهده ،
وأضاف اسمه في خطبة يوم الجمعة إلى جانب اسمه ، وبذلك أشرکه معه في الحكم في
معنى من المعاني .

وفي هذا الاجتماع أيضاً أقر عبد المؤمن رغبة أشبائ القبائل في أن يتولى
أولاده — وقد كانوا يسمون بالسادة — حكم الولايات ، وأن تكون ولايتهم
وراثية في عقبهم ، وعين لهم من الوزراء والحجاب والقواد كفاً الأشبائ ، وأبرع
الحفاظ ، على أن يؤخذ رأيهم في جميع الشؤون المهمة ؛ واختار السيد أبا حفص لولاية
سبتة وطنجة ، وبعض ثغور الأندلس ، والسيد أبا محمد عبد الله لولاية بجاية ،
والسيد أبا الحسن لولاية فاس ، والسيد أبا يعقوب يوسف لولاية الأندلس أو إشبيلية
وما إليها من المناطق^(٢) . ومع أن عبد المؤمن عين إلى جانب أولاده في كل ولاية

= والرياضة التي نظمها عبد المؤمن ؛ وهي تطابق في مجموعها ما نقله المؤلف عنها (ص ١١٤) .

(١) راجع الحلال الموشية ص ١١٤ .

(٢) هذه الرواية تطابق ما أوردهما بن خلدون (ج ٦ ص ٢٣٦) ؛ ولكن يوجد خلاف

يسير بينهما وبين بعض الروايات الأخرى (راجع الحلال الموشية ص ١١٥) وكتاب أخبار المهدي
ابن تومرت (ص ١١٦) .

من الأشياخ الأكفاء حاكما واثنين من خاصة الكتاب ؛ فقد لوحظ أنه لم يفعل مثل ذلك مع ولده السيد أبي يعقوب يوسف ؛ بل اكتفى بأن أقر إلى جانبه أبازيد ابن بكيت والى قرطبة ، واعتبر ذلك دلالة على قصد عبد المؤمن في أن يمنحه من الاستقلال قسطا أوسع مما منح لإخوته .

ومع أن عبد المؤمن كان يستأثر بالسلطة العليا ، ويحاول بالأخص أن يحول دون طغيان الولاة المستبدين وظلمهم وقسوتهم ، فإنه لم يوفق دائما إلى تحقيق هذه الغاية في أنحاء مملكته الشاسعة ، وكثيرا ما كان يقف على أمر المظالم بمد وقوعها . وإذا كانت الثورة كثيرة الوقوع في المغرب وقد حدثت ذات مرة أثناء غيبة زعيم الموحدين أن سقطت العاصمة مراکش في أيدي الثوار ، فقد أمر عبد المؤمن باتباع سياسة الشدة في الولايات والمدن النائرة على ألا يذهب الولاة مع ذلك في القسوة إلى حد إثارة بغضاء لا تحمد ، وبث صرامة تتحجر لها النفوس . ومن ثم فإنه لما استولى أبو زكريا بن يوسف على مدينة لبلقة وقتل من أهلها اثني عشر ألفا دون فارق في السن أو الجنس ، سخط عليه عبد المؤمن لهذه القسوة ، ولم يكتف بتأنيبه وعزله بل أمر باعتقاله ، بالرغم من أنه كان من خيرة القواد وأقدرهم ، وكان أشد ما أثار حنقه عليه أنه عقب الذبحة ، استاق جميع الأمرى من نساء وبنات وأطفال مع متاعهم ومالهم إلى البيع المائى ، وعقد لهم سوقا في مسكر الجند وزعم أن الأمر بمقدمها صدر عن الخليفة ذاته^(١) . كذلك سخط عبد المؤمن على الوزير أبي جعفر بن عطية وهو أندلسى الأصل وشاعر مجز - وعزله ، وصادر أملاكه لما ارتكبه من المظالم في حق الشعب . وعهد خلفه الوزير عبد السلام السكوى إلى إهلاكه بالسم خشية انتقامه ، وذلك بأن أرسل إليه رقعة مسمومة

(١) كان أبو زكريا بن يوسف (أو يسمون) واليا لأشبيلية من قبل عبد المؤمن . وقد استولى على لبلقة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) في مناظر مروعة من الدنك ؛ إذ جمع أهلها في ميد واحد وقتل منهم ألوكا عديدة ، ميت نساؤم وأبنائهم وأسلاهم . والمؤلف لا يورد أبدا سوى ما ذكرته الرواية العربية ، واجمع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ وروض القرطاس ص ١٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ .

منها أياتاً من الشر . ولكن القاتل لى فما بعد مثل هذا المصير ، حيناً سخط عليه سيده ونكبه^(١) .

وقد فقد زعماء الرابطين حب الشعب بما ارتكبوا من صنوف القسوة والمظالم وأضر ما بذلك نار الثورة على حكومتهم ؛ وهذا ما أدركه عبد المؤمن حق الإدراك وحله على أن يبدل كل ما فى وسعه لكي تبدو الحكومة الجديدة فى ألوان مقبولة ، ومن ذلك ما عمد إليه من رفع الحظر عن طائفة من الكتب التى حظر الرابطون قراءتها أو استنساخها وتشجيع نشر الكتب التى تتحدث عن الفروسية وأسيرها ، أو كتب الفاسرات والقصص فى جميع أنحاء المملكة سواء فى الغرب أو الأندلس ؛ بل لقد سمح بقراءة هذه الكتب من فوق منابر المساجد ، وهو نقيض ما كانت تجرى عليه حكومة الرابطين ، إذ كانت تعتبر أمثال هذه الكتب كتب كفر ضارة وتأسر باحراقها أينما وجدت . أما المؤلفات التى تظمن فى حكومة الموحدين ، وفى المبادئ التى تقوم عليها ، فكان عبد المؤمن يأمر العلماء والكتاب الذين امتازوا بفؤة الحجة بكتابة الردود عليها . مثال ذلك ما أسبر بكتابه ضد الكاتب القرطبي أبى الحسن عبد الملك بن إياس .

وكان أشد ما يبنى به عبد المؤمن — وهو من أعظم فواد المصور الوسطى — تنظيم شؤون الحرب والجهاد . وقد بث إليها بمحموده نهضة إحياء شاملة . وإليك وصفا شائفا تركه لنا مؤرخ عربى عن نظام سير جيش الموحدين وتقسيمه ، لمناسبة

(١) استورد عبد المؤمن الوزير أبى جعفر أحمد بن عطية ، وهو من أسرة أندلسية هاجرت إلى مراكنش ؛ وكان أبوه من قبل وزيراً لأمر الملقين على بن يوسف التتوتى ، قتل بأمر عبد المؤمن فى حصار طاس ؛ أما ولده أبو جعفر فكان وزيراً لإسحاق بن على التتوتى ؛ ولا سقطت مراكنش فى أيدي الموحدين عفا عنه عبد المؤمن واستوزره لها بعد ، ولم يلبث أن مما شأنه ؛ ثم بنى عبد المؤمن مع ولده السيد أبى يعقوب على إسبيلية ليعاونه فى حكمها ، وفى أثناء غيخته دبر خصومه وفى مقعدهم خلفه الوزير عبد السلام التتوتى هلاكه ؛ فلما عاد إلى مراكنش قبض عليه ، وأمر عبد المؤمن بقتله قتل فى سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٥ م) . أما رواية مصرعه بالسهم فلم نجد ما يؤيدها (راجع روض القرطاس ص ١٢٨ والمراكنش ص ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٧ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ و ١٥٣) .

حديثه عن الحرب التي شهرها عبد المؤمن على النورمان الصقليين ، حينما استولى على تونس والمهدية .

كان سير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس ؛ وكانت علامة السير ثلاث قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً مدهون بلون الوحدين الأخضر ، ومحل بالذهب ، وقد صنع من خشب رنان ، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب في مكان مرتفع ، في يوم ساكن لا ريح فيه ؛ وكانت كل قبيلة تنبع عليها الخصاص ، وهو يحمل مطوياً أثناء السير ؛ ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع ، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ؛ وحمل الخيام والمتاد والمؤن على ظهور الجمال والبواب ، هذا غير ما يتبع الجيش من قطمان عديدة من الثيران والأغنام ، تسير تحت إشراف الرعاة ، وتخصص لغذاء الجند ؛ وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف — فضلاً عن الفرسان — من سبعين ألفاً من المشاة ؛ وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير ، مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء ، أو ضيق في المكان . وإذا كان معظم الجند مثقل السلاح ، فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظاهر ، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير في اليوم التالي بقوى مجدة ؛ وترتب على هذا التمهّل في سير الجيش ، أن اقتضى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهي مسافة كانت تقطعها فرق الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط . وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والفداة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه ، وإلى قيادة الجند التابعين له ؛ وكان يتقدمه في السير مائة شيخ وقائد ، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثياباً نفيسة . وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركا وتيمناً ، وقد وضع في تابوت بديع الصنع ، محلى بصقائح الذهب ، مرصع بأروع اللآلئ ، والأحجار

الكرعة ، حتى أنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين ، وبني عباد ملوك إشبيلية ، وبني هود ملوك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيه جميعاً ، وتكدست ؛ وهذا الثابت يحمل في هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربع أربعة أعلام ؛ ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وإلى جانبه ولده وكناب سره السيد أبو حفص وإلى نلسان ، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف ؛ ويتبعه على قيد مسافة قصيرة ، الأسراء ، وأبناءؤه الآخرون الذين يرافقون الجيش . ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية ، والناخون في الأبواق ، والقرون ، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية ؛ ثم الولاة والقضاة ، والوزراء والكتاب ؛ وبعد ذلك يأتي الجند متتابعين في نظام محكم . فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المسكر ، أفرد لكل قسم مكانه المعين ، ولا يسمح لإنسان أن يترك المسكر دون إذن القائد المختص ؛ ثم توزع الأذوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة ، على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يفر على أحد منهم ^(١) .

ويبدو من تأمل هذه النظم الصارمة ، ومن الثابتة على التمارين الحربية ، أن عبد المؤمن كان في جميع مشاركته العسكرية يعني نهاية خاصة باختيار مواقع القتال ، وتول القيادة بنفسه ، وأنه لم يكن ثمة في إفريقية أو الأندلس أمير يضارعه في فنون الحرب . وقد استطاع بذلك أن ينشئ نظاماً جديدة في منتهى البساطة ، ولكنها حجة الفوائد ، وأن يوجه فن الحرب ، بما وضعه من ترتيبات صارمة للجيش ، وجهة جديدة ؛ وكان من رأيه دائماً أن قيمة الجيش ليست في عدده ، وإنما في قبل كل شيء في قدرته وفائدته ، كما أنه كان ، خلافاً لأسلافه المرابطيين ، ومنظم ملوك المغرب ، يرى أن قوة الجيش الرئيسية ، يجب أن تؤلف من جند من الشاة حسنة التدريب والتسليح ، وأن قوى الشاة هي العامل الحاسم في مصير

(١) في الحلال الموشية تفصيل حسن لنظام جيش عبد المؤمن ، وخطط سيره ، وذلك بمناسبة كلامه عن توجه عبد المؤمن إلى المهدية لإيقاظها من النصارى : ومن الواضح أن ما أورده المؤلف هنا (تقلاً عن كورني) ، قد نقل في الأصل عن الحلال الموشية مع تغيير يسير (راجع ص ١١٥ — ١١٦) .

المواقع وفي اقتحام المدن . أجل كان لديه جيش أكبر من الفرسان ، ولكنه لم يكن يعلق عليه نفس الأهمية التي يعلقها على جيش المشاة ؛ ذلك لأن الفرسان المتاربة ، كانوا أثناء المواقع أقل خضوعاً للأوامر والنظم .

ولما عمل عبد المؤمن على تخطيط حدود مملكته ، ومسح جميع أراضيها ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثروتها وغلاتها^(١) ، كان يربى بذلك من جهة إلى تقرير الضرائب الواجب نأديتها على كل ولاية ، ومن جهة أخرى إلى أن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه ، فكان على الثغور في المغرب والأندلس مثلاً أن تقدم البحارة والسفن ؛ وعلى المناطق الصحراوية والفتية بالخليل ، أن تقدم الفرسان ، والخليل ، ودواب الجمل ، والجمال ؛ وعلى الولايات الأخرى ، أن تقدم الجند المشاة والسلاح من كل ضرب ، كل بنسبة سكانها ، ولكن المناطق أو الرعاء الذين حقت عليهم العقوبة بسبب الثورة ، كان يفرض عليهم أن يقدموا من الجند ضعف الصفوف العادية أو أكثر ؛ فتلا فرض على قبيلة « كومية » وهي من بطون زناتة ، كمقاب لها أن تؤدي عشرين ألف مقاتل ، وهو ما لا يتناسب مع سكانها ؛ ولكن أشياخها سموا إلى استرضاء الخليفة بمضاعفة هذا العدد ، فساروا إلى العاصمة في أربعين ألف فارس حسي الثياب والسدة ، حتى أن عبد المؤمن توجس من مقدمهم في البداية ، وخشى أن يكون المدوان مقصدهم ، في حين أنهم قدموا نفاوعاً لخدمة ، واستخدم عبد المؤمن عدداً كبيراً منهم في حرسه الخاص ، إظهاراً لثقتهم بهم ، وأذن لهم عند وصولهم إلى مراكش ، بدرض فنون الفروسية ، وألعاب الخيل ، فكانت الخيل تحيي الأمير برأسها أو تركع أمامه بمتعنى الرشاقة^(٢) .

أما السلاح ، فكان عبد المؤمن يحتفظ منه دائماً بمقادير وافرة ، تحتفظ

(١) راجع روض القرطاس ص ١٢٩ .

(٢) يلاحظ أن قبيلة « كومية » هذه هي القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة عبد المؤمن ؛

راجع في ذلك وفي مقدم فرسان كومية على مراكش (روض القرطاس ص ١٣١ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، والمراكشي ص ١٠٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

في المخازن المدة لذلك ؛ وقد أنشأ مصانع للسلاح في كثير من قواعد مملكته ، فصنع فيها القسي والنشاب ، والخوذات والدروع والسهام ، وغيرها من الأسلحة اللازمة للجوهر والمدافع . وفي بعض الروايات أنه كان يصنع في مملكة الموحدين في عهد عبد المؤمن كل يوم عشرة قناطير من السهام ، وهذه فيما يبدو مبالغة من بعض المؤرخين المسلمين ، أو هي خطأ في التقدير^(١) ؛ وقد كان عبد المؤمن فيما يظهر أيضاً ، على علم واسع بفنون الحصار ، وكان يستولى على أشد المدن حصانة بما يبنى وفق رأيه من آلات الرمي وخرق الأسوار (النجنيقات) . أما هل عرف عبد المؤمن استعمال البارود — وقد كان من قبل أشد ذوقاً في المنرب والأندلس منه في أي بلد أوربي — فأسرُيتك في صحته ؛ بيد أن خلفاءه من الموحدين هم الذين نقلوا استعمال البارود في القرن الثالث عشر ، من إفريقية إلى اسبانيا .

وقد قسم عبد المؤمن مملكته بعد أن مسحها طولاً وعرضاً على يد أمراء الغرب المسلمين ، إلى ولايات ومناطق ومقاطعات ومدن وقرى ، وقرر عليها الضرائب وفقاً لنسبة السكان في البسائط المأهولة وحالة الأرض وخواصها ومقدار غلتها ، وكذلك وفقاً لأحوالها الزراعية وحالة مراعيتها وماشيتها .

وفي الوقت الذي كان عبد المؤمن يشغل فيه في الغرب بإخماد الثورات والفتن ، وافتتاح أطراف مملكته الشرقية ، وانتزاع المهدية وتونس من يد الفرنج النورمانيين ، كان يعمد بمتابعة الحرب في الأندلس إلى ولده السيد أبي بقوب يوسف — وإلى نفر من القادة البارعين الذين يعملون تحت إمرته . فلما انتهى عبد المؤمن من التغلب على النورمانيين في البر والبحر ، وأجلاهم عن جميع الأراضي التي استولوا عليها في إفريقية سنة ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، أخذ يتأهب لمتابعة النزو بنفسه في شبه الجزيرة الأسبانية .

فسار من أجل ذلك في جيشه حروب طنجة ليبحر منها إلى الأندلس ، ولما وصل إلى وهران نظم استمراشاً عسكرياً للقوات التي اختارها لمحاربة النصارى

الأسبان ؛ وهنا كاد عبد المؤمن يذهب ضحية مؤامرة دبرها جيشه . ذلك أن طائفة من جنود الموحدين سثموا طول القتال — ولم يكن قد مضى سوى القليل على عودهم من مقاتلة الفرنج في تونس والمهديّة — وناقت أنفسهم إلى رؤية الوطن بعد طول البعاد ، ورأوا أملهم في رؤية أهلهم وذويهم ينهار بسبب الغزوة الجديدة ، واعتقدوا أن خير وسيلة لتحقيق أمنيتهم هو موت عاهلهم الذي لا يبنى عن السير من فتح إلى فتح ؛ فاعتزموا قتله في الليلة التالية وهو نائم في خيمته ، فوقف على هذه المؤامرة شيخ من أشياخ القبائل ، ومع أنه وقف عليها في وقت متأخر ؛ فإنه استطاع أن يحذر عبد المؤمن في الوقت المناسب ؛ بيد أنه لم يكن ثمة منقذ من الوقت لمعاينة الجنّة على يد الجنود المخلصين ، ولم يجد الشيخ الأمين وسيلة لتلافي الشر سوى أن يموت من أجل سيده ، ونزل عبد المؤمن على نصحه ، ففادر خيمته ، ونام الشيخ مكانه في سريره ، وقتله التآمر ون طعننا بالخناجر ظنا منهم أنه عبد المؤمن ، ولكن عبد المؤمن كان قد انتجأ إلى خيمة الشيخ الذي افتداه بنفسه ، وبما بذلك من الهلاك . وفي الحال اتخذت الإجراءات لمعاينة التآمرين ؛ بيد أنه لما كان مدبرو المؤامرة من أقرب حاشية الخليفة ، وكان من المتعذر إثبات الجرم على الزعماء المارقين ، وقد أريد من جهة أخرى أن يُجنب الجمهور بالمعقاب ، فقد أسر عبد المؤمن بأهلاك زعماء المؤامرة بوضع السم لهم في الرسائل أو الشراب . أما الشيخ الأمين الذي لم يعرف حتى اسمه ، فقد رأى أن يخلد تضحيته بابتناء مزار نغم لقاته ، وإنشاء مدينة حديثة سميت بالبطحاء^(١).

٢ — باقى غزوات الموحدين في الأندلس بقيادة عبد المؤمن

ولم تكن قد وقعت في ذلك الحين بالأندلس أية فتوح هامة منذ افتتاح غرناطة في سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) ، وكل ما حدث أن أغار الموحدون مراراً على أراضي النصارى ، وأراضي مملكة مرهسية التي كان يحكمها ابن سميد (ابن مردينش) ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٠ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٧ .

ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأية غزوة كبيرة ؛ إذ لم يتلقوا من عبد المؤمن سوى إمدادات قليلة نظراً لانشغاله بالحرب في شرقي مملكته ؛ وكان ذلك أيضاً من الأسباب التي مكنت سانشو الثالث ملك قشتالة من أن يحرز النصر على الموحدين ، ومكنت الفونسو هنريكيز ملك البرتغال من أن يتزعزع منهم بمض الفنائم ؛ إذ استولى في الغرب عنوة على حصن القصر ، أو قصر أبي دنيس ، وقتل جميع حاميته وذلك في سنة ١١٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وفي العام التالي (سنة ١١٦١ م) عبر عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس ونزل بجبل طارق ، وأنشأ به حصناً عظيماً في منتهى الناعة ، وسماه بجبل الفتح ، ولما تمت التحصينات وفق رغبته أقام هناك شهرين ، ووفد عليه في تلك الأثناء ولاية الأندلس وقضاها ، وأطلعوه على أحوال الناس ، ووفدت عليه أيضاً جبهة كبيرة من العلماء والشعراء ، وأشاروا بتحسينته ومديحه في خطبهم وقصائدهم^(١) .

وفي أثناء مقام عبد المؤمن بالأندلس ، قام الموحدون بغزوة في أراضي النصارى ، وأمدم عبد المؤمن عندئذ بقوة من الفرسان تبلغ ثمانية عشر ألفاً ؛ وسار الموحدون على ضفاف وادي آنه في ولاية الغرب (غربي الأندلس) ، وكان النصارى يكتفون مهاجمة المسلمين من هذه الناحية . وتقول الرواية العربية إن المسلمين انتصروا في تلك الغزوة حصناً من أحواز بطليوس ، وقتلوا حاميته ؛ ثم اشتبكوا مع الفونسو ملك طليطلة في موقعة دموية ، فقد النصارى فيها ستة آلاف قتيل ، غر الأسرى ؛ وانتزع السلجون على أثرها بطليوس ، وباجه ، وبابره ، وحصن القصر ؛ وعين محمد بن علي بن الحاج والياً لهذه الولاية الجديدة ، وعاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى عاصمة مراكش^(٢) .

(١) راجع الحلل الرشيد ص ١١٨ والمراكشي ص ١١٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) هذا ما ترددت الرواية الإسلامية في الواقع ، وتريد على ذلك أن الحصن الذي انتصه الموحدون في تلك الغزوة بجوار بطليوس هو حصن « الركنش » وأن الذي قاد الموحدين فيها هو الشيخ أبو حفص المتاني . وتضع تاريخ هذه الغزوة في سنة ١١٥٦ هـ (١١٦١ م) ؛ وفي العام التالي استول للموحدون على بطليوس وباجه وبابره وحصن القصر (راجع روض القرطاس ص ١٣٠ و١٣١ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

على أن الروايات النصرانية لا تذكر شيئاً عن غزوة الموحدين هذه . ومن الواضح أن المؤرخين المسلمين يخطئون هنا بين فرديناند ملك ليون والقونسو الثالث ملك قشتالة ، الذي كان وقتئذ طفلاً لا شأن له بالحكم ، ولكن الروايات تقص من جهة أخرى أن جيشاً ضخماً من الموحدين سار في نفس هذه السنة لمحاربة ابن سعد (ابن مردنيش) أمير بلنسية ومرسية ، وأنه لم ينقذ ابن سعد من الهزيمة سوى المعاونة القوية التي تلقاها من حليفه سانشو ملك نافارا ، بقيادة الفارس الشجاع بيدرو روبر دي ازاجرا ؛ وقد أعطى بيدرو روبر عندئذ مدينة شنتمربة الشرق^(١) ليستقل بحكمها ، مكافأة له على معاونته .

وفي العام التالي ، أي في سنة ١١٥٧ هـ (١١٦٢ م) ، استأنف ابن سعد الحرب ، وسار إلى غرناطة ليحاول استردادها ، وقد كانت في قبضته من قبل ؛ وهنا تتفق الروايات العربية والنصرانية ، ولكن النصرانية أكثر إفادة وتفصيلاً ؛ واجتمع جميع الأندلسيين الذين يمارسون حكم الموحدين ، ولاسيما جند وادي آش والنكب والجزيرة والبشرات في ولاية جيان انصرة ابن سعد أشهر زعماء الأندلس وأشد مخلصيها ، وهرعت إلى رايته بقايا الرابطين لتسام في آخر محاولة تبذل لإخراج الموحدين من شبه الجزيرة ؛ واستُغمدت أمداد نصرانية سواء من قشتالة أو أراجون لقاء مبالغ طائلة من المال ، وهكذا اجتمعت لأمر بلنسية قوات عظيمة .

ولما علم الموحدون بما اتخذ ابن سعد من عظيم الأهبة ، ساروا إلى لقاء أعدائهم في جيش ضخم معظمه من الفرسان ، والتقى الجيشان على مقربة من غرناطة ، واشتبكا في معركة هائلة ، وقا تل ابن سعد وجنوده بمتهى الشجاعة والجلد ؛ ولكن الموحدين استطاعوا أن يحرزوا نصراً باهراً ، وأن يؤيدوا بذلك شهرتهم كفاتحين لا يغالون ؛ بيد أنهم لم يفتصروا دون خسارة فادحة . ثم عاد ابن سعد وحلفاؤه بعد أن حشدوا قوات جديدة إلى القتال ، ونشبت بين الفريقين موقعة أخرى في

(١) هي المروقة بالإفرنجية بمدينة Abarracin حسبها هم .

فخص قرطبة (سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦٣ م) وفوزم للطفاء للمرة الثانية ، واضطروا إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا أفضح الخسائر (١).

وفي تلك الأثناء كان عبد المؤمن يقوم بأعمال عسكرية ضخمة ، ويدعو الجند إلى الجهاد في إسبانيا من سائر أنحاء مملكته الشاسعة ، ولم يمض سوى قليل حتى اجتمع لديه في سلامن مختلف القبائل المغربية وخصوصاً من ذنابة ، زهاء ثلاثمائة ألف فارس ، منهم ثمانون ألفاً من ذوي البراعة ، ومائة ألف دراجل ، وحشد عبد المؤمن في الوقت نفسه أسطولاً ضخماً من أربعمائة سفينة كبيرة أعدت في ثغور المغرب لتقل الجيش ، ولكن ثمانون ألفاً خص في الأعمال الحربية ، ولاح عندئذ أن إسبانيا النصرانية التي شطرت يومئذ إلى ممالك خمس عجزت عن طرد الغزوب الداخلين ، قد قضى عليها بالهلاك ، وأنها ستندو غرسة هينة للقاعح الإفريقي لولا أن توفي عبد المؤمن عنده فجأة بمرض شديد أودى بحياته في الوقت الذي كانت تنقل فيه الجند إلى الأندلس ، وبما أنقذت إسبانيا النصرانية من نير المسلمين مرة أخرى .

وتوفي عبد المؤمن في الثالثة والستين من عمره ، بعد أن حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وذلك في العاشر من جمادى الثانية سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣) ، وكان قول وفاته بقليل قد عزل ولده الأكبر السيد محمد عن ولاية عمه ، إذ نسب إليه أنه جر مؤامرة لقتله لكن على الملك بسرعة ، وأمر بحذف اسمه من الخطابة ، وأذاع قرار عزله في جميع الأنحاء (٢) ، واختار عبد المؤمن لخلافته بدلاً من الأمير

(١) انسى الرواية العربية الموقفة الأولى التي نسبت في سنة ٥٥٧ هـ بين الموحدين وابن سعد وحلفائه موقعة مرج الرمان ، ونسب الموقعة الثانية التي نسبت بين الفريقين موقعة «السيكة» . وقد نسبت أيضاً في نفس غرطلة لأخص قرطبة حسبما يقول المؤلف ؛ وكان وقوعها في يوم الجمعة ٢٨ رجب سنة ٥٥٧ هـ ؛ وكان حليف ابن سعد في الموقتين صهره إبراهيم بن هيثم ، المنقلب على غرطلة قيل استرداها على يد الموحدين (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، وابن الأثير في الحلة السراء ص ٢٣٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦) .

(٢) تقدم الرواية الإسلامية لعزل عبد المؤمن ولده السيد محمد من ولاية العهد أسباباً =

الميزول ، ولده السيد أيا يعقوب يوسف ، وكان قائم بشؤون الأندلس حيث أبدى براعة فائقة في الحرب والإدارة . وأخفى موت عبد المؤمن حتى قدم يوسف من إشبيلية إلى المغرب .

وكان عبد المؤمن وسيم العلامة عظيم الهبة ، وكان أبيض اللون بشرباً بحمرة شديد بريق المين ، كث الشعر ، أفتى الأنف ، نحيل القدر مستديراً ، عظيم القامة دون ميلانة في الطول ، ملي الجسم مع خفة ورشاقة . ولم تكن مواهبه العقلية أقل روعة ، فقد كان يهتدى بتأقب فهمه إلى أفضل الوسائل لتحقيق أغراضه بأسرع وقت ، وكان يفتح بمصاحته تأييد الذين يريدون نحوه خوراً أو يخاسمونه ، وكان يستطيع بما أوتي من واسع المعرفة في علوم كثيرة ، أن يختار من بين علماء مملكته ورجالها أ كفاءهم وأزهم شأنها ، وكان لهم نصيراً وصديقاً . وهكذا ازدهرت في ظله العلوم والفنون في جميع أنحاء مملكته ، ولاسيما في الأندلس بالرغم مما كانت تخوضه من حروب متواصلة ، وهذا ما يمكن تعليله بأن مسلمي الأندلس الذين شغفوا بالعلوم قد ساروا إلى نية المرابطين أولى اليداة والخلشونة ، وانمازوا إلى جانب الموحدين أهل العلوم والمدنية . أما الصفات التي يجب أن تتوافر في الفاتح مثل الشجاعة والعزم ، وبعد النظر ، وحضور اليدوية ، فقد كان عبد المؤمن يفوز منها بأوفر قسط . وقد كان يسمو على معظم جنوده في تحمل الشاق والشدائد ، وكانت شعوب المغرب المتشقة تعجب بتقشفه في مأكله ومشربه ، وكانت الحرب فيما يبدو شهوة الوحيدة ، فقد افتتح بالسيف ولاية بعد أخرى ، ولما توفي ترك وراءه مملكة تمتد من المحيط الأطلال إلى قرب حدود مصر ، ويقتضي اختراقها بالطول مسيرة أربعة أشهر . أما عرضها فيما بين الصحراء الكبرى ، وجبال سيرا مورينا ، (جبل الشارات) الإسبانية ، فكان يقتضي اختراقه مسيرة خمسين

== أخرى خلاصتها ما يتبعه عبد المؤمن في ولده من أمور لا يصلح معها الخلافة من إدمان الخمر ، واختلال الرأي ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، وقيل أيضاً إنه كان مريضاً بالجدام (الراكس) من ١٣١ ، وابن خلكان ج ١ ص ٢٩١ ، وروى القرطاس من ١٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

يوما ؟ وقد افتتحت جميع هذه الأراضى فى أقل من عشرين عاما منذ استولى
الموحدون على مراکش^(١).

٣ — حكم أبو يعقوب يوسف وحروبه

وقد بدأ أبو يعقوب يوسف حكمه فى ظروف صعبة ؛ ولولا غيرة القاضى
أبى الحجاج يوسف بن عمر وفطنته لتفرد عليه أن يفوز بحكم مملكة الموحدين كلها .
ذلك لأن ولى العهد السابق السيد محمد ، وأخا آخر ليوسف هو السيد عبد الله والى
قرطبة ، اعتزما ألا يخضعا لولى العهد الجديد الذى اختاره عبد المؤمن قبل موته ،
ولاح فى الأفق شبح حرب أهلية مرهقة تنذر بتمزيق المملكة ولما تنوطد دعائهما
بعد ؛ ولكن القاضى أبى الحجاج عمل على إخفاء موت عبد المؤمن حتى قدم
أبو يعقوب يوسف من الأندلس إلى مراکش ، وبويع فى الحال بالإمارة . بيد أنه
مضى زهاء عامين قبل أن يوفق إلى إخماد جميع حركات الانتفاض على حكمه ؛
ثم دعا بعد ذلك جميع الأشياخ والولاة إلى مراکش ، وبويع بالخلافة وتسمى
بأمير المؤمنين ؛ ولم يخرج على ذلك إلا جماع أخواه السيد محمد والسيد عبد الله ،
اللذان خلبهما رفقته وتسامحه ، فاعتزما أيضا بخلافته ؛ ومالت الشعوب المغربية إلى
تأييده لما عمد إليه فى بداية حكمه من تخفيف أعباء الحرب ، وتسريح الجيوش
الضخمة التى حشنت فى سلا لتزو إسبانيا ؛ وجذب إليه القادة والجند — ولاسيما
جند الحرص — والولاة بالأعطية الوافرة ؛ وأحبه أهل مراکش لما رفعه عنهم من
المكوس ، ونظمه لهم من الحفلات الباذخة .

ومع أن يوسف تولى الحكم شابا لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ؛ فقد
أبدى كثيرا من الفطنة والبراعة ، وكان ذهنه يتجه إلى معالجة الأمور الحاضرة

(١) راجع فى سيرة عبد المؤمن وخلافة فى كتاب أخبار اللمدى ص ٢١ — ٢٣
و ٥٥ — ٥٧ و ٨٤ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ وما بعدها ، وروى القرطاس
ص ١١٩ — ١٢٤ ، والمراكشى ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون ج ١ ص ٢٩٠ —
٢٩٢ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها .

والبعيدة مما ؛ وكان يقبض بنفسه على أعنة الحكم ، ولا يسمح لوزرائه بالبت في أمر من الأمور ، أو عمل من الأعمال لم يقف عليه من قبل ؛ وترتب على ذلك أن الأمراء والوزراء الذين كانوا يتمتعون أيام عبد المؤمن بكثير من التفوذ في البلاط ، فقدوا كل نفوذهم في عهد يوسف . وحتى أخوه السيد أبو حفص الذي كان أمين سر عبد المؤمن وموضع ثقته رأى مع الألم انهيار نفوذه في البلاط ، وربما كان هذا هو السبب في أنه فيما بعد رفع لواء الثورة ضد أمير المؤمنين .

وكان يختار بحسن فهمه وبمد نظره أكفأ الرجال الذين بولهم مناصب الثقة ، وكان من سياسته فيما يظهر نقل الأشخاص في مختلف المناصب لكي يبقوا أكثر خضوعاً لإشراف الحكومة ، وكان مما يسهل تنفيذ هذه السياسة أن الذين يتولون المناصب كان يشترط فيهم توافر نوع من الثقافة العامة والإلمام بمعظم العلوم الإسلامية المروفة ، وهذا مما يوضح لنا كيف أمكن في ظل هذا الأمير أن يتولى بعض الرجال مناصب شديدة التباين ؛ فقد حدث مثلاً أن تولى الملامة الأشهر أبو الوليد بن رشد منصب الفقيه العالم ، ثم القضاء ، ثم تولى الإشراف على الخزينة ، وتولى أيضاً منصب طبيب يوسف الخاص^(١) .

ومع أنه عمل على تخفيف أعباء الحرب عن الشعوب المغربية ، وسرح الجيوش الضخمة التي حشدت لغزو إسبانيا ، فإنه لم يترك العناية بأمر الحرب في الأندلس . وكان الموحدون منذ وفاة عبد المؤمن قد تكبدوا في الأندلس خسائر فادحة

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ ، وانصل منذ فتوته بأبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وقد كان مصرفاً على شؤون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والدعاة . وبرع ابن رشد في الفقه والطب والفلسفة ؛ وتولى قضاء إشبيلية في سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولي قضاء قرطبة واستمر بها خمسة وعشرين عاماً ينتقل في ظل حكومة الموحدين ، سواء في الأندلس أو المغرب في بعض المناصب القضائية والإدارية الكبرى ؛ وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص حيناً لأبي يعقوب يوسف ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ؛ واتهمه بعض خصومه بالزندقة ، فنفى إلى الأندلس بمحار قرطبة ؛ وفرضت عليه رقابة شديدة ؛ ثم استرد ملكته في أواخر حياته ؛ واستدعى ثانية إلى مراكش ؛ حيث عفا عنه المنصور ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٥ م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شرحه لفلسفة أرسطو ؛ وله عدة رسائل كلامية وفلسفية .

في بعض اللواتن ، وذلك بالرغم من تفرق الملوك النصارى ، وما كانت تمنانيه مملكتنا
قشتالة وليون من انقسام الأشراف ؛ وكان الفونسو هنريكز ملك البرتغال يدفع
حدود مملكته نحو الجنوب باستمرار ، ويتزع من أبدي الموحدين حصون الحدود
نباما ؛ وكذلك أبدي فرديناند ملك ليون نشاطا في غزو منطقة وادي يانه (أو وادي
آنه) ، واستولى على القنطرة والبكرك والقاس وباليوس حسمها تقدم . أما قشتالة
وليون فقد كانتا تقتصران يومئذ في محاربة المسلمين على معاونة أمير بلنسية محمد
ابن سعد بن مردنيش ، وترسلان له الامداد مقابل المال والحصول على قسط
من الغنائم .

وما كاد يمضي مائة على وفاة عبد المؤمن ، حتى حشد أمير بلنسية زعماء
الأندلس المادين الموحدين تحت لوائه مرة أخرى (سنة ١١٦٥ م) . واجتمع إليه
فوق ذلك ثلاثة عشر ألفا من القشتاليين والأرجونيين ؛ ثم سار في جميع قواته إلى
لقاء جيش الموحدين بقيادة السيد أبي سعيد عبد الرحمن ، أخى أبي يعقوب يوسف ،
والتقى الجيشان على مقربة من مرسية ، ونشبت بينهما موقعة شديدة ، واستطاع
الموحدون بجلدهم أن يحرزوا فيها نصراً كاملاً أسوة بما حدث من قبل ؛ وأخذ
الحلفاء بلقون تيمة هذا الفشل كل على الآخر ، واشتد بينهم الخلاف ، وانتهى
الأمر بأن انسحب بعض الزعماء الأندلسيين سراهم علانية ، وانضموا إلى جانب
الموحدين ؛ وكان من بين هؤلاء الزعيم الباسل أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن
الرقنسي ، والى جيان ومرسية السابق ، وكزن عالما ، ومقاتلا شجاعاً ، وشاعراً
مبرزاً ، فأنحاز إلى جانب الموحدين ، ثم عبر البحر فيما بعد إلى مراکش ، واشترك
هنالك في حملة عرض لصيد الأسود ، يطارد اليت فيها بأسنة الخراب ، فأبدي
فيها براعة خاصة ، ووصفها في بعض قصائده الرقيقة (١) .

(١) راجع ترجمة أحمد بن عبد الرحمن الرقنسي في الحلة السراء من ٢٣٠ وما بعدها .
وقد أورد ابن الأبار وصفا لحفلة صيد الأسود ، كما أورد طرقاً من القصيدة التي أنشأها الرقنسي
في وصف هذا الحفل (ص ٢٣٢) .

ولما أخذ سلطان الموحدين يستعد قباعاً في جنوبي اسبانيا ، وسقطت في يدهم بطليوس ، وعدة أماكن أخرى على الحدود ، وأخذ سلطان ابن سعد أمير بلنسية والممالك النصرانية يمرض شيئاً فشيئاً إلى الانهيار ، من جراء انقباض الرعاع المسلمين والتضار ، اعترى ملك قشتالة ألفونسو الثالث ملك أراجون الدوبو الثاني أن يمدلاً على نفوذه صلاحهما ابن سعد ، وسار ابن سعد نفسه إلى طليغلة ليؤمن أواصر تحالفه بالملكين (سنة ١١٦٧ م) ، واستطاع من جهة أخرى أن يسترضى بعض الرعاع المشفقين عليه ، وأن يحصلهم كناية إلى جانبه ، وكان من بين هؤلاء الوقفي الشجاع الذي تقدم ذكره ، وذلك بعد أن لبث حيناً في صراكن وتولى هنالك أرفع المناصب ، وكان جند من الحلفاء التضاري ، معظمهم من القشتاليين ، يحملون بلنسية ذاتها ، وهو ما لم يرق لبكثير من المسلمين الحفانطين ، وقد غادر بلنسية على أثر ذلك كثير من الرعاع الأقوياء ، وانحازوا إلى جانب الموحدين .

وفي تلك الأثناء كان السيد أبو حفص أخو الخليفة قد عبر البحر إلى الأندلس في عشرين ألفاً من فرسان الموحدين ، وقام بغزوات على حدود البرتغال واسترامادورة ، وليكنه لم يبرز نجاحاً يذكر . ذلك أن ملك البرتغال وفرسان يارة التابعين له كانوا يحمون الحدود حماية فعالة ، وكان ملك ليون قد استدعى آل كاسترو بعد فرارهم إلى الموحدين ، وحرم الموحدين بذلك من عبيد قوي ، وليكن قفافت الحال في بلنسية وازداد سخط الرعاع على الأمير محمد بن سعد ، وجأهوا بالثورة ضده ، واستدعوا الموحدين لمعاونتهم ونصرتهم ، وكان سلطان الموحدين ، يترجم بعد أن سحق جميع الثورات في المغرب ، أن ينشز فرصة هذه الظروف السانحة في الأندلس ، وأن يعمل على إخضاع اسبانيا البيلة بأسرها لسلطانها .

ففي شهر صفر سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) ، عبر أبو يعقوب يوسف البحر إلى اسبانيا ، وسار توال أعيلية عاصمة الأندلس ، واستقبل جنالك الولاة والقبيلة والفقهاء والملاء من جميع المدن والأنحاء الخاضعة له ، ووقف منهم على أحوال

البلاد . وكان من الواضح أن استمرار الشقاق بين المسلمين في بلنسية ومرسية ، وضعف الإمدادات التي يرسلها ملوك قشتالة وناقارا وأراجون إلى حليفهم ، ثم الخصومة بين ابن سميد وحليفه القديم ألفونسو ملك أراجون ، مما يتمذر منه على بلنسية أن تحافظ طويلا على استقلالها ؛ وهكذا فإنه بينما سار محمد بن سميد إلى غزوة طرطوشة وطركونة من ثغور قطلونية ، وحاصرهما من البر والبحر ؛ بمد هذه وقائع دموية نشبت في البر والبحر هزم فيها النصارى ؛ إذ سقطت بلنسية في يد الموحدين بملاة زعيم يدعى أبا بكر بن سفيان وإلى جزيرة شقر^(١) . فلما وقف محمد بن سميد على سقوط عاصمته ، اضطر أن يرفع الحصار عن ثغور قطلونية وسار في سفنه إلى جزيرة ميورقة ، وانزعها من يد أصحابها ، وهم أبناء القائد المرابطي ابن غانية ؛ بيد أنه لم يمض طويلا ، وتوفي بعد ذلك مقابل في رجب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م)^(٢) . ولما رأى أبناؤه أن النضال بضطرم بينهم وبين كثير من الزعماء ، وأن غارات النصارى والموحدين تلاحقهم بلا انقطاع ، وأنهم لا يستطيعون الثبات أمام هذه الجبهة من الأعداء ، عقدوا مع سلطان المرابطين أبي يعقوب يوسف معاهدة ، بتنازلون بمقتضاها عن جميع أراضيهم ، مشتملة على بلنسية ، ومرسية ، ومرسىط ، وشاطبة ، ودانية ، ولقنت ، وشقر ، ولورقة وغيرها ؛ وعلى الأراضي الواقعة فيما بين مصب نهر إيرو ومدينة قرطاجنة ، وعلى مقربة من الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وأن يوضحهم عن ذلك بمناصب يتقلدونها وأراض تقطع لهم في مملكتهم ؛ وتزوج أبو يعقوب يوسف أختا لأمرأى بلنسية (أعني ابنة لابن مردنيش) توثيقا للصدقة بين الأسرتين ؛ وهكذا استطاع الموحدون أن يوقفوا بحسن طالعهم إلى الحصول على أراض ما كانوا ليؤملوا

(١) راجع الحلة السيرة ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(٢) نرى الرواية العربية الموقفة التي هزم فيها ابن مردنيش وانتهت بسقوط دولته بموقعة الجلاب . راجع تفاصيل هذه الحوادث ، وفي سقوط دولة ابن مردنيش ، ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠ ، والراكني ص ١٣٩ و ١٤٠ ، وابن الأثير في الحلة السيرة ، ص ٢٢٠ و ٢٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٤٠ .

الحصول عليها بمجد اتسيف . ولما كانوا قد استولوا بذلك على جنوبي اسبانيا الذى يسكنه السلدون ، فقد عمدوا من ذلك الحين إلى توجيه غزواتهم إلى الممالك النصرانية المجاورة ، وكانوا يؤملون الظفر عليها بسهولة لما كان يسودها يومئذ من التفرق والخلاف .

ومكث أبو يوسف في اسبانيا أربعة أعوام وبضعة أشهر ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ، ففي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) خرج من إشبيلية إلى الغرب (غرب الأندلس) جنوى البرتغال في جيش ضخم ، وحاصر مدينة شنترين ، ثم سار إلى الفنطرة بطريقى بطليوس والبكرك ، واستولى عليها حـسبما تقول الرواية العربية ^(١) ؛ ووصل الفزاة إلى مدينة ردريك ، ولكنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء عليها . وبعد أن عاث الموحدون فى تلك الأراضى وخرّبوها ، عاد أبو يعقوب مثقلاً بالغنائم ، وفى ركبه عدة آلاف من الأسرى النصارى ، قد صفدوا أزواجاً .

وفى العامين التاليين أعنى سننى ٥٦٨ و ٥٦٩ هـ ، (١١٧٣ و ١١٧٤ م) أرسل أبو يوسف بقيادة أكابر القادة عدة حملات إلى ضفاف التاجية ، فمات فى أراضى قشتالة أشد عيث . وفى الوقت الذى كان فيه آل كاسترو وآل لارا يخوضان معاً معركة على ضفاف دوبرة ، ويستنفدان بذلك قوى البلاد فى سبيل خصومتهم ، كانت حدود قشتالة الجنوبية تستهدف للضياع ؛ وكان فرسان قلعة رباح ، الذين سما شأنهم فى ذلك الحين ، يجاهدون لحفظ الملكة من السقوط ، بيد أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون رد الموحدين عن غزواتهم المخربة ، بالرغم من احتفاظهم بالقلاع التى يدافعون عنها . والروايات العربية عن هاتين النزوتين غامضة ، ولا تتفق مع الروايات النصرانية ؛ فعلى تقول فى شأن الفزاة الأولى إن الموحدين أحرزوا نصراً باهراً على الأمير سانشو أبى برذعة ، الذى كان يحتل صهوة بغل عليه برذعة محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، وإنه لم ينج من جيش

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١ ؛ ونسب الفطرة هنا « قصرة » وربما كان هذا تحريفاً فى الاسم .

النصارى — البالغ ثلاثين ألف مقاتل — أهدت تقريباً ، وكان الأمير سانشو نفسه من القتلى (١٧). أما الروايات النصرانية فلا تحدثنا بشيء عن هذه الغزوة ، كما أنها لا تحدثنا عن الغزوة الثانية التي عاصر الموحدون فيها طركونة ؛ هذا في حين أن ألفونسو ملك أراجون كان عندئذ يفرز ولاية بلنسية ، وقد وضع حامية كبيرة في حصن توبيل (سنة ١٢٧٢ م) وسدد الطريق بذلك للزحف على الأراضي الواقعة جنوب أراجون . أما في البرتغال فقد وصل الأمير سانشو في زحفه إلى لبله ، ونشبت أمامه باجة بينه وبين الموحدين الذين كانوا يحاصرونها ، موقعة انتصر فيها عليهم وأرغمهم بذلك على رفع الحصار .

ولم يقتصر أبو بهقوب يوسف أثناء مقامه في اسبانيا على شهر الحرب وأعمال القتال ، ولكنه أراد أن يخلد ذكرى هذه الزيادة بأقامة منشآت عظيمة يذكرها الخلفاء ؛ فأنشأ في إشبيلية التي كان يقضي فيها معظم الوقت ، مسجداً ضخماً ، بني في أقصر وقت ، وأنشئت عليه أموال عظيمة ، وأنشأ على النهر الكبير (الوادي الكبير) قنطرة من السفن ثبتت معاً بالثلاسل ، وأقيمت على ضفتي النهر مخازن كبيرة للبضائع ، وحراسي يصلها المدرج بالنهر ؛ وأمر أيضاً بتجديد قسم من أسوار إشبيلية ، ووردت المدينة بالماء النقي بواسطة مواسير أنشئت لذلك .

ثم غادر أبو بهقوب يوسف اسبانيا وعاد إلى نراكش في سنة ٥٧١ هـ (١١٧٧ م) ؛ ولكن الحرب ضد النصارى الأسبان استمرت على شدتها ، وذلك بالرغم من أن قوى الموحدين لم تكن من السكرة كما كانت وقت مقامه بالأندلس . وفي النام التالي (١٢٧٧ م) تحدث بين الموحدين والقشتاليين بمحاركة قوشة — في مكان وعمر بالجبال — موقعة شديدة ، واضطر فيها الموحدون إلى الانسحاب حينما هوجم ألفونسو الثاني ملك أراجون ، والأمير بيدرو رويدي أراجرا إلى معاوية القشتاليين ؛ وربما كان هذا هو السبب في أن الروايات العربية لم تذكر شيئاً عن

(١٧) هذه رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ١٣٩) ، وقد سمي فيها قائد النصارى في هذه القوشة « سانشو المعروف بأبي برزخمة » ، والظاهر أن المقصود هاهنا أحد أمراء قشتالة ، وليس ملكها ، وقد كان ملك قشتالة يومئذ هو ألفونسو الثالث .

هذه الواقعة ، التي تعتبرها الرواية النصرانية من أهم المواقع ؛ وقد سقطت على أثرها قوافة في يد النصارى .

واستمرت هذه الحال إلى سنة ١١٨٣ م ؛ وكان الموحدون يقومون في كل عام تقريباً بالفتوح في أراضي النصارى ، ويقوم ملوك قشتالة والبرتغال وليون وأراجون من جهة أخرى بغزو اسبانيا الجنوبية (الأندلس) ، ويذروا النصر سجالاً بين الفريقين في هذه المعركة الدموية ، دون أن تسفر عن نتائج حاسمة ، أو حوادث ذات شأن ؛ ثم اتجهت الحرب وجهة أخرى ، وامتنعت إلى مناطق لم تسكن إلى ذلك الحين ضمن ساحات القتال . ذلك أن الموحدين ، وكذلك البرتغاليين وقطالونيين وهما الدولتان البحران ، جهزوا الأساطيل ، ونشبت بين الفريقين عدة معارك بحرية في مياه الجزائر الشرقية ، وعند مصب نهر التاجه ، وأمام شواطئ الغرب ؛ بيد أنها مثل المعارك البرية لم تسفر عن أية نتائج أو فتوح ذات شأن .

ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضالة النتائج التي أحرزتها قواته في حروبه ضد النصارى ، استمد بنفسه للفتوح ثانية ، وذلك بعد أن أتم تهدئة المغرب ، واستراحت الأمم المغربية من عصف الوباء الذي نزل بها ، وهلك فيه جوع كبيرة ، من بينها عدد من إخوة الخليفة وأقاربه . وسار أبو يعقوب يوسف إلى سبتة في أوائل سنة ٥٨٠ (١١٨٤م) ، وليث هناك حتى اجتمعت لديه جيوش المغرب من زناتة ومصمودة ومغراوة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية ؛ وتبع هذه الجيوش غير النظامية ، جيش الموحدين النظامي ، وهو حسن التدرية والتسليح ، وبعد أن عبرت هذه الجيوش إلى اسبانيا ، عبر أبو يعقوب يوسف في حرسه وحاشيته ووزرائه ، ونزل بجبل طارق (أو جبل الفتح) في شهر صفر من العام المذكور ، وسار إلى إشبيلية ، ليخرج منها توا إلى شهر الجهاد على النصارى .

وكانت البرتغال من بين الممالك النصرانية أشدها وطأة في غزو أراضي الموحدين ؛ ولذا اعترم أبو يعقوب يوسف ، أن يسحق أخطار أعدائه بتفوق قواته

بادى ذى بدء ، حتى إذا عم العرب من جراء انتصاره استطاع أن يخضع الممالك الأخرى بسهولة .

وكانت خطة زعيم الموحدين تقضى أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر ، حتى ضفاف نهر دوبرة ؛ ثم الزحف من على ضفاف التاجه ودوبرة إلى قلب مملكتي قشتالة وليون ؛ بينما تشغل قوات النصارى جيوش إسلامية أخرى تزحف من الجنوب . وقد حشد لهذه الغاية قوات عظيمة ، واجتمعت إليه فضلاً عن الجيوش النصرية الجرارة ، قوى مسلمى الأندلس ، وحشد أولاده السيد أبو إسحاق وإلى إشبيلية ، والسيد عبدالله أبو يحيى وإلى قرطبة ، والسيد أبو سعيد عبد الرحمن وإلى غرناطة ، والسيد أبو عبدالله وإلى بلنسية ومرسية ، مالدسهم من القوى ، بعد أن تركوا حاميات في مدنها ، وضمت إلى جيش أبيهم في إشبيلية . وفي بعض الروايات النصرانية أن هذه الجيوش المجتمعة كانت تفوق في الكثرة أى جيش آخر ، قاده ملوك إفريقية إلى إسبانيا ، وأن أباً يوسف حينما استمرض توارىخ الملوك السابقين ، وجد جيشه يزيد بمقدار ثمانية وسبعين ألف مقاتل ، عن أعظم جيش قاده المسلمون من إفريقية إلى الأندلس منذ عهد طارق بن زياد . وكذلك اجتمع للمسلمين أسطول عظيم من سفن القتال وسفن النقل ، مشحونة بالسلاح وآلات الحصار والمؤن ، عند مصبى نهري الوادى الكبير ووادى يانة ، على أهمية لأن يؤيد من البحر جهود الجيش البرى ضد البرتغال .

وبادر أبو يوسف بمقوب بالخروج من إشبيلية ، لكي لا يترك للنصارى وقتاً للتسلح ، وإصلاح القلاع ، وتزويدها بحاميات كبيرة ومقادير احتياطية من المؤن ، والازول إلى ميدان الحرب بجيش حسن الأبهة ؛ وسار على رأس الجيش الرئيسى متجهماً إلى بطليوس ، متزماً محاصرة أشبونة . بيد أن كان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح أن يستول على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجه اليسرى . وعلى ذلك فما كاد يعبر التاجه بجيشه حتى ضرب الحصار حول شنترين ، مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذى خصص لمحاصرة

أشبونة من جهة البحر ؛ ولما كان قد اجتمع لديه سبعة وثلاثون من الولاة في قواتهم ، وكان ضرب المدينة بآلات الحصار متواصلا بالنهار والليل ، فإن الحامية التي لم تستكمل عدتها لم تقو على المقاومة إزاء هذا السيل الجارف ؛ فلم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، أو أربعة عشر يوما على حصارها حتى استولى أبو يعقوب عليها خلا قلعها ، التي استمرت حاميتها البرتغالية تدافع عنها بمنتهى البسالة ، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٨٥٨٠ (يولييه سنة ١١٨٤) . وقد كان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه ، متمبرا للقادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك مما يثير في نفوس أولئك القادة الجريين مرارة شديدة ؛ وكانوا قد اعترضوا من قبل في مجلس الحرب ، على تحويل المسكر من شرقي شنترين إلى شمالها وغربها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطوين من جانب الأعداء . ولكن إرادة أبي يعقوب هي التي نفذت دون سواها .

ولما دخل الليل أسر أبو يعقوب ولده أبا إسحاق والى إشبيلية ، أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس ، والقيام بالمهجوم في اتجاه أشبونة ، وذلك لكي يحمي المهجوم على قلعة شنترين من التمرض المفاجأة من هذه الناحية . فهل وقع سوء فهم أم كانت ثمة فتنة ؟ ذلك أن أبا إسحاق ، سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح ، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبّر نهر التاجه ، وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية . وما كاد هذا النبا يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع في جميع المسكر الإسلامي ، وتفاقم الأمر ، حينما زحف سانشو ابن ملك البرتغال ، على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل . وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب يوسف قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوباذا ، وأمر بدمج جميع الأسرى النصاري الذين كانوا في معسكره وعددهم عشرة آلاف ، لكي لا تموقعه حراستهم . بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألقى نفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه . وكان تغيير مواقع المسكر الذي أمر به أبو يعقوب وحده .

قواده ، ووجود الجيش البرتغالى فى مركز يهدد المسلمين ، ومسير القوات الأندلسية وغيرها إلى ما وراء نهر التاجه ، وهو ما بدا كأنه حركة انشقاق ، وأخيراً ذبوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه ؛ كل هذه الأمور بثت فى معسكر الموحدين نوعاً من الرعب العام ، ترتب عليه أن غدت أوامر الخليفة لا قيمة لها . وفى صباح اليوم التالى وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل بقيادة أسقف شنت ياقب ، وانضم إلى الجيش البرتغالى الذى يفوده ول العهد سانشو ؛ وبادر النصارى بهجاة الموحدين وهم فى اضطرابهم واختلال نظامهم ، وعازت حامية قلعة شنترين مواطنيها بالخروج من القلعة ومهاجمة المسلمين .

ولما كان قسم كبير من قوى الموحدين ، قد عبر نهر التاجه ، فإنه لم يبق لدى أبى يعقوب سوى حرسه وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل المتاد والمتاع ، التى لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف لسرعتهما ؛ ورأى زعيم الموحدين ، وهو يضطرم سخطاً ، أنه وقع ضحية الخيانة ، وأسلم إلى الأعداء ؛ ولكنه لم يرد أن يركن إلى الفرار شأن الجبان . وهكذا نشبت الموقعة وهجم النصارى على معسكر الموحدين وهم يصيحون « إلههم ، إلههم ! إلهه ، أين هو ؟ »^(١) ، ثم نفذوا إلى خيام الحرس ، وقتلوا رجاله جميعاً ، ووثبوا إلى خيمة الأمير ، وضربوا كل ما حوت من السطور والبسط والفراش ، وقتلوا بضاً من جواربه أشنع قتل ، أما أبو يعقوب فقد وثب إلى فرسه ، وأسقط منه ثلاث مرهات ، وهو يقاتل بسيفه ستة من الفرسان النصارى ، وأخيراً طعنه أحداهم بسيفه طعنة نافذة فسقط إلى الأرض مضرجاً بدمائه .

وفى تلك الأثناء استطاع عدة من الفارين من حرس الموحدين ، أن يتصلوا بالجيش المنسحب تحت إمرة أبى إسحاق ، وأن يبلغوه نبأ الموقعة وما أحاق بالأمير من خطر ؛ فارتد من فوره ليسى إلى إنقاذ الأمير إن كان نعمة وقت ؛ وما كاد يمر

(١) ورد فى روض القرطاس أن النصارى حينما هاجموا معسكر الموحدين كانوا يصيحون « الرى ، الرى » أى اقتصدوا السيلطان . (س ١٤١) والرى هى بالأسيانية Rey أى الملك .

التاجه بمنوده مرة أخرى حتى نشبت بين المسلمين والنصارى معركة أخرى ،
سالت فيها دماء الفريقين غزيرة ، وقاتل كل منهما بمنتهى البسالة .

ويوجد ما يحمل على الشك فيما تقوله الرواية العربية من أن المسلمين
استولوا خلال هذه المعركة عنوة على شنترين ؛ بيد أنها تضيف إلى ذلك أن المسلمين
أصيبوا بخسائر فادحة (والرواية النصرانية تقدر قتلى المسلمين بثلاثين ألفاً) ، وأنهم
ارتدوا في الحال إلى نهر التاجه ، وعبروه إلى الضفة اليسرى من قنطرة كانوا
يحرسونها ، وانصرفوا إلى إشبيلية ، وتركوا مسكرهم غنيمة للنصارى بكل ما فيه
من الذخائر والتفائس من كل ضرب ، كذلك بادر الأسطول الإسلامي ، الذي
وصل إلى أشبونة مشحوناً بالآلات الحصار والتخريب ، إلى الفرار حينما علم بنياً
الجزيرة التي حلت بأبي يعقوب أمام شنترين^(١) .

أما مصير أبي يعقوب ، فيحقيق به غموض ، يصب استجلاؤه إزاء مختلف
الروايات المتناقضة ، إذ أن مثل هذا الحادث بطبيعته ، مما يحمل في البداية على
إذاعة الأنباء الكاذبة إخفاء موت الأمير ؛ وعلى ذلك فإنه ليس من الحق ما إذا
كان قد أسلم الروح في الواقعة ، أو غرق في النهر حين عبور الجيش الفار ، أو أنه
توفي متأثراً بجراحه حين عودته إلى إشبيلية أو وصوله إلى الجزيرة الخضراء ،

(١) تورد الرواية العربية تفصيلاً آخر لحوادث هذه النزوة ، فنقول إن أبا يوسف
يعقوب حاصر مدينة شنترين في البداية وضيق عليها ، ثم أسر بقتل مسكره من موضع نزوله
يجوف شنترين إلى غربيها ، فأنكر المسلمون ذلك ، ولم يملوا له سبياً ، وأنه في مساء أسر
ولده السيد أبا إسحق ، أن يسير من تلك الليلة إلى غزو أشبونة في جيوش الأندلس ، وأن
يكون رحيله نهائياً ، فأساء إليهم وخن أنه أسره بالرحيل في جوف الليل إلى إشبيلية . ثم
تقول الرواية العربية : « إن الشيطان صرخ في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على
الرحيل ... » وتحدث الناس بذلك ورحل منهم طائفة بالليل ، ثم تابع الناس في الرحيل ،
وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ؛ وأن النصارى العاقبين عن شنترين لاحظوا عند طلوع النهار
خلو مسكر الإسلاسي ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فهاجموه وضربوا في محلة الحرس حتى
وصلوا إلى خباء أمير المؤمنين ، وطمعوا أحدهم ، بعد أن قتل منهم ستة رجال . ثم تضيف الرواية
العربية إلى ذلك أن المسلمين عادوا قاتلوا النصارى وهزمهم ودخلوا شنترين أراجبع روض
القرطاس من ١٢٠ و ١٢١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١١ ، والمراكشي من ١٢٥ و ١٢٦
وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠ .

أو وصوله إلى سرا كش . وكانت وفاته في ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٤ يولييه سنة ١١٨٤) . بيد أن الظاهر أنه لم يمض بعد الهزيمة^(١) .

وحكم أبو يعقوب يوسف مملكة الموحدين الشاسمة بقوة وكفاية مدى اثنين وعشرين عاما . وكانت أكبر أخطائه ، رغبته في أن يتولى جميع الأمور بنفسه ، وأنه بالرغم من فتوته فلما كان يحفل بنصح الشيوخ الناجحين ، أو يستمع إلى أحد في المدول عن أمر تقرر . وقد ترتب على ذلك ، وعلى ما أوقفه من المقويات الصارمة على الكبراء الذين ظلموا الشعب ، أن كثرت أعداؤه بين شيوخ القبائل ورجال البلاط ، وربما كان ذلك من أسباب مصرعه أمام شنترين ؛ وكان أول ملك من ملوك الموحدين قاد الجيش بنفسه ضد النصاري في إسبانيا ؛ وكان إلى جانب عظيم شجاعته وفروسته ، رقيق المشاعر ، فياض الجود في كل مناسبة ؛ وكان وسيم الطالمة ، رقيق الحياء ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، جميل العينين ، أفنى الأنف ، جمده الشعر ، حسن القد ، وافر الهيئة والجلال^(٢) .

٤ — يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك

وخلف أبا يعقوب يوسف في الحكم ولده عبدالله يعقوب بن يوسف وتلقب بالنصور بفضل الله ؛ ولستنا نعرف إن كان قد ارتقى العرش لأنه كان أكبر إخوته ، أو لأن أباه اختاره لولاية عهده . ذلك لأن وراثته العرش لم تنظم وفقاً لقانون معين . وكان الأمير يختار ولي عهده وفق مشيئته ؛ وكان يعقوب النصور ممن شهدوا موقعة شنترين ، فتولى قيادة الجيش مذ جرح أبوه ، وأخفى موته حتى عاد إلى المغرب ، وتمت بيئته في سرا كش في الثاني من جمادى الأولى سنة ٥٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٨٤) ..

(١) يضع صاحب روض القرطاس وفاة ابن يعقوب يوسف في الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ، ويقول إنه توفي من جراحه في الجزيرة الخضراء (ص ١٤١) ، ويقول ابن الأمير إنه توفي من مرض أصابه تحت أسوار شنترين ، وحل منها شيئاً إلى إشبيلية (ج ١١ ص ١٦٠) ، ويتردد ابن خلدون بين الروايتين فيقول إنه توفي من مرض تزل به ، أو من سهم أصابه في حومة القتال (ج ٦ ص ٢٤١) ، وفي الخلل اللوشية أن وفاته كانت بنهر تاجه في قوله من غزاة شنترين على ظهر دابة (ص ١٢٠) .

وعمل يعقوب في بداية حكمه على اكتساب محبة الشعب ، بإخراج مقادير كبيرة من أموال الدولة وتوزيعها على الفقراء ، وبعث أوامره إلى الولايات بإطلاق السجونين الذين اعتقلوا لذنوب ماثوية ، وتمويض الذين ظلموا أيام أبيه ، كما أمر بإسقاط المكوس التي لم يتم أدائها . ورفع مرتبات القضاة والفقهاء في جميع أنحاء المملكة ، وزاد أجور الجند في جيش الموحدين النظامي ، وحسن الحدود في جميع الأماكن التي يخشى عليها ، وشحن القلاع بطوائف مختارة من الجند ، وعانف بجميع أنحاء المغرب ليتحقق بنفسه من تنفيذ أوامره ، وليعرف ماذا يجب إجراؤه من الأعمال الضرورية ؛ ونفذ عدة مشاريع خيرية ، فأنشأ كثيراً من المساجد والمدارس ، وأنشأ البيمارستانات (المستشفيات) للمرضى ، ورصد لها أموالاً لانفقة ، وفتحها أيضاً لايواء المجزة والمسي بؤسها من جميع أنحاء المملكة . وهي بتسهيل المواصلات والسفر ، فأنشأ في الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجاً ، وأحواضاً لحزن الماء ، وآباراً للاستقاء ، وفنادق لتزول المسافرين . كذلك كان النصور صديقاً ونصيراً للعلماء ، وقد أنشأ لهم المساهد ، وقسمهم إلى طبقات ورتب معينة ، وأجرى عليهم الأرزاق كل وفق رتبته ؛ وكان يؤثر بالأخص الأطباء والشرفين على المستشفيات^(١) .

وما كاد يعقوب النصور بمثل المرش ، حتى قامت عدة ثورات عنيفة ، كما يحدث غالباً عند تغيير الحكم في الأمم الإسلامية . ذلك أن المرابطين الذين ألفوا ملازم الأخير في الجزائر الشرقية (البليار) ، واستطاعوا أن يحتفظوا بها هادئين في عهد محمد بن سمد أمير بلنسية ، ومن بعده في عهد أبي يعقوب يوسف ، فحركوا فجأة ، حينما عدلوا بهزيمة الموحدين في شنترين ، ووثب علي بن إسحاق سليل القائد المرابطي الشهير بآبن غانية ، فاستولى — بمعاونة أنصاره الكثيرين — على الأسطول الأندلسي الراسي في ميورقة ، وشحنه بالمرابطين وأهل الجزائر الشرقية ، وأبحر إلى بجاية من ثغور الجزائر ، فاستولى عليها دون مقاومة ، وأخرج منها

(١) راجع روض الترتاس ص ١١٣ .

واليها القاضي سليمان بن عبد الله عفيف أمير المؤمنين ، وأمر أن يدعى في الخطبة للخليفة العباسي الناصر لدين الله ، واستطاع أن يفرم نار الثورة ضد الموحدين في جميع المناطق المجاورة^(١) .

وشجع نجاح هذا المشروع بعض الزعماء النافذين على الثورة ضد سلطان الموحدين ؛ بل إن أخوين من إخوة المنصور هما السيد أبو يحيى والسيد عمر ، وعمر السيد أبو الربيع ، كانوا فيما يبدو على تفاهم مع الثوار ؛ ولكن المنصور وقف على أمرهم ، قبل أن يستطيعوا تدمير الخطط معهم ، وأمر بالقبض عليهم وإعدامهم ؛ واستمر المنصور بجاهد حتى سنة ٥٥٨ هـ (١١٨٨ م) ، حتى استطاع أن يقضى على الثورة بالقوة القاهرة ، وأن يرد جموع الثائرين إلى الطاعة ، والرابطون من بينهم ؛ وكان هؤلاء قد قويت شوكتهم بما يتلقونه من سلاطين مصر من إمداد الجند ، وكانوا قد أحرزوا النصر مرارا ، واستطاعوا الاستيلاء على فاس عاصمة مراکش الثانية ، وسقطت في أيديهم طرابلس ، وهي ثغر بحري هام . ولكن المنصور هزم الثوار في فاس في معركة كبيرة ، واسترد المدينة ، وقتل أهلها عقابا لهم على انضمامهم إلى الرابطين ، وأخذ الثورة في الولايات بمثل هذا الإرهاب والعنف^(٢) .

وما كاد يعقوب المنصور بعيد السكينة إلى المغرب ، حتى فكر في أمر الجهاد ضد النصارى في اسبانيا ؛ وكان النصارى قد قاموا في تلك الأثناء بمدة غزوات في الأندلس ، أحرزوا فيها النصر تارة ، وأصيبوا بالهزيمة تارة أخرى . وعبر المنصور إلى الأندلس في ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، ونقول الرواية العربية إنه سار بجيشه ثوا إلى شترين وأشبونة ، لكي ينتقم لمزعة والده ومقتله ، وأنه عاث أثناء سيره في الروج ، وأحرق القرى ، ونهب القيع ، وقتل السكان أو سبهم ، وذهب في الليث والتخريب إلى أدروع الحمود ، حسبما يقول المؤرخون المسلمون

(١) راجع تفاصيل غزوات ابن غانية لثورة إفريقية في ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

أنفسهم^(١). بيد أن التصور ، لم يقم — بالرغم من هذا التخریب — بأية فتوح ، ولكنه خرج من هذه الفتوة بفنائم عظيمة ، وثلاثة عشر ألفاً من السبي بين نساء وأطفال ؛ واضطر أن يعجل بالموء ، إذ وقعت في المغرب اضطرابات جديدة تقتضى مرعة الموء ؛ وهكذا عاد إلى قاس في شهر رجب من نفس العام (٥٨٥ هـ) .

وقامت عندئذ في إفريقية الشرفية (تونس) ثورة عمد النصور إلى إخمادها ، ورحل من أجل ذلك في جيشه إلى تونس ؛ فانتهر البرنقاليون فرصة غيبته ليقوموا بفتوح في جنوبي البرنقال وفي ولاية الغرب .

وحدث في ذلك الحين بالقدات أن قدم أسطول من ستين سفينة تحمل جيشاً من الصليبيين قوامه عشرة آلاف مقاتل ، من ولايات الرين الألمانية ، واللورين وغرزلاند ، إلى شواطئ جليقية ، في طريقهم إلى الشرق ، ورسا على مقربة من شنت ياقب ، وزل كثيرون ليقوموا بزيارة قبر هذا القديس في كومبستل . ولكن أهل كومبستل توجهوا شرا مما شاع حول هؤلاء الأجانب ، وكونهم قدموا لاغتصاب رأس القديس ياقب ، وربما أيضاً لتهب الذخائر التي كدست في قبره ، فقتلوا أسلحتهم ، وحلوا بالقوة دون دخول الصليبيين إلى المدينة ، ف وقعت بين الفريقين معركة سجال فيها الدم من الجانبين ، وعاد الصليبيون على أثر ذلك إلى سفنهم .

وفي نفس هذا الوقت أيضاً قدم أسطول آخر من الصليبيين من إنكلترا والفلاندر ، ورسا قبالة اشبونة ؛ ولما كان الوقت متأخراً وقد دنا الشتاء ، فقد استطاع سانشو ملك البرتغال ، أن يحملهم على الاشتراك معه في القيام بنزوة مشتركة ضد المسلمين في ولاية الغرب . والظاهر أن الصليبيين الذين رسوا عند شاطئ جليقية ، قدموا أيضاً إلى البرتغال وانضموا إلى الجيش البرتغالي ، وأمدم الملك سانشو بثلاثين سفينة أخرى ضمت إلى أسطولهم ، وهكذا أعد أسطول ضخم ؛ وبينما أرسل سانشو إلى باجه وباجه اللتين قدما في الأموام الأخيرة ،

(١) عنه رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ١٤٤) .

والذين لم تكن تحرسهما حاميات قوية ، جيشاً غزاهما واستولى عليهما ، إذ سار الأسطول إلى الجنوب قبالة لسان ولاية الغرب ، وأُتزل جيشاً إلى البر على غرة من المسلمين ؛ وحاصر النصارى في الحال مدينة شلب ، وقطعوا عنها موارد الماء ، فاضطرت إلى التسليم ، وعقدت مع الملك سانشو دون علم الصليبيين عهداً بالخضوع ، بيد أن ذلك لم ينجها من مصيرها المروع ؛ ذلك أنه لم ينج من سكانها الستين ألفاً بينهم الحامية ، سوى ثلاثة عشر ألفاً ، وسبى الباقون أو قتلوا . وقسمت الغنائم وفقاً لاتفاق سابق بين الصليبيين ، ولكن المدينة ، كانت من نصيب الملك . واستقر كثير من الإنكليز في شلب ، واختاروا قسا من قسس الأسطول ، من أهل فلاندر ، يدعى نقولاوس ، أسقفاً للمدينة ، على أنه كان من الصعب على هؤلاء النزلاء الأجانب أن يأنفوا الحياة بين السكان المسلمين ، مثل النصارى البرتغاليين والأسبان ؛ وقد ظهر ذلك في كل مناسبة ، مثال ذلك أنهم حين وصلهم إلى مصب نهر التاجه ، حيث يقيم في أشبونة كثير من اليهود والمسلمين ، نحت حامية النصارى ، ارتكبوا كثيراً من أعمال العنف والتعدي ضد اليهود والمسلمين .

ويبدو من المشكوك فيه ما إذا كانت شلب قد لبثت طويلاً في أيدي النصارى ؛ وتلزم معظم الروايات النصرانية الصمت إزاء استردادها السريع بواسطة الموحدين ، بل تريد على ذلك أن المدينة استطاعت أن ترد جميع هجمات المسلمين بنجاح ، بواسطة شجاعة حاميتها ، والأمداد السريمة التي ألقيتها من اللسكين التحالفين ، ملكا البرتغال وليون ، وكذلك بواسطة معاونة الأسطول الإنكليزي . أما المؤرخون المسلمون ، ومهم رديك الطليطلى ، فيقدمون رواية أخرى مفادها أن الموحدين جمعوا في الحال قوات عظيمة ، وساروا بقيادة محمد والى قرطبة إلى شلب ، وفرضوا عليها الحصار الصارم ، ولبثوا على مهاجمتها بشدة بالليل والنهار حتى استولوا عليها ؛ وكذلك سقطت في أيديهم القصر (قصر أبي دانس) ، وباجه وباره ، وسبوا ثلاثة عشر ألف رجل ، وخمس عشرة ألف امرأة ، وضمنوا في الأغلال كل تخمين في سلسلة ، وسبقوا إلى

قرطبة ، وكانت اختتام هذه الغزوة في شهر شوال سنة ٥٨٧ هـ (نوفمبر سنة ١١٩١)^(١) .

وهذات الحرب في الأندلس بضعة أعوام . ذلك أن سلطان الموحدين كان عليه أن يحمي ثورات جديدة في إفريقية ، وقد أصابه الرض في مراكش ، ولم يستطع أن يتولى أمر الحرب بنفسه . ووقع الخلاف بين اللوك الأسبان في تلك الفترة ، فلم يكن من اليسور أن يفكر أحد في القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين ، وشغلت البرتغال وليون بأمر قرار الحرمان البابوي ، كما شغلت أراجون ونافارا بخلاف مع جيرانهما في فرنسا ؛ وهكذا وقع عبء الحرب ضد المسلمين كله على عاتق قشتالة . ولكن الملك ألفونسو كان عندئذ أحرص من أن يثير المسلمين فيفريهم بالسير إلى الغزو . بيد أنه لما عين مارتى دى سيرا ، مطراناً لطليطلة عقب وفاة المطران جونزالو ، أخذ هذا الجبر المحارب المتحمس ، يعمل لإعداد حملة كبيرة ضد الأندلس . وفي العام التالي من ولايته ، سار على رأس جيش ضخم إلى ميدان الحرب مرة أخرى . وشجعه ضعف الحاميات الإسلامية على الحدود ، ونبا مرض يعقوب المنصور ، فاخترق جبال الشارات (سييرا مورينا) ، وسار بمجدها نهر الرادي الكبير إلى أمحاق الأندلس ؛ ودمر النمصارى كل شيء بالنار والسيوف ، فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرى ، وسيقت الناشية ، وسبي المسلمون المزل رجالاً ونساء ، وقتل المسلحون منهم ؛ وهكذا كفر مسلو الأندلس الأبرياء من فطائع الموحدين ، ولم يسمعه هم عون ولا نصيح يردون به العدو عن هذه القمال المنيفة . وزحفت قوى خفيفة من الفرسان النمصارى حتى أحواز إشبيلية ولستجه ، وإلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون السيث والتخريب^(٢) .

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ ، والمراكشي ص ١٥٨ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٥ .

ولم يقنع ألفونسو الثالث ملك قشتالة بهذه الفزوة ، التي حل منها المطران مارتى إلى طلبيلة غنائم عظيمة ، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يدعوهم إلى القتال هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من ملك النصرانية إلى أمير الحنفية ، أما بعد ، فإن كنت عجزت عن الحركة إلينا ، وتناقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لى المراكب والشباطى أجوز فيها جيوشى إليك ، حتى أقانك فى أعز البلاد عليك ، فإن هزمتنى فهبة جاهدك إلى يدك ، فتكون ملك الدينين ، وإن كان الظهور لى كنت ملك اللتين ، والسلام » (١) .

فلما قرأ يعقوب النصور هذا الخطاب أخذته غيرة الإسلام ، واشتد حنقه لفرسة ملك النصارى ، فبادر بالتأهب للحرب فى الأندلس ؛ وأمر أن يداع الخطاب فى جنود الموحدين ليثير غيرتهم ؛ وضح الجميع وصاحوا بطلب الانتقام ، وأجمعوا على المطالبة بالإسراع فى شهر الجهاد ؛ وأمر النصور ولده ، وولى عهده السيد محمد ، بالرد على الخطاب ، فكتب فى الحال على ظهر الآية القرآنية الآتية : « قال الله العظيم ، ارجع إليهم فلأنهم يمنون لا قبل لهم بها ، ولنخزجنهم منها أذلة وهم ساعون » . ووقع النصور هذا الرد وأرسله إلى ملك النصارى ، وأمر باخراج أفران القبة الحمراء ، وسيفه الكبير ، ليداناً بالدعوة العامة إلى الجهاد ؛ وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير نواً إلى سبتة ، وإلى غيرها من أسكنة المبور إلى الأندلس . ودوت صيحة الجهاد فى جميع أنحاء المغرب من سلا حتى برقة ، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام . وفى نفس الوقت الذى سارت فيه سائر جند الغرب النصرانى إلى محاربة صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، هرع الرجال والشباب والشيوخ وسكان المضارب والصحارى والشواطىء

(١) هذا نص كتاب ملك النصارى كما ورد فى روض القرطاس (ص ١٤٥) وبورده المؤلف بنفس المعنى تقريباً مع خلاف يسير فى العبارة . ولكن ابن خلكان ينقل إلينا نصاً آخر أكثر تفصيلاً لكتاب ألفونسو إلى النصور ، يتفق آخره قطعاً مع النص الذى ورد فى روض القرطاس ، غير أنه يبدو من دياحة هذا الكتاب ومحتواه أنه هو الذى وجهه ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى يوسف بن تاشفين (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠) .

في جميع أنحاء المغرب إلى ألوية القتال لافتتاح اسبانيا ؛ وأخذ الخطر الهام يندرج في المغرب ، في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا المصليب في الشرق . وبعد أن سبر يعقوب المنصور جميع قواته إلى اسبانيا ، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلا ، ثم بادى بالسير إلى قشتالة ، خشية من مفاد المؤن ، ولكي يستغل حماسة جنده وظلمهم إلى القتال . وكانت خطة زعيم الموحدين ترى أولا إلى اختراق قلب اسبانيا وافتتاح طليطلة ، ومتى ظفر ببنيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة . ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة ، قد حشد قواه بين قرطبة وقلمة وراح على مقربة من قلعة الأرك Alarcos أنجه بجيشه إلى ذلك المكان ، إذ كان يسعى إلى الاشتباك بهدوء . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين منه ، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (يولييه سنة ١١٩٥ م) ، وعقد مجلسا من القادة والأسيان لبحث الخطط التي يجب اتباعها لخوض القتال .

ولما سمع رأى الجميع ، التفت إلى زعماء الأندلس ، وطلب رأى أبي عبد الله ابن سنانيد ، وقد كان من أعفهم وأخبرهم بمكائيد الحروب . وكان يعقوب المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، وهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم ؛ وكان من رأى ابن سنانيد أنه يجب أن توضع خطة موحدة منظمة لتسيير دفعة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام ينقصان الموحدين في حروبهم السابقة ، ولا سيما في موقعة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير المؤمنين قائدا عاما للجيش كله ؛ فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه ، الزعيم الأشهر أبي يحيى بن أبي حفص ، الذي امتاز بالفتنة وصفاء الذهن ، والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع .

كذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم ، وهو ما لم يتبع داعما ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم . على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا

من الجيش ينضوى تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص . ولا كان الأندلسيون والموحدون أو الجند القارية النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبد الله بن سنانيد بأن يتولى هؤلاء ، لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول . وأما بقية الجيش ، وهي المؤلفة من قبائل البربر ، ومعظمهم من غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحد بن والأندلسيين ، تقوم بالمون والإمداد ؛ أما بقوب النصور فيستطيع بحرسه الأبيض والأسود ، أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب أن يربط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بمجنوده التوتيين على الأعداء المتمين ، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسب . كل هذه الآراء أبداهما الزعيم الأندلسي ، وأوجب النصور بهذه الخطة ، فوافق عليها وأمر بتنفيذها (١) .

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو ملك قشتالة يجرد في الأهبة ؛ وقد استطاع أن يقوم بالنسبة إلى مملكته الصغيرة بمحشد قوات هائلة ، وقدم إليه فرسان قلعة رباح وفرسان الهاربة ، وفروسية قشتالة بأسرها وكذلك الأجناد أعظم المساعدات الممكنة . فإذا صح ما يقال من أنه استطاع أن يحشد أكثر من مائة ألف مقاتل (والرواية العربية تقدر جيشه بثلاثمائة ألف) ، فإن هذه القوة لم تكن إزاء قوى أعدائه التي لا تحصى ، لتكني لإحراز النصر عليهم . وقد رأى إزاء هذا الخطر الذي يهدد جميع الممالك النصرانية ، أن يطلب إلى قريبيه ملوكي ليون وناقارا ، تناسي الخصومات التي فرقت بينهم من قبل ، وأن يضا قواهما إلى قوته ليلقي الجميع أعداء دينهم مجتمعين ، فوعدا بالمون والسير إليه يدفعهما فيما يبدو تحرير الأجناد والشعب أكثر مما تدفعهما الرغبة الخالصة ؛ وجما الجند ، وتوليا القيادة بنفسيهما ولكنهما تحركا في كثير من البطء ، حتى أن ملك قشتالة أخذ يشك بحق في صدق نيتهما ، وكاد يعتقد أنهما يضمران من المدوان ضد قشتالة ، أكثر مما يحفزهما من رغبة في محاربة المسلمين . ورأى إزاء هذا الريب ، أن أفضل ما يجب

(١) راجع روض القرطاس (ص ١٤٧) حيث يورد هذه الأخبار بالتفصيل .

عمله هو أن يترك أساليب الأسباب القديمة في الحرب ، وهي تقضى بتجنب الاشتباك في الواقع والامتناع بالقلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجاررة على الانسحاب ، إما لنفاد المؤن أو تفتش الأمراض ، أو حلول الشتاء . ولكن ألفونسو رأى ، وهو سيد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، أنه من المار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصاً وقد كان يؤمل أنه يستطيع بمفرده أن يحرز نصراً باهراً على جيوش إفريقية التي لا تحصى .

وفي ١٩ برابيه سنة ١١٩٥ ، الموافق ٩ شعبان سنة ٥٩١ ، كانت موقعة الأرك الشهيرة . وفي صباح هذا اليوم ، أذاع بمقرب ، بين سائر الجند ، لكي يذكر حماسهم للقتال ، خبر حلم رآه في الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى في منامه فارساً نبيل الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء ، ويديه راية خضراء قد انتشرت في الآفاق ، يقول له إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليشره بالنصر بحول الله^(١) ، وقد نظم جيش الوجودين ، الذي تقدره بعض الروايات بسبعمائة ألف مقاتل ، والذي كان يضم ضمن وحدته قوى ثلاثين من الولاة على النحر الآتي : احتل الموحدون ، أو القوات النظامية القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أعقاب قاضي المغرب المسلمين ، ومعهم زفانة وبعض القبائل البربرية الأخرى ، تحت ألوينهم الخاصة ؛ واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن سنانيد .

وتول بمقرب المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي . ودُفعت صفوف التطوعين ، ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ، وهو لون الموحدين إلى المقدمة ، لتفتتح الموقعة ، وهم جميعاً مضطرمون شوقاً إلى الفوز بتاج الاستبهاد .

وكذلك نظم ملك قشتالة ، في تلك الأثناء ، جنده التوتبة إلى القتال ؛ وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب ، وتحصيه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا

يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة . وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا ، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال .

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجرة ، إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة ، واندفبت إليه تحاول اقتحامه على أثر كلكت قائدها التهمة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المتقلين بالدروع ، على المسلمين كالسيل الجارف التدفع من عل ؛ ورد المسلمون هجيات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفدوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم البنيف . فلما عززت صفوف القشتاليين يقوى جديدة ، هجموا للمرة الثالثة ، وضاعفوا جهودهم ، واتجهوا صفوف المدو ، وفرقوعا ، وقتلوا قسما منها ، وأرغم الباقون على الفرار ، ولقي آلاف من المسلمين مصرعهم في تلك الصدمة ، ومنهم القائد العام أبو يحيى ابن أبي حفص ، الذي سقط وهو يقاتل عنتى البسالة ، واعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم ، بعد أن حطموا فلب جيش الموحدين ؛ ولكن الأندلسيين وبعض بطون زنانة ، وهم الذين يكونون الجناح الأيمن ، هجموا عندئذ بقيادة أبي عبد الله بن سنانيد ، على قلب الجيش النصارى ، وقد أضفنه نفد فرسان القشتاليين ، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة نفسه ، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح ؛ فلقى الأعداء ، وهم أضعاف قوته دون رجل ؛ ونشبت بين الفريقين معركة حامية طويلة ؛ واستبدل النصارى النقص في العدد بالإقدام والشجاعة ، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين ، واضطروهم إلى الفرار في غير انتظام ، لم يبادر ألفونسو ومرسانه المنيرة آلاف مكلفهم في القلب ؛ ذلك لأنهم أقتسموا جميعا في الصباح عند الصلاة ، بأن يموتوا ولا يتقهقروا . واستمرت المعركة على اضطرابها المروع ، والفريقان يقتلان تحت سحب كثيفة من التيار ، وأرجاء السكان تدوى بوقع حوامر الخيل ، وقرع الطبول ، وأنصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وسياح الحند ، وأبين الحرى . ومع أن الموحدين كانوا يتقدمون فوق أكاداس من جث

جندهم ، فإنهم أيقنوا بالنصر ، حينما انحسرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة ؛ وهجم أمير المؤمنين في مقدمة جيشه ، لكي يجهز على هذه البقية أو ياجئها إلى الفراء ، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى ، والعلم الأبيض المقدس يخفق أمامه منقوشاً عليه « لا إله إلا الله » ، محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله » . ولم يشأ ألفونسو ، بالرغم من اشتداد ضغط العدو عليه من كل صوب ومواجهته لخطر الهلاك والسحق ، أن ينقذ نفسه بالفراء ، وأن يحتمل مار الهزيمة ؛ وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لهدمهم ، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو ، وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته .

وهكذا انتهى يوم الأرك الذي بهزيمة النصارى على هذا النحو المروع . وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية ؛ واستولى المسلمون على مسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والمال ، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك وقاعة رباح النيبين ؛ ومما زاد في ألم الأسبان أن هذه الهزيمة لم تلحق بهم دون معاونة بعض النصارى الفارين الذين كانوا يرافقون زعيم الموحدين ويمدونه بالصح ؛ وكان في مقدمة هؤلاء السكونت بيدرو فرنانديز دى كاسترو ، الجند من قشتالة ، فقد أمدى نشاطاً حاسماً في المعاونة على سحق وطئه ^(١) .

وسرعان ما رفع انتصار الأرك ثمرة الموحدين الحربية في كل مكان ؛ وأبس بمقرب المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع أنحاء مملكته الشاسعة ؛ وخصص خمس الغنائم لمد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد نخم في إشبيلية

(١) . ينسب المؤلف في معظم التفاصيل التي يورد ما عن موقعة الأرك ، رواية صاحب روس القرماس (س ٩٤٥ وما بعدها) . وراحم أيضاً في تفاصيل هذه الموقعة ، ابن خلدون ج ٢ س ٤٣٠ ، والمراكشي س ١٦٠ ، ويسمى مكان الموقعة بنقص الحديد ؛ وابن خلدون ج ٦ س ٢٤٥ ، وابن الأثير ج ١٢ س ٤٤ و ٤٥ .

اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ^(١) وبناء حصن كبير في مهاكش لتخليد ذكرى الوقعة .

وعما يذكروننا بالثناء لزعيم الموحدين ، أنه لم يُشِين منعه نصره بالالتجاء إلى قسوة لا مبرر لها ، في معاملة الأسرى والمزل . فقد أسر المسلمون في موقعة الأرك عشرين ألفاً ، ولم يشأ النصور جرياً على سنن الحرب التبعة يومئذ أن يقتلهم أو يرسلهم عبيداً إلى إفريقية بل آثر أن يمنحهم جميعاً الحرية دون افتداء ؛ وقد ساء وقع هذا الجور لدى الموحدين ، واعتبروه من بعض جوانب فروسته الضميمة ؛ وتقول الرواية العربية إنه ندم على تصرفه فيما بعد^(٢) .

ولم يبلغ سلطان الموحدين قط ما بلغه عقب موقعة الأرك . وقد اجتمعت عوامل عدة لتحدث هذه النتيجة . ولم يكن ينقص الممالك النصرانية الخمسة الاتحاد فقط ، بل إن فتشالة التي كاد أن يقضى عليها الموحدون ، غدت فريسة حرب شერთها عليها ليون وناقارا . وكانت هاتان الدولتان تقومان في الواقع عندئذ بمفاوضات سرية لمقد تحالف مع الموحدين . وكانت أراجون قد أدركها الوهن عقب وفاة ملكها ألفونسو الثاني ، وفرقتها الحروب الأهلية . أما البرتغال فلم تكن تستطيع دون معاونته خارجية أن تقوم بمشروع ما ، وإن كان مما يجب ذكره أنها كانت مع ذلك أشد الدول النصرانية وطأة في محاربة المسلمين .

ورأى بنقوب النصور أن يفتز فرصة هذه الظروف السانحة ، فقام في أوائل سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) بفزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية . واختراق ولاية استرامادوره ، وعبر النهر الكبير (الوادي الكبير) في اتجاه نهر التاجه ، وبعد أن استولى على عدة حصون وقلاع مثل رجاله ، وعسقلونة ، ولاليا ، وامتنع

(١) حول هذا المسجد الشهير إلى كنيسة جليلة بعد استيلاء البمارى على إشبيلية (سنة ١٢٤٨ م) وحول منارته إلى برج الناقوس ، وهي لا تزال قائمة إلى يومنا ، وتعرف ببرج الجيرالدا La Giralda ، وارتفاعها يبلغ نحو مائة متر ، وتتميز من أبديع قطع الفن المختلط ، المغربي الصراني .

(٢) هذه رواية صاحب روض القرباس (ص ١٥٢) .

عليه البمض الآخر مثل طليبره ومجويده ، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ؛ وكان ألفونسو ملك قشتالة ، قد امتنع مع جيشه الصغير بماسمته ولم يجرؤ أن يحارب العدو في الميدان المكشوف نظراً لانكسار أنفُس جنده وقلة عددهم . بيد أنه كان ممتزماً أن يدافع عن طليطلة عاصمة اسبانيا النصرانية حتى النفس الأخير ، وأن يلقى الموت قبل أن يخضع للعدو . ولا رأى المنصور بمد أن حاصرها عشرة أيام أن جميع محاولاته لاقتحام هذا المعقل النيع لم تسفر عن النجاح ، ارتد عن أسوار طليطلة إلى مدينة طليطلة ، واتحدها ، وقتل كل جنودها ، وسبي النساء والأطفال ، وقسم كل القنائم بين جنده ، وأحرق المدينة وهدم حصونها ؛ وفعل مثل ذلك بوادي الحجارة وعدة أماكن أخرى . ولكن بحربط والقلمنة امتنمتا عليه ولم يوفق إلى فتحهما .

ولما كان سكان السهول قد لجأوا إلى القلاع ، وانتسفت الزروع عقب موقعة الأرك ، فمرعان ما نقصت المؤن في جيش الموحدين ، ثم دب إليهم المرض ، وكثر الموت بينهم ، فاضطروا عندئذ إلى الانسحاب ، بمد أن وصل بمقرب المنصور إلى مقربة من ضفاف دويره ، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي . وعات الموحدون عند عودهم في الأراضي النصرانية أينما عيث ، فلم تطأ أقدامهم مكاناً إلا تركوه أطلالا دارة كأنما كانوا يشعرون أن هذه آخر حملة إسلامية تمها لا احتلال طليطلة ، وتجاوز جبال وادي الرملة^(١) ، وإذا صدقنا الرواية المريضة فان بمقرب المنصور عاد بطريق البلاط وترجاله^(٢) ، أعنى حلال استرامادوره إلى إشبيلية ؛ ولكن الرواية النصرانية تقول إنه عاد عن طريق اقلبش ، وفوقة ، ومرسية إلى الأندلس . والظاهر أن جيش الموحدين انقسم إلى قسمين ، سلك أحدهما هذا الطريق ، وسلك الآخر ذاك . وقد استطاع بمقرب المنصور أن يعرف من تجارب هذه الحملة ، أنه أيسر عليه أن ينتصر في موقعة ، أو يتوغل في

(١) هي بالأندلسية Guadarrama

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

أراضى العدو ، من أن ينزع قلعة أحسن تحصينها ، وأنه أيسر عليه أن يفتح اسبانيا على يد النصارى أنفسهم . وكان ملكا نافارا وليون قد عقدا معه حلفا ؛ واعتقد ملك ليون أنه يستطيع بمعاونة المسلمين أن يقوم بفتوحات في قشتالة ؛ ولكن ألفونسو النبيل (ملك قشتالة) عمد إلى مقاومة هذا المسمى فمقد في سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) الهدنة مع الموحدين ، وذلك لكي يستطيع التغلب على عدوه ؛ ورحب المنصور بعقد هذه الهدنة لأن نورات جديدة قامت في إفريقية ، كانت تستدعي عوده إلى مهاكش . كذلك عني المنصور بأن يضمن لولده السيد محمد أبي عبد الله ولاية ممره ؛ فلما انتهى من إخماد الفتن ورد السكينة إلى نصابها استطاع دون مشقة أن يحمل جميع المولاة والقادة على الاعتراف بولاية عهد الأمير محمد ؛ وأثرك ولده منه في الحكم من ذلك التاريخ ، وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين . ولم يرض على ذلك قليل حتى مرض المنصور ، وتوفي بفصره في مهاكش في الأربعين من عمره وذلك في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٩٩) بعد أن حكم خمسة عشر عاما^(١) .

وكان يعقوب المنصور من أعظم ملوك الموحدين وأبرعهم وأرفعهم خلافا ؛ وقد سما بصولة الموحدين إلى ذروتها ؛ ولم يشد أمير من أسرته مثل ما شاد من المساجد والأبنية الفخمة ؛ وكان رفيع الخلق ، قلما يعرف النار وكثيرا ما يؤثر الصفح ، وهي فضيلة يندر وجودها في النفوس المغربية الجائشة . وكان كثير الحب للعلماء يثيب عليهم وفضلهم بأكرم ما يهب الملوك . وكان يبدى في اختيار وزرائه ذكاءا وبمدا نظر ، وينتخب أكفأ الأشخاص لجميع فروع الإدارة . وكان على صلات وثيقة مع معظم ملوك المسلمين في عصره ؛ وقد أرسل السلطان الكبير صلاح الدين ، الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين ، إليه رسوله ، ليمقدمه

(١) ينقل ابن خلكان رواية غريبة عن مصير يعقوب المنصور خلاصتها أنه تنازل في أواخر حياته عن الملك ، وترحم وساح في الأرض ومات بالسرقة مستغنيا خلا ، وأنه كان في عصر ابن خلكان بموضع قريب من بلدة المجدل بالشام قبر تعرفه الناس بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب (ج ٢ ص ٢٣١) .

حلفاء ضد ملوك أوروبا ، الذين كانوا يهددون الشرق يومئذ بحروبهم . ولكن صلاح الدين لم يلقب سلطان الموحدين في خطابه بأمير المؤمنين ، ولهذا لم تتم المحالفة وإن كان الرسول قد استقبل باكرام وحفاوة^(١) ووصله سلطان الموحدين من أجل قصيدة صغيرة من أربعين بيتاً نظمها في مديحه بهيبة قدرها أربعون ألف دينار ، هي كما قال المنصور رمز التقدير لملكه وبراعته في النظم .

(١) هذه رواية ابن خلكان ؛ والرسول الشارح إليه هنا هو طبقاً لهذه الرواية ؛ شمس الدولة أبو الحرث بن عبد الرحمن بن نجم البغلة (راجع ج ٢ ص ١٣٧) .

الكتاب الحادي عشر

اضمحلال سيادة الموحدين
وازدیاد تفوق قشتالة وأراجون
في النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول

حال اسبانيا بعد موقعة الأرك

حتى موقعة تولوزا أو موقعة العقاب

على أثر هزيمة « الأرك » تخرج مركز النصارى فى شبه الجزيرة ، واشتد الخطر عليهم بصورة لم يعرفوها منذ بعيد ؛ ولم يكفهم أن أعداء الصليب ضربوا مسكرهم أمام عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولكن الخسومات والحروب الطاحنة كانت تمزق الملوك النصارى ، ونحول دون كل اتحاد اواجهه الخطر المشترك ، ولم ينفذ اسبانيا النصرانية يومئذ من الهلاك سوى إسراع زعيم الموحدين بمقوب للتصور بالمود إلى المغرب ، ثم موته الفجائى ، الذى قضى على خطط الموحدين الكبرى فى الفتح .

وكان من المحقق يومئذ أن شبه الجزيرة ستندوى كلها تحت سلطان الموحدين لو أن محمداً خليفة بمقوب ، مضى فى الحرب بمثل ما كان عليه أبوه من الذكاء والقوة والمقدرة على انتهاز الفرص . ذلك أن اسبانيا النصرانية لم تكن يومئذ سوى مزيج مضطرب من الناصر التخاصمة . ولو أن أميراً فطناً من أمراء الموحدين ، سار على مبادئ السياسة التى اتبعت فيما بعد ، فى استئلال منازعات الملوك النصارى ، والتوسل بحالفة الضمماء منهم إلى التدخل فى الشؤون الداخلية ، لاستطاع المسلمون أن يخضعوا اسبانيا كلها فى جيل واحد . ومن المرجح أن بمقوب للتصور ، وهو الذى استن هذه السياسة ، كان يوسمه أن

يحقق هذه الناية لو طال أمد حكمه ، وقد اتخذ بالفعل في هذه السبل خطوات ناجحة ؛ وبالرغم مما بذله ألفونسو الثاني ملك أراجون ، والبابا سلتان الثاني من مختلف اليهود للتوفيق بين الأمراء الأسبان ، وجمع كلمهم ، فإن هذه اليهود لم تسفر عن نتيجة ؛ وكانت الخصومة على أشدها بين الملكين القريبين ، أعنى ملكي قشتالة وليون ؛ وكان ألفونسو النبيل ، المهزوم في موقعة الأرك ، ينسب هزيمته إلى تقاعد الجيش الليوني عن إمداده ، ولم يسه في أول لقاء وقع بينه وبين ابن عمه إلا أن ينحى عليه بأشد اللوم ؛ وترتب على ذلك أن قامت بينهما خصومات انتهت بالحرب الصراح ؛ وهكذا ، بينما كان الموحدون يشغنون بجيوشهم في جنوبي قشتالة ، إذ غزا حليفهم ملكا قشتالة وليون شمالي قشتالة ، واستولوا على بعض البقاع والأماكن التي لم تدعم حمايتها . وما كاد ألفونسو النبيل ملك قشتالة يتجر من خطر المسلمين الدائم ، على أثر الهدنة التي عقدها مع بمقوب الفصور ، حتى عقد مع ملك أراجون الجديد ، بيدرو الثاني حلفاً وثيقاً ، وشهر الحرب على ليون ونافارا في وقت واحد ؛ فارتفعت الملكتان لهذا الخطر الفجائي وحاولتا أن تحصلا على عون من الموحدين ؛ ومع أن البابا سلتان ، أنذر بمقوبة « الحرمان » الديني ، كل أمير أسباني يتحالف مع أعداء النصرانية ، فإن سانشو ملك نافارا ، لم يجد سبيلاً غير هذا التحالف للدفاع عن مملكته ضد جاره القوى . وانقض ألفونسو ملك قشتالة بجميع قواته على ليون ؛ وكان ملكها قد استفاد لمدايته قوة من المسلمين ، ليتمكن بمؤازرتها من أن يسير إلى قلب قشتالة . ولكن القشتاليين استطاعوا بمعاونة الأراجونيين أن يخترقوا ليون مرتين ، وعاثوا في أراضيها أيماء عيث ، فانتسفوا كل شيء في طريقهم حتى أشرفوا على عاصمة ليون ؛ وكأنما أرادوا بذلك التخريب ، أن ينقموا من جيرانهم النصارى ، لما يوقه المسلمون من التخريب في قشتالة ؛ بيد أن أسوار ليون النيمة وقفت في وجههم سداً ووضعت حداً لتقدمهم ، ولكنهم انتسفوا ضاحيتها والحي المسمى « بيرج اليهود » ؛ كذلك لم يستطع القشتاليون افتتاح استرقة ،

ولكنهم خربوا الأراضي المجاورة لها أيما تخريب .

ولما تأهبت قشتالة وأراجون معاً للقيام بغزوة جديدة ، تدخل الأحزاب والفرسان ، لمقد الصلح بين قشتالة وليون ، حتى لا تبتد قوى اسبانيا جميعها في حروب أهلية . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون ، قد طلق في النهاية زوجته الأميرة البرتغالية بيريزا ، زولا على إرادة البابا (سنة ١١٩٥ م) ، بيد أنه لم يحسب كبير حساب لقرار الحرمان البابوي ، واعتزم مرة أخرى أن يتزوج من قريبته الأميرة القشتالية برنجاريا ابنة ألفونسو النبيل ، وذلك لكي يحقق لمملكته سلاماً دائماً ؛ وارتضى ملك قشتالة أن يقدم لابنته جميع الأماكن المتنازع عليها بين ليون وقشتالة ، والتي افتتحت في الحرب الأخيرة مهراً لها ؛ وهكذا لاح أن يواعث الخصومة قد أزيلت لدى بيد ، وساد الوئام بين الأمرين المالكيتين المرتبطتين بأواصر القرى ؛ ولم يمت يومئذ أحد بأمر البابا أو الحرمان الكنسي ، ووافى رجال الدين الأسبان على هذا الزواج ، لما فيه من تحقيق خير الملكيتين النصرانيتين ، وتم الزواج في بلد الوليد في حفلات باذخة في سنة ١١٩٧ م .

ولما كان هذا الزواج قد تم دون الحصول على إذن البابا ، فقد أعلن سلسطان الثالث بطلانه ؛ وأرسل إلى اسبانيا الكردينال جيدو دي سانت أنجلو ، مزوداً بأمر إلثائه ، وأن يقوم في حالة عدم الإذعان لأمر البابا ، بإصدار قرار التحريم ضد المالكين وضد أراضيهم . ولكن ملك ليون كان يشغف جداً بزوجه وكان يؤيده رجال الدين والفرسان ، ولذا لم يمتأ بوعيد البابا ؛ أما ملك قشتالة الذي عقد الصلح مع ليون وسلم إليها الحصون المفتوحة رغم إرادته ، فقد صرح أنه على استعداد لاسترداد ابنته ، على أن يُرد معها مهرها .

ومع أنه كان من الواضح ، أن إلثاء هذا الزواج لابد أن يترتب عليه اضطراب عظيم ، فإن إصرار ملك ليون على الاحتفاظ بزوجه الأميرة القشتالية ، لم يلبث أن أسفر عن صدور قرار الحرمان الكنسي ضد ملك ليون ومملكته . وضد أساقفة شلنقة وسمورة ، واسترقة وليون ، وضد مملكة ليون كلها ؛

وذلك حتى يقرر الملك انفصاله عن قريته .

ولما تولى أنوسان الثالث كرسي البابوية بعد ذلك بقليل ، حاول مرة أخرى بالرسائل والرسول ، أن يحمل الملكين على الخضوع لأوامر الكنيسة ؛ فلما لم تثمر مساعيه ، ولما اضطر أسقف أوفيدو الذي أبدى طاعته للكرسي الرسولي أن يفر اجتناباً لنفمة الملك ، كرر البابا أنوسان قرار الحرمان على يد الراهب رينر ؛ ولم يجد الرسول الذي أرسله الملك إلى رومة — ليشرح لأولى الأمر ما يترتب على إلغاء الزواج من المضار — من يصنى إليه

فهل كان ثمة أدعى يرمثذ إلى اضطراب اسبانيا من تلك الحال ؟ في كل آونة كانت جموع عديدة من المسلمين تنفذ إلى أراضي النصارى ، لأن الهدنة المقودة انقضى أجلها ، وكانت قشتالة وليون اللتان اتحدتا في الظاهر ، تضطرم كل منهما نحو الأخرى بنفساً وحققاً ، ولم تتفقا إلا على أسر واحد ، هو محاربة البرتغال ، بالرغم من المعاهدات المقودة ، وإعداد جيوشهما للانقضاض عليها . وكانت ليون تمنأى أشنع ضروب الاضطراب ، ذلك لأن الأخبار حتى الذين يناصرون البابا منهم ، كانوا يشكون من أن قرار الحرمان لا يترتب عليه سوى بث الكفر والردة ، وأنه متى أبطلت التماثر والوعظ ، خبت حماسة الشعب ضد المسلمين ، وأن رجال الدين يفقدون مكانهم ، إذا لم يزاولوا مهمتهم في خدمة الدين ، واستنزال البركات على الناس . أما في أراجون فقد كان الملك بيدرو الثاني في حرب مستمرة مع الأمراء النابيين له ، وكان هؤلاء يحارب بعضهم بعضاً ؛ وأذكى هذه الفوضى ، ما عهد إليه سانشو السابع ملك نافارا من عقد الحلف الصريح مع الوحدين بالرغم من نهى البابا ووعيده ، ذلك لأنه رأى في هذا التحالف سبيله الوحيدة للتمكن من مقاومة ملكي قشتالة وأراجون انتحدين ضده ؛ بيد أنه ما كاد يذاع أمر هذا التحالف ، حتى رأى الملكان الخصيان من حقهما أن ينزوا نافارا ، وأن يفتسا أراضيها فيما بينهما .

وكان سانشو السابع مذ ذلى العرش في سنة ١١٩٤ م يفكر في التحالف

مع الموحدين ليقاوم تفوق جره الطرد . وكانت نافارا لا تزال يومئذ تلك ولايات البشكنس ؛ ولكنها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لضخامة قشتالة وأراجون ، وما علكان من الأراضي المجاورة ؛ ولم يوفق سانشو السادس إلى رد جاريه القويين عن غزو مملكته إلا نظراً لطبيعة أراضيه التي تتخللها جبال وعرة ومفاوز ضيقة ، ونظراً لتعلق الشعب النافاري بأسرته الملكية ؛ فاذا طرحت الاعتبارات الدينية جانباً فقد كانت مبادئ السياسة الحكيمة تمل بأن الحلف بين الموحدين والنافارين أمر طبيعي .

وكان سانشو ملك نافارا قد بدأ — عقب موقعة الأرك — عدوانه ضد قشتالة ، وتحالف مع ملك ليون على محاربة ألفونسو النبيل ؛ ومن المرجح أن الموحدين هم الذين دفعوا النافارين يومئذ إلى القيام بهذا العدوان ضد قشتالة ؛ ولقد حاول ملك قشتالة — في لقاء وقع بينه وبين الملك سانشو في طركونة وشهده ملك أراجون — أن يقنعه بوجود التعاون فيما بينهما على محاربة أعداء النصرانية ، وأن يجعله على الوقوف معه ضد ليون . ولكن لاح يومئذ لملك نافارا أن الظروف سانحة ليميل على سحق تفوق جاره ، وكانت عروض الموحدين مغرية ، فلم يحجم عن التحالف معهم ، ولم يحفل بيوعات الدين أو الشرف ، أو يهبأ بوعيد البابا أنوسان الثالث .

وبينا كانت قشتالة تتلقى موجات الموحدين والليونيين في نفس الوقت ، وبينما كانت أراجون في عهد ملكها الفتي بيدرو الثاني الذي خلف ألفونسو الثاني يمزقها الخلاف ، وتطاول الأسراء الأقوياء التابعين للعرش ، كان ملك نافارا يؤمل أن يقدو سيد اسبانيا النصرانية بمعاونة الموحدين . وكان يعقوب النصور الظاهر في موقعة الأرك قد وعده بأن يزوجه ابنته ، وأن يجعل مهرها الأراضي النصرانية ، بل كانت الأندلس فوق ذلك مطمح أنظاره ؛ نعم كان على سانشو أن يعترف بسيادة سلطان الموحدين ، ولكن كان من حفه أن يزاوّل سلطته الملوكية دون منازع في الأراضي التي يحكمها . أما كون النصور

قد اشترط على سانشو في هذه المعاهدة أن يستق الإسلام فساله لا يمكن
القطع بصحتها^(١) .

وأراد سانشو أن يخفى خططه وألا يفضحها قبل الأوان ، فأرسل أسقف
بنبلونه إلى رومة ، ليؤكد البابا سلسنان الثالث أنه أبعد ما يكون عن فكرة
التحالف مع المسلمين ؛ وهذا في الوقت الذي أعد فيه كل شيء لعقد هذا التحالف
مع الموحدين . وما كاد أسقف بنبلونه يعود من رومة ، وتهدأ الاشاعات المتداة
بالتحالف مع المسلمين ، حتى عهد سانشو بحكم الملكة إلى بعض الأكابر الأكفاء
وعهد بالدفاع عن حصونه المشحونة باليرة إلى أقدر وأخلص القواس ؛ وسار
في قوة كبيرة من الفرسان إلى زيارة سلطان الموحدين لكي يتم المفاوضات معه ،
وبعقد قرانه على ابنة بمقوب النصور .

ولما كانت الروايات الأسبانية النصرانية ، تاتزم الصمت إزاء هذا التحول من
جانب ملك نافارا إلى أعداء دينه ، وذلك فيما عدا رديك الطبطبالي الذي يشير إليها
في عبارة موجزة ، فليس أمامنا سوى الاعتماد على الروايات العربية ، ورواية روجر
دي هوفدن الانكليزية ، وكلتاهما تناقض الأخرى في جميع تفاصيلها . ومن
الواضح أن الروايات العربية تخلط بين سفارة يوحنا ملك إنكلترا^(٢) إلى سلطان
الموحدين محمد ولد بمقوب النصور وخلفه ، وبين رحلة سانشو ملك نافارا . إذ
تضع تاريخ هذه الرحلة في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) . وذلك حينما قدم أمير
المؤمنين من المغرب إلى إشبيلية ليتابع الحرب في اسبانيا . كذلك تشير الرواية

(١) هذا ما تقوله الروايات النصرانية دون غيرها ؛ ولم نجد لهذه الرواية أثراً في المصادر
الإسلامية ، وقد يكون النصور ارتضى أن يقد حلفاً مع ملك نافارا ، ولكننا نشك كل الشك
في كونه ارتضى أن يزوجه ابنته ، خصوصاً لما هو مأثور عن الموحدين من شدة التمسك
بالبيعة ، وعدم التسامح ، وفي حالة واحدة فقط يمكن أن تصور صحة هذه الرواية ، وهو أن
اعتناق ملك نافارا للإسلام كان شرطاً جوهرياً لتزويجه من أميرة موحدية .

(٢) يوحنا John ملك إنكلترا ناشر إليه هنا هو أسير أبناء هنري الثاني ، حكم بعد
موت أخيه ريتارد الملقب بالأسد من سنة ١١٩٩ إلى سنة ١٢١٦ م . ولم نجد في سيرته
ما يفيد أنه أوفد سفارة إلى ملك الموحدين .

المرية إلى سانشو فقط بلسم ملك بيوتة . ولكن من الواضح أن القصة التي يوردها المؤرخون السلون ، تدل في مجموعها على أنها تتلخس بسانشو السابع ملك نافارا . ونصف الرواية المرية رحلة سانشو إلى بلاط سلطان الموحدين على النحو الآتي : « ما كاد ملك بيوتة يسمع بمقدم أمير المؤمنين إلى إشبيلية حتى أرسل يستأذنه في زيارته فأذن له . وقد استقبل الأمين مع زوجته ، ووزرائه وحشمه ، وحاشيته المديدة ، أبنا حل على طول الطريق من حدود النصراري حتى قرمونة ، بمنتهى الإكرام ؛ وفي قرمونة احتجز منه ألف فارس ، ولم يترك له سوى ألف أخرى كاشية له . وأمر سلطان الموحدين فاصطف الجند صفان من قرمونة إلى إشبيلية ، وهم في أحسن الثياب ، وقد رفقوا حراهم وسيوفهم ، ومر من بينها ملك نافارا ؛ واستقبله أمير المؤمنين عند باب إشبيلية في خيمة نعمة ؛ ورأى محمد لكي يجمع بين الجمالة وبين الاحتفاظ بمزته ، أن يرنب دخوله إلى الخيمة من جانب ، في نفس الوقت الذي يدخلها فيه ملك النصراري من الجانب الآخر ؛ وقاد المالكين إلى الأريكة مما شيع من أشياخ الأندلس يعرف الأسبانية ؛ وبعد الحادثة الأولى التي نولى فيها الزعيم الأندلسي الترجمة ، سار محمد إلى إشبيلية على رأس حرسه في مركب نغم ؛ وقدم الملك النصراني هدية إلى سلطان الموحدين ، هي مصحف قديم يتوارثه آباؤه ، وكان موضوعاً في صندوق من الذهب مضمخ بالسك ، وغطاؤه من حرير أخضر ، مرصع بالذهب ، والأحجار الكريمة من الزمرد والياقوت وغيرها . وبعد أن استبقى محمد ضيفه مدى حين في إشبيلية ممرزاً مكرماً ، وغمره بمجزيل التحف ، عاد أخيراً إلى أراضيه » .

والروايات النصرانية عن رحلة سانشو أقل تفصيلاً ، ولكنها أقرب إلى الحقيقة . وقد قام بها سانشو عقب وقوفه على موت المنصور ، في جماعة كبيرة من الفرسان ، وكان ذلك في أواخر سنة ١١٩٨ أو أوائل سنة ١١٩٩ م . وهذا ما تؤيده جميع الوقائع والظروف الأخرى . ولم ير سانشو في موت سديقه المنصور ما يحمله على الإحجام عن القيام بهذه الرحلة البعيدة ؛ وقد تخلف مدى حين في

الأندلس ، في انتظار عودة الرسل الذين أوفدتم إلى محمد خليفة المنصور ؛ فلما عاد أولئك ، وأبلغوه أن محمداً يكن نحوه من عواطف الصداقة مثل ما كان أبوه ، اعترم أن يتابع الرحلة إلى مراكنس ، إلى بلاط سلطان الموحدين . فاستقبله محمد بأجل حفاوة ، ووافق على زواج أخته ملك نافارا ، ولكنه لم يشأ بحثاً في مسألة التنازل عن أملاكه الأسبانية إليه ؛ فلم ير سانشو أن يجعل بمسألة الزواج ، ولكنه قبل أن يشترك مع فرسانه في معاونة الموحدين على إخماد فتنة قامت يومئذ في جبال غمارة ، وأبدى شجاعة عظيمة^(١) .

وبينما كان سانشو مقيماً في بلاط سلطان الموحدين ، مؤملاً أن يندو بمعاونته ملكاً على جميع أسبانيا ، إذا به يفقد معظم أملاكه الصغيرة . ذلك أن ألفونسو النبيل ، وحليفه بيدرو ملك أراجون ما كادا يملكان بسفر سانشو إلى بلاط الموحدين ، حتى قررا أنهما في حل من جميع المعاهدات السابقة التي عقدها مع نافارا بحجة أن ملكهما قد تحالف مع أعداء أسبانيا التاربخيين ؛ ثم زحفا على نافارا يبيشهما المشترك (سنة ١١٩٩ م) ، لية تسامها فيما بينهما ؛ بيد أنهما اتفيا في هذا السبيل صعباً لم يتوقعاها . فقد دافعت الحصون الشحونة بالبرية والسلاح دؤناً قوياً ، وبعد حصار طويل استطاع ألفونسو ، أن يفتتح حصن فكتوريا ، وأن يسترد

(١) لم نشر الرواية العربية إلى مقدم سانشو ملك نافارا إلى مراكنس وإقامته متى حين في بلاط الموحدين . ولكنها تشير إلى وفوده على أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور ، وهو بالأندلس ؛ وتقول هذه الرواية ، إن الناصر لما عبر بجيوشه إلى الأندلس لافزو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ارتاع ملوك النماری ، وكتب إليه عدة منهم يسألونه المهادنة والسلام ، ووجد عليه منهم ملك بنبلونة (ونبلونة هي عاصمة مملكة نافارا) مستلماً طالباً للصلح ، ويقال إنه قدم إليه كتاب إلى (س) الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم يستنفع به وقد كان يتوارثه آباؤه ، فاحتفل الناصر لقدمه ، ثم عده له الصلح ما دامت دولة الموحدين ، وأجابه إلى جميع مطالبه (راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩٣) . وذكر ابن خلدون أن الذي وفد على الناصر بالأندلس يومئذ هو «الببوح» صاحب لبون (الفرس التاسع ؟) وأنه قدم عليه عام موقعة القلاب (سنة ٦٠٧ هـ) فداخله وأظهر له التمنع فيقل له أموالاً ثم غدر به (ج ٤ ص ١٨٣) أما الرواية التي أوردها المؤلف فقلا عن المصادر العربية فهي رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس وهو يشير إلى الملك الراشد على الناصر بأنه ملك «بيونه» ويصف وفوده عليه في أشييه بلقنسة (ص ١٥٥)

ولايات ألبه وبسكونيه ، وجوبسكوا ، وهي التي كانت من قبل ملكا لقسثالة ؛ وقطع لأهلها عهداً بأن يترك لهم الاحتكام إلى شرائعهم وتقاليدهم ، اكتساباً لمحبتهم . وكان ملك أراجون أقل توفيقاً ، فلم يستطع أن يفتح إلا بضعة أما كن صغيرة على الحدود ؛ ودافعت ببلونة وغيرها من المدن الكبيرة أعظم دفاع ، ولقيت أعظم توفيق في رد جارها البغيض . وأخيراً عاد الملك سانشو إلى مملكته ، بعد أن أبين أنه إذا كان يستطيع أن يحصل على أميرة موحدة زوجة له فإنه لا يستطيع الحصول بأى حال على حكم الأندلس والأملاك الإسلامية الأخرى في اسبانيا ، وقد قطع المفاوضة بعد أن تحقق خيبة السى ، وعاد إلى مملكته بعد أن غلب عليها عامين (سنة ١٢٠١ م) . ووصل في الوقت المناسب ليقود جنده المخلصين مرة أخرى للكفاح الشاق ضد الأعداء الأقوياء ، واستطاع بمعاونة الكونت ديجو لويز زعيم بسكونية النازر ضد قسثالة أن يسترد معظم الأما كن المفقودة ؛ ثم تدخل الأخبار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة ثلاثة أعوام . ولكن الولايات البشكنسية بقيت في حوزة قسثالة . ولم يمض قليل على ذلك حتى أنشأ سانشو ، جماعة مسلحة لطاردة عصابات اللصوص التي كانت تهيئ في البلاد (سنة ١٢٠٤ م) ، فكانت هذه الجماعة نواة لجمعية الأخوة المقدسة (الهيرمانداد) .

أما في ليون فقد لبث الاضطراب على شدة ، وانقسم الأخبار إلى فريقين ، أحدهما يؤيد زواج الملك بالأميرة القسثالية برنجاريا ، والآخر وهو أقلهما بمارض في هذا الزواج ؛ وكان الملك يبدى في أعماله كثيراً من القوة والعنت ، فكل من وقف في سبيل حكومته ، سواء من رجال الدين ، أو المدنيين ، أمر بزيجه إلى السجن ، إذا لم يبادر بالفرار اتقاء العقاب الدائم . ولعله لم يكن حب زوجته والتعلق بها هو الباعث الوحيد على تشده في هذه القضية ، بل هو بالأخص تفكيره في مصير أبنائه الذين رزق بهم من زوجته ، وكونهم إذا ألتى الزواج ، لا يستبرون من الأولاد الشرعيين ، وما يتحتم عليه عندئذ من رد مهر برنجاريا ، وهو أمر

خطير بالنسبة لليون ، إذ يوجد بين الأراضى التى يتعين ردها ، عدد من الحصون القوية الواقعة على الحدود .

ولما أدرك البابا أنوسان الثالث ما يترتب على قراره الصارم ، من النتائج السيئة ، نزل على ملتقى بعض الأعيان الليونيين ، وأمر بتخفيف القرار بحيث يسمح بإقامة الشمامسة الدينية والكهنسة ، على أنه يجب بالنسبة للملك وزوجه ابنة ملك قشتالة ، وجميع الكهنة الذين تحملهم أمم الحرمان ، أن تغلق الكنائس ، وأن يصمت الأعيان . ومع ذلك فقد احتفل بتنصيب أول ولد جاء من هذا الزواج — وهو فرديناند الذى لقب فيما بعد بالقدس — فى كنيسة ليون الكبرى فى احتفال باذخ ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وبعد أن أعقبه ابن وبنات أخر ، احتفل برلمان ليون (الكورتيس) بإعلان فرديناند الولد البكر وليا للعهد فى سنة ١٢٠٤ م . وبعد ذلك ارتضت برنجاريا الطلاق تحقيقا لكينة الملكة وسلامها ، وتنازلت عن المطالبة برد المهر ، وعادت إلى أبيها فى قشتالة ؛ وعلى أثر ذلك ، أمر البابا بإلغاء قرار الحرمان بواسطة الأساقفة القشتاليين ، وأن يرفع الحظر عن ملكي ليون ، وأن يُمنح مع ذلك بشرعية الأولاد ، واستحقاقهم للميراث .

وما كاد السلام يهدى مع البابا حتى اضطرت نيران الحرب على أشدها بين البيتين الملكيين اللذين تصافيا من قبل ، أعنى بين قشتالة وليون ، وذلك من جراء فسخ هذا الزواج ؛ وكان ملك قشتالة يصبر على وجوب رد الأماكن التى وهبها لابنته ممرآ زواجها ، وكان البابا يؤيد هذا الطلب . على أن الأقوال وحدها لم تكن تكفى لتسوية هذا النزاع ، وكان الشعب منذ بعيد يتوقع جزما اضطرام الخصومة بين الملكيتين ، وكانت جمهرة المؤمنين ترى طائفة من الظواهر والأحداث المزعومة ، وتتخذها علامة على اقتراب زمن لا بد أن تسيل فيه الدماء ؛ وقد صحت نبوءتهم ؛ فان حربا طاحنة دامت عدة أعوام خربت قشتالة وليون ؛ ولم تغلج جهود البابا فى تهدئة الخواطر المضطربة ، وردت اقتراحاته فى سبيل الصلح باذراء ، إذ كان المفروض أنه هو السبب الوحيد فى إثارة هذا النزاع .

ولكنهم أصغوا إلى صوت السلام والوساطة حينما نظم الموحدون أهبانهم
الضخمة للاستفادة من هذا النزاع وإخضاع اسبانيا النصرانية ؛ وكان لابد من
عود النصارى إلى الاتحاد حتى لا تسقط اسبانيا غنيمة في يد المسلمين . وهنا فقط
عقد ملكا ليون وقشتالة الصلح ، وارتضى القونسو ملك ليون أن يعطى زوجته
الملكة برنجاريا الأماكن المتنازع عليها ما دامت مقيمة لدى أبيها في قشتالة ،
ومكذا أنقذ ملك ليون على الأقل شرفه بهذا التصرف النهم .

الفصل الثاني

موقعة ناقاس دى تولوزا

أو موقعة العقاب

لما توفى بمغوب المنصور ، ولّى العرش ولده الذى اختاره من قبل لولاية مهدد :
وكان محمد الملقب بأبى عبد الله الناصر لدين الله ، فى أطيب سنى عمره ، حينما خلف
أباه فى الحكم ؛ وكان حسن القامة ، نحيفاً ، أبيض ، أشهل العينين ، كثيف
الحاجبين ، طويل الأهداب ، كبير الأنحية ؛ وكانت نظراته تشع ذكاء وتفكيراً^(١)
بيد أنه بالرغم من كفايته وثقافته لم يكن يحسن اختيار وزرائه وقادته ، فكان
كثيراً ما يمهّد بأهم شؤون الدولة إلى رجال عاجزين ، يولهم كل ثقته .

وقد اضطر فى بداية حكمه — مثل جميع أسلافه — أن يميل على إخماد ثورات
عديدة نشبت أولاً فى جبال غصارة ؛ وما كادت تتمد حتى نلتها ثورات قام بها
خصوم ظن الموحدون أنهم سحقهم نهائياً . وكان هؤلاء هم الرابطين . وكانوا
بعد انهيارهم التام فى المغرب والأندلس ، قد لقوا فى الجزائر الشرفية (جزائر
البليار) ملاذاً أخيراً ، وأقاموا بها حكومة منهم ، ثم انضوا بعد ذلك تحت لواء
محمد بن سعد بن مردنيش أمير بفسية ، وأخيراً اعترفوا مختارين بحكم الموحدين
وذلك منذ سنة ١١٧٣ م (٥٦٧ هـ) بيد أنهم عملوا فى الخفاء على استدعاء أنصارهم
تباعاً إلى ميورقة . ولما شغل محمد الناصر بإخماد ثورة نشبت بالقرب من فاس ،

(١) روى القزطاسى ص ١٥٣ والراكمى ص ١٧٥ .

رأى الرابطلون الفرصة سانحة ليحربوا طالهم في الحرب مرة أخرى ، وحاولوا أن يجذبوا البربر إلى جانبهم ، وسرعان ما يسأم البربر كل حكم . ونهض الرابطلون بزعماءهم يحيى بن إسحاق الميوري ، وهو من عقب يوسف بن تاشفين ، وساروا في السفن من ميورقة إلى إفريقية واستولوا على عدة مدن في أحواز قرطاجنة القديمة (تونس) ، وهرعت إلى جانبهم جموع كبيرة من البربر ، واضطر محمد الناصر أن يجمع جميع قواته ليحول دون تقدم الثوار ؛ ذلك أن زعيم الثوار كان قائدًا عظيمًا وافر الخبرة بفنون الحرب . يئس أن الرابطين لم يوقفوا مع ذلك إلى استرداد سلطانهم ، وكان نجمهم قد أفل نهائياً ؛ وكانت ثورتهم آخر مجهود لحزب نهض للمرة الأخيرة ، ثم انهار بعد هزأته التوالية لكي لا ينهض بعد ؛ وألقى الرابطلون ملاذاً أخيراً في أسوار المدينة ، الواقعة على الشاطئ نجاء صقلية ، ولكن المدينة اضطرت — بالرغم من مناعها وبسالة يحيى بن إسحاق في الدفاع عنها — أن تدمر أمام هجمات الموحدين المنيفة ، وقد سلطوا عليها من آلات الحصار والمنجنيقات ما لم ير من قبل ضخامة وإحكامها ، وأخذوا يرمونها كل يوم بمئات من الأحجار الكبيرة والكرات الحديدية ، ويدكون بذلك أسوارها دكا . وعفا محمد الناصر عن أهل المدينة وعن يحيى الميوري عفو السكرام ، بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع وسلموا إليه المدينة ، وذلك في سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٥ م) (١) ..

ولكن تسامح سلطان الموحدين لم يكن له من أثر إلا أن يشجع الرابطين على الثورة من جديد ، فلم تمض ثلاثة أعوام حتى تزعم يحيى بن إسحاق جموع الثوار مرة أخرى ، وقد قويت بانضمام عدد كبير من الناقين من قبيلة زناتة إليها . ولكن الرابطين هزموا للمرة الثانية في موقعة دمومة ، وكاد أن يسحق جيشهم من آخره ، وفر يحيى ناجياً بنفسه . ورأى الناصر أن يعمل على استئصال شأفة هذا الحزب نهائياً ، فأمر بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، حيث كان عبد الله أخو يحيى بن إسحاق يتولى الحكم . وزلت قوات الموحدين في الجزيرة

بالرغم من مقاومة الرابطين المنيفة ، وحاصرت عاصمة الجزيرة واستولت عليها
عنوة ، وأسر عبد الله واحتز رأسه ، وأرسل عنطا إلى مراكش ، وعلقت جثته
على بعض جدران المدينة . ولم تبد الجزيرة ثل الصنير ثل منورقة وبابسة أية معارضة ،
بل خضعتا للفاتحين (سنة ٦٠٤ هـ - ١٢٠٨ م) . وهكذا انتهت الانتقاض
الآخيرة لسيادة الرابطين .

وعندئذ فقط استطاع سلطان الموحدين أن يوجه عنايته إلى شبه الجزيرة
الأيبانية لكي يرفع فيها راية الإسلام على النصرانية ؛ وبعد أن أقام في مختلف
المدن المغربية أبنية عظيمة نغمة يخلد بها ذكره ، اعتزم أن يزد مجد أسلافه بأعمال
الحرب الضخمة في شبه الجزيرة .

ولم يكن القشتاليون الظمأى إلى الحرب يستطيعون البقاء دون حرب ؛ فبعد
أن قاموا بمعاونة الفرنسيين على محاربة الإنجليز في « جويان » ، في حرب قليلة
الأهمية (سنة ١٢٠٤م) ، وبعد أن عقدوا الصلح مع جيرانهم النمصارى ، ولا سيما
بتدخل البابا ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثبيل يتأهب لمحاربة المسلمين بكل ماله
من قوى ، وكانوا قد ركنوا إلى السكينة منذ وفاة يعقوب المنصور .

وبعد أن حصن ألفونسو قلعة « مورا » الواقعة على الحدود تحميها قويا
(سنة ١٢٠٩م) سار في جيش من القشتاليين وفارسان قلعة رباح إلى الأندلس ،
فانقصف الحقل ، ونهب القرى ، وقتل السكان ، وسبي منهم جموعا كبيرة . ثم
عاد إلى قشتالة ، ولقي ملكي نافارا وأراجون ، ووثق متهما بهود الصلح ، وحصل
منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المدو المشترك ، واعتزم
بعد ذلك أن يميل نحو وصمة هزيمة الأوك بإحراز نصر باهر على الموحدين . وفي
العام التالى سار مرة أخرى إلى الأندلس ، وخرب أراضي جيلان وبباسة
واندوجار ، ووصل إلى أحواز مرسية ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالنفائهم .

ولما وقف محمد الناصر على اعتداء النمصارى التكرار على الأندلس ، أعلن
الجهاد ، مؤملا أن يستطيع بواسطة القوات الضخمة التى يرسلها من المغرب إلى

اسبانيا أن يفتح الممالك النصرانية بلا مرأه ؟ وحشدت في جنوبي الجزيرة خمسة جيوش ضخمة ، يتكون أولها من القبائل البربرية ، والثاني من الجنود المغربية ، والثالث من الجنود الأندلسية ، والرابع من الجنود الموحدة أو الجنود النظامية التي تحشد وفقاً لنظام عسكري معين ؟ ويتكون الخامس من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة وبضم وحده مائة وستين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة . وإذا لم يكن في وسعنا أن نأخذ بالتقديرات المفرقة التي تقدمها الرواية العربية — إذ هي تقدم إلينا أرقاماً تخرج عن طور العقول — فإنه من الممكن أن يقدر الجيش الذي حشده محمد الناصر لهاربة اسبانيا النصرانية بنحو نصف مليون مقاتل^(١) . وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧ (أوائل مايو سنة ١٢١١) جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس وتزل في جزيرة طريف ، ثم غادرها بعد أيام فلالث إلى إشبيلية .

ولكن محمد ارتكب خطأ فادحاً إذ أرسل خيرة جنده إلى حصن سربطره^(٢) الجبل النيع ، وأهلك بذلك قواتهم ؟ ولبت الجيش أسم هذا الحصن ثمانية أشهر ، وهو محتنع عليه . وأمر محمد نزولا على نصح حاجبه أبي سعيد بن جامع — وكان الموحدون يشكون في صدق نيأه ، ولكن محمداً يضع فيه كل ثقته — على ألا يتقدم قبل الاستيلاء على الحصن . وهكذا استمر الحصار طول الصيف حتى دخل الشتاء ؛ وعانى الجأرة في هذه الجبال الوعرة من فسوة الفئس ما لا يحصى ، وأودى المرض بحياة آلاف منهم ، وأخذت وسائل تموين هذا الجيش الضخم تصب يوماً فيوماً . وأرسل ألفونسو ملك قشتالة ولده فرديناند على رأس جيش نفذ إلى ولاية استرامادوره محاولاً أن يرغم الموحدين على رفع الحصار ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، ونجح الملك بفقه ولده الذي أودت بصحته وحياته مشاق الحرب ؛ وقيل في بعض الروايات إنه توفي مسجوماً بيد يهود مجر بط . وسقطت قلعة سربطره أخيراً بفعل الجوع في يد الموحدين ، ولكن مقاومتها

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

(٢) سربطره أو سربطره كما في ابن خلدون ج ٦ (ص ٢٤٩) وبالأفريقية Salatierra .

الطويلة الباسلة كانت سبباً في إنتقاذ اسبانيا النصرانية^(١) .

وكان ملك قشتالة قد أرسل جرهاارد أسقف سفوية إلى البابا أنوسان الثالث ليرجوه أن يرسل الميمنة إلى أمم أوروبا النصرانية ، لكي تنظم حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس ؛ وأرسل رددريك مطران طليطلة (رددريك الطليطلي) — وهو المؤرخ الشهير الذي دون تاريخ وطنه — وعدة آخر من الأجداد ، إلى فرنسا وإلى الأمم الواقعة في شرقها ، لينثروا بذلائقهم حاسة الشعوب النصرانية من البرنيه إلى البحر الأسود ، لكي تسام في كفاح الصليب المقدس .

وفي الوقت الذي كان فيه البابا ومطران طليطلة يعملان للحصول على معاونة أوروبا النصرانية ضد المسلمين ، كان ألفونسو النبيل يملج لجمع كلمة الملوك الأسبان ضد الموحدين ؛ ودعا في سبيل هذه الغاية إلى مؤتمر عقد في قوته ، ولم يشهده — إلى جانب ألفونسو — سوى بيدرو الثاني ملك أراجون ، ولكن شهده مندوبون من قبل باقي الملوك النصارى ، ووعدوا بتقديم المون من جند ومال . وهكذا انقضى عام ١٢١١ م في القيام بأهبات عظيمة لتتأبى الحرب ؛ وقبل انتهاء الشتاء اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتالة التي اتخذت مكاناً لاجتماع الجند قوات عظيمة ؛ وفي أوائل العام عاد المطران رددريك وسعه جمع غفير من الفرنسيين ؛ وتلا ذلك أن اجتمعت وفود مدن اسبانية كثيرة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وأسائذة فرسان قلعة رباح ، وشفن باغب ، والاستبارية والداوية ، ورؤساؤهم وإخوانهم المهابيون ؛ واجتمع القوامس والفرسان القشتاليون إلى الملك ألفونسو النبيل في أكل هيئة وسلاح ، إظهاراً لمكانتهم وإرهاياً لمدوم ؛ وكان القوامس من أسرة لارا يمتازون بالشجاعة والفروسية والثنى ؛ ويمتاز السكونت ديجو لوبيز ، ولوبي دياز دي هارو بالنظنة والبراعة في القتال ؛ وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميز راميريز ، وفرسان شفن باغب بيدرو آرياس ؛ ويرأس الاستبارية ولد جوتيرو هيرمنجلد ؛ وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن

(١) راجع في حوادث هذا الحصار روض القرطاس من ١٠٦ و ١٠٧ .

المختلفة ، وقد تولوا الاتفاق على حشدهم ؛ وأرسلت المجالس البلدية رجالها الصالحين للقتال مجهزين بالخيول والسلاح ، وأحمال الثؤن ، ليستطيعوا إمداد المحتاجين من قاضل علمهم .

ومع أنه وقعت على اسبانيا جوع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلبين الصلبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين هدا ؛ وقدم جيوم أسقف بوردو ، وأسقف نانت وغيرهما من الأعيان الفرنسيين في جماعة باسلة من الفرسان ، وجيش كبير من المشاة من ولايات جويان ولينوج وساتونج وبري وبواتو وانجو وبريتانيا ؛ وقاد أرنولد مطران أربونة خصم الألبين العنيد^(١) جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية ، بضطرم شغفاً للقاء المسلمين . ووفق أرنولد إل ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقتة وخرافته ملك نافارا — بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة — أولاً على أن يؤيد قضية اسبانيا بالمال والجند ، ثم بالأخص على التمهيد بأن يسير في فرسانه ، وأن يشترك بنفسه في القتال .

وفي شهر مايو ، اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمساواة اسبانيا ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشيتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان وحلة الحراب ، وخمسين ألفاً من المشاة ، أو بعبارة أخرى اجتمع من هؤلاء جيش يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل . وكانت في الطريق قوات أخرى لم تصل إلا فيما بعد . وفي أول يونيه ، في يوم عيد التثليث ، قدم بيدرو الثاني ملك أراجون في جيشه الضخم ، واستقبله ملك قشتالة بمنتهى الحفاوة ؛ وكان يصحبه في هذه الحملة معظم الأسماء التابسين ومشاهير الفرسان ، وطائفة كبيرة من فرسان الداوية ، وقد كانت لهم في أراجون أملاك شاسعة . وأخيراً قدمت الأمداد من ليون وجليقية والبرتغال ؛ وكانت القوات البرتغالية تتألف من

(١) الألبينون Albigences هم فرقة من الملاحمة ظهرت في جنوبي فرنسا في أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألي » مركزهم ومنها اشتقوا اسمهم ، وشهروا على الكتلكة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة . واستمروا يبنون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سبون دي موشور في أوائل القرن الثانى عشر عليهم حرباً صليبية ، أشتهت بتذريق شملهم .

عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين يقودهم أمير يرتأى هو بيدرو ثالث أبناء الملك سانشو الأول ؛ وكانت القوات الليونية بقيادة سانشو فرنانديز أخى ملك ليون ؛ ولم يحضر ملك ليون بنفسه إذ قامت بينه وبين ملك قشتالة خصومة جديدة من أجل بعض أماكُن على الحدود . أما ملك ناغارا فلم يكن استكمل أهبته بعد ، وكان قدومه منتظراً .

وكانت طلبيلة وأحوازها تقدم يومئذ منظرأً بفيض حركة وحياة ، وكانت جموع المحاربين من الكتلة بحيث تغدو أن تضمهم المدينة جميعاً ، واضطرت ألوف كثيرة منهم أن تقبى فى الخيام خارج المدينة ، فى الحدائق الملكية والحقول ، وكانوا مزيجاً من الأزياء والسلاح ، والمعدات واللغات . وكان من الصعب أن يسود النظام والسلام بين هاته الشعوب الثبائية . وكان ملك قشتالة قد أعد كيانات عظيمة من المؤن ، بحيث أمكن بالرغم من كثرة الجوع أن نمون كلها دون نقص ، وقدم الملك ألفونسو إلى جموع الوافدين الخيام والأطعمة ، والتحليل ، وكل ما يحتاج إليه ؛ ومع ذلك فإنها لم تهجم من فطف ثمار أشجار الفاكهة فى أحواز المدينة وإثلافها ، وقطع أخشاب السكروم والأشجار لحرقتها واستعملها فى إنضاج الطعام . واقتربت بهذه القوضى التى سادت جميع الوافدين أموراً خطيرة ؛ من ذلك أنها بدأت فى مطاردة يهود طلبيلة ، وبذل ألفونسو مجهوداً عثيفاً لكي يحول دون قتلهم جملة ، ومع ذلك فقد قتل كثيرون منهم فى بداية هذا الانفجار .

وليس أدل على الأهمية التى كان يملقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، من اشتراك الجموع فيها بصورة فعلية ، وكون آلاف منهم كانوا يتقلدون الصليب ؛ كذلك لا ريب فى أن مقادير عظيمة من المال والبلاط والمؤن أرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا . وكان ذلك مما مكن الملك ألفونسو النبيل من أن يعد جيش الوافدين الذى بلغ فى أوائل يونيه سنة ١٢١٢ م أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من المشاة ، فضلاً عن المؤن ، برواتب مالية ، قدرها عشرون شتاً للفارس ، وخمسة شلنات لكل محارب من المشاة ،

هذا عدا ما كان يقدمه من الهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء .

وفي رومة أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكتفاء بالخبز والماء التماساً لانتصار الجيوش النصرانية ؛ وأقيمت الصلوات العامة ، وحمد رجال الدين والرهبان والراهبين إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى . وألقى البابا نفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الاسبانيين .

ولما غشت طليطلة وأحوازها بجموع المحاربين ، واستراحوا من وعناء السفر ، تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء العدو في ٢٠ يونيو سنة ١٢١٢ م ونظمت القوات في ثلاثة جيوش ، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن ؛ وسار في الطليعة جيش الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف محارب على الأقل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ؛ وكان تحت إمرة القائد القشتالي ديجو لوبيز دى هارو ، ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة ومطران بوردو ، وأسقف نانت ، وعدو من القواسم من غربي فرنسا وجنوبها . وكان يقود الجيش الثاني الملك بيدور الثاني ، وهو مؤلف فقط من الأراجونيين والقطلونيين ، وفرسان الداوية . أما الجيش الثالث وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، ويتألف من جنود قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وسنت ياقب والاسبثارية ، فكان يقوده ملك قشتالة ، ويقود وحداته كبير أساتذة جميعات الفرسان ، والأمير الليوني سانشو فرنانديز ، والأمير البرتغالي بيدرو ، ووردريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة آخر . وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة .

وفي اليوم الخامس من بدء السير من طليطلة ، في الرابع والعشرين من يونيو هاجم المحاربون الوافدون حصن مجلون وقتلوا جميع من فيه ؛ ولكن المؤن أخذت في النقص . وأخذت حرارة الجو ترهقهم ، فبدأ كأن حماسهم خبت على أثر هذا الجمهود الأول . ووفقهم كثير منهم في العود إلى الوطن ، وكان ملك قشتالة أول من

تقدم إلى مجلون في اليوم التالي ، فهدأ روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع أن يقنعهم بالسير معه إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الوجودين ؛ ولحق النصارى في عبور نهر وادي يانه الذي تقع عليه المدينة صعباً قاذحاً ، إذ كان المسلمون قد شروا على جناحيه الصنائير والخوازيق الحديدية ؛ وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جوانبها الثلاثة النيمة ، حتى سقطت المدينة في أيديهم ، ولكن القلعة كانت محمية بالأبراج العالية والأسوار النيمة ، وكان يخشى أن تقتضى حصاراً طويلاً . وأبدى ملك أراجون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفضح الخسائر .

وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة ، عقد مجلس حربى للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها ، وأن يبدأ بالسير نواحيها المدو (المسلمين) ، وكان يربط على مسيرة خمسة أيام ، في نهاية مقاطعة « مانشا » ، بين جيان وقرطبة . ولكن غلب الرأي بوجود مهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوى أموالاً طائلة ، وكميات عظيمة من المؤن ، التي بدأ النصارى يشمرون بنفصها . وما كاد المسلمون يقفون على نية عدوهم ، حتى بحث قائد الوجودين^(١) ، سرا ونحت جنح الليل ، رسولاً إلى ملك قشتالة ، يمدّه بتحفة عظيمة وتسلم القلعة إذا سمح للحامية أن تتسحب بسلاحها ؛ وكان ملك قشتالة يعيل إلى إجابة هذا الطلب لكي يستولى على القلعة بسرعة ؛ ولكن الأراجونيين والمحاربين الوافدين أبوا الإصغاء إلى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية . بيد أنه لا أبدى المسلمون عزمهم على المقاومة بأقصى ما يستطيع ، وافق النصارى أخيراً على أن تتسحب الحامية دون سلاحها . وهذا أبدى الأسماء الأسباب تفرقتهم في فهم الحق ومبادئ القروسة على إخوانهم في الدين من أبناء أمم الذرب الأخرى . ذلك أنه بالرغم مما حصل عليه المسلمون في قلعة رباح من حق الانسحاب آمنين على أنفسهم ، أراد المحاربون الوافدون أن يفتكوا بالمسلمين

(١) كان هذا القائد هو أبو الحجاج يوسف بن قلاس ، وكان من مشايخ الجند ؛ وقد فصل صاحب روض القرطاس موقفه وسعيه لإنقاذ المسلمين (ص ١٠٧) .

عند انسحابهم . ولكن ألفونسو ويبيدرو والفرسان الأسبان أعلنوا بقوة وحماة أنهم لا يسمحون بمثل هذا التكت ، وتولوا حماية المسلمين من كل أذى حتى اجتمعوا آمنين . ووجد ألفونسو في قلعة رباح كليات عظيمة من المون قسمها بالنصف بين المحاربين الوافدين ، وبين الأرجونيين ، ولم يحتفظ منها — فيما قال — لنفسه أو لجنده بشيء ؛ ولكن المحاربين الوافدين اعتقدوا فيما يبدو أن ملك قشتالة قد استأثر لنفسه بجميع التحف والتفائس . وسلمت قلعة رباح نفسها إلى جمية الفرسان التي تسمت باسمها ، والتي ملكتها من قبل . وألقي الاستيلاء على قلعة رباح بذور الشقاق في الجيش النصراني . ذلك أن المحاربين الوافدين ، أسخطهم أن تنجو الحامية من بطشهم ، وحقدوا على ألفونسو لأنه فيما اعتقدوا حرصهم من الفتناء المنشودة ، وأبوا — بحجة عدم احتياهم لجو اسبانيا الحار — أن يتأبوا الحرب من أجل الملكة الأسبانية قاتلين لإنهم وفروا بهدم في مقاتلة المسلمين بما خاضوا من معارك أمام أسوار مجلون وقلعة رباح ؛ وأيدم مطران بورديو أعظم أعيانهم ، في غضبهم وفي قرارهم ، ونمسكوا برأيهم بالرغم من كل رجاء وانقضاء ووعود ؛ وفي الحال بدأوا السير مائدين إلى أوطانهم ، ولم ير الأسبان باعثا لهذا الرحيل الفجائي لأولئك المحاربين التحمسين من أجل الصليب سوى الحنين القاهر إلى الوطن ، أو وسوسة الشيطان . وقد وقع افتراقهم عن الجيش الأسباني على مقربة من جيش الأعداء (المسلمين) ، الذي كانت تعد المدة لها جنته ، وأغضوا عن قضية دينهم وعن شرفهم ، لإرضاء لشهوتهم في الانتقام من ملك قشتالة ، الذي بالغ في الإساءة إليهم فيما زعموا ؛ ولم يبق من أولئك المحاربين سوى أرنولد أسقف أربونة والكونت تيوبالد بلاسكون ، وهو أسباني الولد ، وكانا قد أتيا إلى اسبانيا منحو مائة وخمسين فارسا من لانجدوك وبواتو ، وغادر الباقيون وهم زهاء خمسين ألف مقاتل الجيش الأسباني سوب جبال البرنيه ، غاضبين حاقدين ، وخشى الأسبان عواقب اعتدائهم ونهبهم ، فأغلقوا في وجهم جميع المدن . ومع أن رحيل هذا العدد الجلم في تلك الآونة كان شديد الوقع على التصاري

الأسبان ، فإنهم لم يفقدوا مع ذلك شجاعتهم ، بل ساروا إلى لقاء العدو بزم أقوى ، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذى لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمة الشنعاء ، وما حدث عندئذ من مقدم سانشو ملك نافارا ، وقد سد الفراغ الذى أحدثه الراحلون بفروسانه ، وهم بالرغم من قلة عددهم ، أشد براعة وإقداما .

وعلى أثر ذلك سار الملوك الثلاثة التحالفون إلى مدينة سرطارة ، وهى القلعة التى افتتحها سلطان المرابطين فى العام السابق بعد حصار طويل . وعرض الملك هنا جيشاً لم يخرج اسبانيا النصرانية مثله من قبل ؛ بيد أنهم لم يقفوا بسربطرة لمناعتها واتقاء الحصار لا طائل منه ، واخترقوا فى الثانى عشر من يونيو هر مورادال فى جبال سيارا مورينا (جبل الثارات) لى يلقوا العدو فى فاحيتها الأخرى .

وكان محمد الناصر قد عمل إلى ذلك الحين على اجتناب المعركة بالرغم من كثرة جموعه خشية بأس المحاربين الصليبيين فى الجيش الاسبانى . ذلك لأن نهرة الفرسان الفرنج كانت قد سارت من المشرق إلى المغرب ، ولكنه لما وقف على رجيل أولئك المحاربين ، أخذ يسعى إلى لقاء العدو ، مؤملاً أن ينزل بالنصارى الأسبان هزيمة كالتى أنزلها بهم أبوه فى موقعة الأرك . وكان يحز فى نفسه فقد ذلعة رياح ؛ وبالرغم من أن حاكمها ابن قادس بذل كل ما يستطيع للدفاع عنها ، فإن الناصر اعتقد فيها بظهور ، أنه قصر فى هذا الواجب ؛ ولذا ما كاد ابن قادس يصل مع الناجين من جنود الحامية إلى المعسكر ، حتى أسر الناصر بقتله جهاراً نزولاً على نصيح وزيره أبى سعيد بن جلع ، وكان رجلاً كثير الدس ينفذ كل الرغبات الوحدين والأندلسيين ؛ وكان لقتله أثر سيء فى الجيش كله ، ولا سيما بين جنود الأندلس ، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير القسيم .

وعلى أثر سقوط قلعة رياح ، غادر محمد الناصر مع جيشه الرئيسى مدينة جيان ، وسار إلى سفة نهر الوادى الكبير الذى نحو بياسة ، واحتلت سرديات من

خيرة جنده ممرات جبل الشارات (سيارامورينا) المؤدية إلى أبدة وبياسة . ومع ذلك فقد استطاع النصارى بعد أن تقذوا إلى عمر مورادال أن ينتزعوا بعد معركة عنيفة قلعة فيرال الواقعة في قمة الجبل ، وكان الموحدون قد قصرُوا في شحنها بالمدد الكافي من الجند . ولكن النصارى لم يفتنموا بأخذها كثيراً ؛ ذلك لأنه لم يكن في استطاعتهم نظراً لانعدام المياه في تلك المفاوز الشاقة ، أن يطيلوا المكث بها دون التعرض لأعظم الأخطار ؛ هذا إلى أنهم لم يروا سبيلاً للاستيلاء على الممرات الجبلية التي شحنت بالرجال ورتب الدفاع منها أعظم ترتيب . وكان المسلمون عند ما رأوا تمذر الدفاع عن الآكام المرتفعة ، قد احتلوا بخيرة جندهم الممر الذي يفضى من أعلى الجبل إلى سهل تولوزا . وقد أكد ألفونسو ملك قشتالة في رسائله إلى البابا أنوسان الثالث ، أنه يستحيل على قوى العالم كلها أن تخترق هذا الممر إذا تولى الدفاع عنه ألف مقاتل فقط . ففي ذلك المأزق الخطر ، كان يتمذر القيام بأية خطوة أخرى ، وكان يبدو أن خير ما يمكن عمله ، أو بالحرى أن المخرج الوحيد الممكن لاتقاء الهلاك من الجوع والمرض في ذلك الجبل الوعر هو الارتداد ومحاولة دخول الأندلس من طريق آخر . وبينما كان ملك قشتالة يصر على رفض أية حركة ارتداد — لأنه كان يأبى أن ينسب النصر إلى الأعداء في حين أنه لم يشترك معهم بعد — إذ تقدم راجع من رعاة هذا السكان ، ووعد بإرشاد الجيش إلى طريق يقع في مرتفع آخر ويمكن سلوكه دون أن يفتن العدو ، وينحدر الجيش منه إلى سهل أبدة دون أن يتمكن العدو من إعاقته . ولما تحقق الملوك — بإرسال القائد المجرى ديجو لوبيز دى هارو لمائة الطريق — من صحة هذه الرواية ، أمرُوا في نفس اليوم (يوم السبت ١٤ يولييه) برحيل الجيش ؛ وسار النصارى بإرشاد الراعى ، الذي اعتبر عندئذ متقذاً أرسل من عند الله ، فاحتلوا المرتفع المذكور ، وكان به بسيط شاسع يصلح لنزول الجيش ، وحصنوا المكان ، وبقي الملوك في مكانهم مع القوات الاحتياطية إخفاء لحركة الجيش عن المسلمين ؛ ثم غادروا في النهاية قلعة فيرال فاحتلها المسلمون على الأثر ، معتقدين أن النصارى قد ركنوا إلى الفرار .

ولكن سرعان ما وقف المسلمون على مكان عدوهم الجديد ؛ وبالرغم من المزايا التي حصل عليها النصارى باحتلال هذا المكان ، فإن سلطان الموحدين ، واثقا من تفوق قواته ، دعاهم إلى القتال في نفس اليوم ؛ ولكن اللوك الأسبان لم يقبلوا هذه الدعوة ، إذ كان جيشهم منهوك القوى من أثر السير إلى مكانه الجديد ، ولم يكن قد تم تحصين المعسكر .

وفي اليوم التالي نظم محمد الناصر جيشه لخوض المعركة ، ولكن اللوك النصارى آثروا الاعتصام بموقعهم النجى ، ولم يسمحوا إلا ليمض الفرسان البواسل بالالتحام مع العدو في مبارزات ثنائية . ولم يرد النصارى أن يكبدوا سفو الأحاد بأعمال الحرب الدموية ، بل أرجأوها إلى اليوم التالي . ولم يكن من الميسر أن تؤجل المعركة بعد ؛ إذ بدأت الؤن في النقص واضطروا إلى مراعاة أشد الاقتصاد في الماء . ووقف الناصر على أحوال المعسكر النمراني من بعض الخوذة ، وأخذ يفاخر بأنه لن تمضي ثلاثة أيام أخرى حتى يقع اللوك الثلاثة المحصورون في الرمي وجيوشهم أسرى في يديه .

وبعد أن مكف الجند النصارى على الصلاة والدعاء وناقوا البركة لخوض المعركة ، والنفران البابوي العام على يد الأساففة ، رتب اللوك الأسبان في الصباح الباكر ، من يوم ١٦ يولييه جندهم لخوض المعركة على النحو الآتي ، وقد رابط البعض على سفح الجبل ، والبعض فوق الرمي : زعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش ، مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربعة فرق ، تتألف الأولى من سكان الجبال القشتالية ويقودها ديجو لويز ؛ وتتألف الثانية من فرسان قلعة رباح وشف ياقب والاستبارية والقناوية وبعض جند الحدود القشتالية ، ويقودها الكونت جوزالو فونيز دي لارا ؛ والثالثة تتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشتوريش وبسكوينه ويقودها الكونت رودريك دياز كامبروس ؛ وتتألف الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطالة وبعض قوات ليون ، ويقودها الملك نفسه ؛ وكان يرافق القوات الاحتياطية ، فضلا عن العاران

ردريك الطليطلي مؤرخ هذه الواقعة ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم .
وكان يقود الجناح الأيمن سانتو ملك نافارا الباسل ، مؤلفاً من فرسانه ومن
جند سُرّيا وآبلّة وسقوية ومدينة سالم ، وكذلك من الفرسان الفرنسيين الذين أتى
بهم أرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي .
أما الجناح الأيسر فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق ؛ ويتألف كله من قوات
أراجون ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين ، ويقوده الملك بيدرو ومن حوله
الأحبار والمعلماء والأراجونيون .

وقسم محمد الناصر الذي يربط بقواته نجاء النصارى في سهل تولوزا ، جيشه
وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق . وكانت الفرقة الأمامية تتألف من
المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم للجهاد أو الموت في سبيل
الإسلام ، وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل . واصطفت القوات
الأندلسية في الميمنة والقبائل البربرية في اليسرة . وأما القلب والقوات الاحتياطية
فكانت تتألف من صفوة الجيش من الجند المغاربة والنظاميين ، أو بمباراة أخرى
من الجند الموحدين . وضرب محمد الناصر قبته الفخمة الحمراء ، في وسط الصفوف
وارتبط أمامها جواده السرج ؛ وقعد في داخلها على درقته ، إذباناً باقتراب المركة ؛
واحتاط بالقبّة حرس الأمير مشاة وفرساناً ، من الموحدين والمبيد ؛ وشهر الجند
في أنحاء المدو حراهم فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ؛ ومدت في الوقت
نفسه حول القبّة نصف دائرة من السلاسل الحديدية القوية ، حتى أصبح سلطان
المسلمين وكأنه يجلس في حصن منيع . وكان يوسع النصارى أن يروا من الرب
المالية جموع المسلمين التي لا تحصى ، وقبة سلطان الموحدين الحمراء ، وأن يميزوا
ما حولها من الجموع .

ولما تمت أهبت المركة خرج سلطان الموحدين من قبته ، وهو يرتدى
عباءة حرب سوداء . من مخلفات جده عبد المؤمن ، وقد رضع الصحف باحدى
يديه ، وشهر سيفه بالأخرى ، وأعطى إشارة القتال والهجوم ، بينما كان قرع

الطبول الضخمة يدوى بشدة في جميع الأنحاء .

وما كادت جموع التطوعة من جانب المسلمين تلتقي بمجنود الجبال القشتاليين وجموع الفرسان من جانب النصارى ، ويشتبك الفريقان في معركة حامية ، ويتحرك الجناحان في كل من الجيشين تجاه بعضهما حتى غدت المركبة عامة . وكان هجوم التطوعة المسلمين شديداً في البداية ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف الفرسان القشتاليين ؛ ذلك أن هؤلاء كانت تؤيدهم جماعات الفرسان الدينية ، فاستطاعوا أن يردوا جموع المدو وأن يمزقوها ، واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل دينهم . ولكن القشتاليين حيناً عمسوا إلى مطاردة التطوعة المسلمين ، وتقدموا بذلك ظافرين ، من قلب الجيش الإسلامى حيث حشدت صفوة الجند ؛ لقوا أشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا إلى مفادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارين وتابعهم الفرسان القشتاليون في فرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المركبة على هذا النحو السيئ ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية ، وأن يفتح الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ؛ وكانت كلماته التي قالها لطران طليطلة وهي « إن الساعة قد حانت لتلقى الموت المجيد » تدل على أنه لم يكن يؤمل النصر بعد . ولكن اعتراضات الطران والقوامس ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار . وأرسلت في الوقت نفسه قوات من أشجع الجنود لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأخبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة ، وهم يرضون أعلاما عليها صورة المسيح والمفرأ ، ويشيرون بذلك أعظم الحماسة في نفوس الجند .

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجليليون فرصة تقدم الأمداد الجديدة ، ليلوا شتمهم وينظموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامى حيث كان محمد الناصر وحرسه . وفي الوقت الذى صوبوا فيه هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التى

احتشمت من ورائها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين الحراب ، كان جناح الجيش الاسلامي قد حطأ ؛ ذلك أنه سرعان ما بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الاسلامي ، ولم يصمد في القتال ، سوى جند الموحدين النظاميين والحرس من السود والتارية ، فقد لبثوا من وراء السلاسل يقاومون النصارى ، ويحاولون انتزاع النصر منهم ؛ ولبثوا من وراء هذا المقل الصناعي يردون الهجمات التي يصوبها النصارى إليهم من كل صوب بشجاعة وجلد لا مثيل لها ؛ ولكن الفرسان النصارى ضاعفوا جهودهم لتعطيم الدائرة الحديدية ، ووثب الكونت القارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين وفي يده العلم الملكي ، فانتهم الدائرة غير مبال بالحراب الصوبة أمامها ؛ واقتحمها في الوقت نفسه المكان سانشو وييدرو من الجانبين المتقابلين ، ونفذ إلى قلب الجيش الاسلامي ، بعد أن مزق الجوع التي نصبت لها .

ولما حطمت الدائرة الدفاعية غدا نصر النصارى تاما حاسما . وكانت هزيمة المسلمين فادحة . ولبت محمد الناصر بذكى حماسة حرسه حتى آخر لحظة ؛ ولما رأى الهزيمة حلت بجميشه ، ووقف على موت ولده الأكبر الذي قتل في المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال ، لم يردفيا يبدو أن يعيش بعد ، فقمع في خيمته على درفته ، والمدو الظافر يدنو منه . فأقبل إليه أعراحي ، ونبأ بفرار جنده ، وناشده ألا يقمع بعد ، فقال محمد « صدق الرحمن وكذب الشيطان » ؛ ثم امتطى صهوة جواده أخيراً ، وفادد ميدان الحرب مسرعا مع نفر من أصدقائه المخلصين ، وأنجه صوب بياسة ، ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها نوا إلى إشبيلية .

وتعرف هذه الموقعة التي أحرز فيها النصارى هذا النصر الباهر ، وكانت ضربة قاضية لسيادة الإفريقيين في اسبانيا ، في الرواية الاسبانية بموقعة نافاس دى تولوزا Navas di Toloza أو موقعة أبده ؛ ولكنها تعرف في الرواية الاسلامية بموقعة العقاب^(١) ، ويضع المؤرخون المسلمون تاريخها في يوم ١٥ صفر

(١) : ينسج المؤلف في سياق حديثه عن الموقعة رواية ابن أبي زرع في دروس الفراس =

سنة ٦٠٩ هـ ، الموافق ١٦ يولييه سنة ١٢١٢ م ، ويعتبرونه من أسود أيام تاريخهم ؛ وينسبون الهزيمة من بعض الوجوه إلى غطسة ملكهم ، إذ وضع كل ثقته في مئات ألوف الجند ، وفي دوابهم ، وفي مقدرة قواده ، وقد بذلك عون الباري جل وعلا ؛ وبرمون من جهة أخرى الأندلسيين بالجبن والحياة إذ ركنوا إلى الفرار بعد مباركة قصيرة . أما النصاري فينسبون نصرهم على عدو يفوقهم ضعفين في العدد إلى عون الله ، الذي هي لهم بما عمدوا إليه قبل الموقعة من الصلاة والابتهال ؛ ولذا فانهم لم ينسوا أن يقدموا شكرهم إلى الله في حفلة قداس نظمتها الأخبار والأسراء في ميدان الحرب ، ورتلت فيها أناشيد الشكر والعرفان .

وإذا قارنا الروايات العربية والنصرانية ، وجدناها تتفق جيداً ، في أن عدد القتلى من المسلمين كان عظيماً جداً ؛ بل نجد المؤرخين المسلمين خلافاً لعادتهم يصورون هزيمتهم بأعظم مما بقدر الأسباب خسائر أعدائهم . ولما كان الملوك الأسبان قد أنفدوا بالوت كل اسباني بأسر مسلحاً ، فقد هلك من المسلمين أثناء الفرار أكثر مما هلك في الموقعة ذاتها . ذلك أن الأسبان لبثوا مدى أربع ساعات يطاردون أعداءهم الفارين يقتلون كل من ظفروا به . وتقول الروايات العربية إنه لم ينبج من الجيش الإسلامي وقوامه ستمائة ألف مقاتل سوى مائة ألف ، وهو قول يحمل طابع المبالغة^(١) . ويقدم إلينا ثلاثة شهود عيان هم الملك ألفونسو ، ومطران طليطلة وأربونة عن خيثر المسلمين أرقاً أقل ؛ فيقدروا رددريك الطليطلي بمائتي ألف ، والملك ألفونسو بمائة وخمسة وعشرين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة (وذلك وفقاً لأقوال بعض حشم السلطان محمد الدين أمروا فيما بعد) ، قتل منهم

(١) (ص ١٥٧ وما بعدها) وتعرف الموقعة في معظم الروايات الإسلامية ، بموقعة القباب ، وتسمى في روض القرباس أيضاً بمحصن القبان (ص ١٥٨) ، ويضع ابن خلدون تاريخها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (ج ٦ ص ٢٤٩) راجع أيضاً المراكشي ص ١٨٣ ، والحلل اللوشية ص ١٢٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٩٣ ،

(١) راجع روض القرباس ص ١٥٩ ، والحلل اللوشية ص ١٢٢ والمراكشي

أثناء الموقعة نحو مائة ألف فقط ، وهلك القعيم الأعظم أثناء الفرار . ويقدر
الطران أن نوله خسائر المسلمين خلال الموقعة بستين ألفاً فقط ، ويقول إنه من
الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من ذلك أثناء الفرار . وقدرت الأميرة
القشتالية برنجاريا في خطابها إلى أخيها الملك بلانكا ملكة فرنسا ، قتل المسلمين
بخمسة وعشرين ألفاً منهم خمسة عشر ألف امرأة قتلن بعد الموقعة . بيد أن الروايات
النصرانية الوثيقة تجمع على أن خسائر النصارى كانت طفيفة جداً ، وتقدم إلينا
أرقاماً لا يمكن تصورها . ذلك أن الملك ألفونسو والطران رديك يؤكدان أنه
لم يقتل من جانب النصارى سوى خمسة وعشرين ، ويقدر طران أربونة خسائر
النصارى بخمسين ، وتقدرهم برنجاريا بمائتين . وتقول الملكة بلانكا في رسالتها
إلى أميرة شيبانيا أن قتل النصارى بلغت أربعين في المجمة الأولى . ولكن من
الواضح أنه حين المارك الأولى في بدء الموقعة حينما ارتد القشتاليون والفرسان
أمام الموحدين بخسائر كبيرة ، لا بد أن يكون عدد القتلى من النصارى كبيراً ،
ويقدم إلينا الراهب البريكوس الذي عاش قريباً من الموقعة ووصى أخبارها أحسن
تفسير لهذا الرقم الضئيل لقتل النصارى ، فيقول إنه هلك في الموقعة من المسلمين
مائة ألف ، ولكن هلك من النصارى في نفس الوقت عدد كبير ، وإنه حينما
انتهت الموقعة بالنصر ، لم يهلك من النصارى في مطاردة المسلمين سوى نحو
ثلاثين مقاتلاً .

وظفر الأسبان في معسكر المسلمين بنفائهم لا تفقد ، من الذهب والفضة ،
وخبين الثياب ، والأقمشة الحريرية ، والبسط ، والآنية الثمينة ، والنقود . ولم يمد
إلى النهب سوى المشاة وقسم من الفرسان الأرجونيين ، بينما شغل باقي الفرسان
بالقضاء على فلول الجيش المهزم . ودعش الظافرون لما لقوا من دواب الجمل والمؤن ،
ووجدوا من السهام وحراب الرى والرمح في ميدان القتال وفي المعسكر كيات
عظيمة جعلوا وقودهم منها أياماً ولم يأتوا مع ذلك على نصفها ، وذكر أحد الماسرين
أن ثقلها كان يقتضى آلافاً من دواب الجمل .

وقد أشارت النسخة المطبوعة من الرواية الأسبانية العامة التي تحمل اسم ألفونسو الحكيم ، والتي تفيض بالقصص الجغرافية ، إلى الموقعة بإيجاز ، ولكنها تزعم أنه حدث قبيل الموقعة بقليل أن ظهر في السماء صليب كبير شديد اللمعان بشيراً بالنصر المحقق . بيد أن هذه المعجزة لم يرد ذكرها في رواية الطرايين اللذين شهدا الموقعة ولا في رواية الملك ألفونسو ؛ بل لم يرد ذكرها في النسخ الخطية الوثيقة للرواية الأسبانية العامة ، فن الدهش إذاً أن نرى كثيراً من المؤرخين الأسبان يرددون ذكر هذه المعجزة ، ويمتقدون في صحتها ؛ وهذا مما لا يشفع فيه أنها كانت تذكر في العصر القديم ، في القديس الذي يقد في ١٦ يولييه من كل عام في طليطلة ، باسم « ظفر الصليب » .

وكان من آثار هذا النصر العظيم أن استطاع النصارى بسهولة أن يفتحوا عقب الموقعة بأيام قلائل عدة حصون مثل فرال ، وبلقس وبانيوس وتولوزا وبياسة . ولم يكن في سياسة سوى المرضى والضمايف ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش . وكان هؤلاء التمساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ، ينتظرون مصيرهم جزعين ؛ فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جيماً بالسيف ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى . بل ذهب النصارى الذين أعنتهم نشوة الظفر في قسوتهم وبعثتهم إلى أسفل درك حينما هاجوا مدينة أبده التي اعتصم بأسوارها القوية بمض فلول الجيش المهزم وسكانها المزل ؛ وكان المسلمون يأملون نظراً لناعمة المدينة الطليبية والحربية أن يردوا هجرات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء ، ونظم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً مائماً خسروا فيه كثيراً من القتلى ، ولم يسفر من أي نجاح ؛ لولا أن استطاع الأرجونيون أن يسلقوا الأسوار في أضنف نقطة فيها ، وأن يحتلوها . ولكن القلعة وباقى أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان ؛ وعندئذ رأى الملوك والقواميس أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضته المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرجونيين قد خشوا العاقبة ،

وأرسلوا إلى الملوك النصارى بمرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب (دينار) على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم ؛ وهكذا قبل المرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صعاب في افتتاحها . ولكن الأحبار الظمئين إلى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد ولا شرط ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد القطوع ، متحلين لذلك عذراً ، هو أن المسلمين بعد أن فتحو أبواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الفدية المفروضة عليهم في الحال ؛ وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء النكودين ؛ فقتل من المسلمين في أبده زهاء ستين ألفاً ، وسبي مثل هذا القدر ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته .

وانساق النصارى بعد أخذ أبده إلى اللهو والإغراق ، وهما قرينا حسن الطالع والسمة ، حتى استنفدت المژن بسرعة ، وشعروا بنقص شديد في الحاجات الضرورية ؛ ثم دبت إليهم الأمراض وأهلكتهم ألوفاً ، فاضطر الجيش أن يمود أدراجهم إلى قلعة دباح ، دون أن يتابع نصره بعد ؛ وهناك التقوا بالدوق ليوبولد النمساوي ، الذي قدم للمون في كتيبة من الجند ، فشكروه على حسن اهتمامه ؛ ولما علم أن الحرب قد انتهت عاد مع قريبه الملك بيدرو إلى أراجون . ودخل السكان الآخرون طليطة في حفل نغم ، وساروا في موكب لا نهاية له من الأمراء والأحبار والجند وأفراد الشعب ، إلى كنيسة المسدراء حيث أقيمت صلوات الشكر على ما أوتوا من النصر ، وتقرو تخليداً لهذه الموقعة المظفرة أن يحتفل في السادس عشر من يولييه كل عام في طليطة ، ثم في قشتالة كما فيها بعد ، باقامة حفل عظيم للشكر يسمى « بظفر الصليب » ، وأرسلت إلى البابا طائفة من الهدايا النفيسة منها خيمة حريرية ، وطبق كبير من الذهب ، وعلم محلي بالذهب ، وعرضت هذه الهدايا في كنيسة القديس بطرس تذكراً للنصر .

الفصل الثالث

بيدرو الثانى ملك أراجون

نحدثنا فيما تقدم عن القسط الذى قام به بيدرو فى محاربة المسلمين فى شبه الجزيرة ، ولا سيما عما قام به فى موقعة المقات ، وكذلك عن تحالفه مع قشتالة ضد ليون ونافارا ، ونقتصر هنا على التحدث عنه فيما يتعلق بتاريخ أراجون وحدها . خلف بيدرو الثانى ، وهو فى الثامنة والعشرين ، فى الحكم أباه ألفونسو ، فى ١٦ مايو سنة ١١٩٦ ؛ والظاهر أن أمه الملكة سانشا حاولت أن تنهز فرصة حداثة فتنازعه الحكم ولقب الملك . ذلك أنه لم يضع يده على الملكة ، ولم يتلقب باللقاب الملك الا بعد ذلك ، فى المجلس الذى عقد فى دروقة فى ١٣ سبتمبر سنة ١١٩٦ بموافقة العليقات الثلاث والملكة الأرملة ؛ وفيه جددت أيضاً جميع القوانين والحريات التى صدرت عن ألفونسو الأول ، وراميرو الثانى ، وريموند برنجار الرابع ، وصودق عليها .

وما كاد بيدرو يلى الحكم حتى عمد إلى العمل على تأييد سلطة العرش ضد أتباعه الأقوياء من البارونات ، وهم عقب الفاتحين الأوائل ، فاسترد الوظائف العليا والإقطاعات التى كانت تتوارثها الأسر الكبيرة وفقاً للتقاليد ، ممتداً فى ذلك على حقوق العرش ، وذلك لى يوزعها من جديد وفق رأيه وتقديره . بيد أنه رأى انشاء لما يشيره ذلك من سخط الأشراف أن يترك لهم الأراضى المقطوعة وما يتعلق بها من حقوق القضاء الأدنى لتبقى لهم بطريق التوارث ؛ وذلك بشروط خاصة تتعلق بالإخلاص للعرش ومعاونة الجيش وغيرها . أما السلطة القضائية

فتمود إلى الملك : وقد قام الملك يومئذ بتوزيع خيماة وسبعين خيمة إقطاعية من سبماته توزيعاً جديداً ، ولكن المرجح أن أحبابها لم يدعنوا جميعاً لهذا التغيير . أما القضاة فكان يمينهم الملك ، إما لأجل مدين أو لدى الحياة ؛ وكان يختارهم من أكابر الأشراف (البارونات) Ricos أو يختارهم من بين صغار الناس ، أعني من بين الفرسان Cavalleros بيد أنه كان يختارهم في الغالب من بين هؤلاء ؛ وكان يمين دأماً فارساً في منصب قاضي القضاة لكي يحمد من نفوذ البارونات القوي جداً شديداً . وقد كان هذا فيما يبدو منشأ القضاء الأرجوني ، الذي علا سلطانه فيما بعد على سلطان الملك ذاته . وكان القاضي الأكبر ، أو قاضي القضاة ، في عصر بيدرو الثاني الذي يعتبر مؤسس هذه السلطة القضائية ، يعتبر أعظم سلطة في الدولة ، لا بالنسبة للرعية فيما بينهم فقط ، ولكن أيضاً فيما يتعلق بمنازعات الرعية ضد العرش . وكان عليه أن يحمي حقوق الحكومة ، وأن يمثل — باعتباره كبير القضاة — شخص الملك . كما أن عليه أن يحمي حقوق الأشراف والرعية من أطماع الملك ؛ وكان يتوقف على براعة الإدارة الحكومية ما إذا كانت هذه السلطة القضائية العليا يمكن أن تمل لتوطيد السلطة الملوكية وتقويتها أم لا ، وقد كانت في الحالة الأخيرة تنتزع من السلطة الملوكية أهم امتيازاتها .

وقد فقدت الالفثا عشرة أسرة من البارونات — وهي التي كانت حتى عصر بيدرو الثاني تقبض في أراجون على معظم الأراضي والغلات ، وتسيطر على الجيش والفرسان ، عدا السلطة القضائية ، في ظل بيدرو الثاني — امتيازها في الافراد بتكوين طبقة الأشراف . ورفع بيدرو بعض موطى البلاط ، والفرسان الذين يصطفهم ، إلى طبقة الأشراف العليا ، وأقطعهم جزءاً من الأراضي والغلات ؛ فاستطاعوا بذلك أن يقتدوا بالبارونات في استئجار الفرسان ، وأطلق عليهم أيضاً لقب البارونات Ricos ، بيد أنه كان يطلق عليهم بارونات البلاط أو البارونات الملكيون de Mesnada تمييزاً لهم من البارونات بالولد . وكان هذا تقليداً للنظام القوطي في تقسيم الأشراف إلى قسمين يطلق عليهما Gardingi و Palatini ؛

والأولون هم الذين يستطيعون وفقاً لمولدهم وحقوقهم أن يملكوا الأرض ،
والآخرون هم الذين يتولون الوظائف ويملكون الأرض بمنحة من الملك .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت الأمة في أراجون وفي معظم الممالك النصرانية
الأسبانية تقسم من حيث التمتع بالحرية إلى سبع طبقات ، أو بالجرى إلى سبعة
دروع على مثل ما كانت عليه في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ؛ والدروع الأول يحمله
الملك ، لأنه ليس مسئولاً أمام أحد ، والثاني يحمله أكابر الأخبار ، والثالث
البارونات بالمولد ، لأنهم لا يستلون إلا أمام الملك فقط ؛ والرابع البارونات
المسكيون ، إذ هم عرضة للمسئولية أمام البارونات بالمولد ، وإن كانوا مثلهم في
حق التمتع بامتلاك الأرض . ومن هذه الطبقات الأربع تتألف طبقة الأشراف
العليا . والطبقة الخامسة هم حملة الأعلام الأحرار الذين لا يؤدون جزية ما ،
والسادسة تتألف من الفرسان ، وهم الذين يقطعهم البارونات من الصنفين ؛
والطبقة السابعة والأخيرة تتألف من باقي الأحرار ، وعامة سكان المدن الأحرار
الذين ولدوا في ظل الزونج .

وكانت مملكة أراجون قد نقصت مساحتها على أثر وفاة ألفونسو الثاني ،
وذلك نظراً لاقطاع ولاية بروغانس منها وإعطائها لأخي بيدرو الأصغر ألفونسو ،
ولكن حدودها أصلحت بذلك ، وتخلصت من تلك المقاطعة النائية التي كانت
ترغم دائماً على حمايتها بالسيف من عدوان جيرانها الطامعين . بيد أن علائق
الآخوين بقيت وثيقة ؛ ولما هاجم ألفونسو أمير (كونت) بروغانس ، السكونت
دى فور كالكيه وحلفاؤه ، خف بيدرو إلى إيجاد أخيه في جيش ضخم ، وارتاع
العداء ، فادعوا إلى طلب الصلح ، وعقد الصلح بين الفريقين في سنة ١٢٠٢ م .
وعلى أثر ذلك عقد بيدرو قرانه بماري ابنة الكونت جيوم الثامن صاحب
مونبلييه ، ووارثته بمذوقته في ١٢٠٢ م ؛ وكانت هذه الأميرة قد اقترنت من
قبل بالسكونت برنار دى كومنجن ، وطلقت منه بمحجة القرابة ؛ وفي يونيو سنة
١٢٠٤ ، احتفل ملك أراجون بزواجه بماري ، وتمهد بالألا يتصرف في شيء من

أراضيها الموروثة ، كما تمهد لسان مونبليه القدين وافقوا على هذا الزواج بمحايينهم وتركهم أحراراً في التمتع بمآداهم وتقاليدهم .

وبعد أن انتهى بيدرو من تنظيم شؤون مملكته الداخلية ، بمقد المجالس النيابية ، وأخذ المنازعات الداخلية ، وعمل على الحد من غطرسة الأشراف ، وعقد الصلح مع أمه سانشا ، وكانت ذات صلة وثيقة بكثير من الأشراف التابيين ، وكانت تؤلف حزباً لناوأة العرش ، فكر في أن التناج الأرجونى قد يكسب كثيراً من القدس والاعتبار إذا تسلمه من يدرجل من رجال الدين ؛ وكان بيدرو يشغف بمظاهر البذخ والبهاء ؛ بيد أن ذلك لم يكن وحده هو الباعث على ما اعتزمه من أن يتوج في رومه ؛ ولكنه كان يمول بالأخص على أن مثل هذا التتويج يدهض دعوى الأشراف الأرجونيين في أنهم أصحاب الحق في منح التاج ، وبفضي نهائياً على دعاوى ملوك قشتالة ، الذين كانت لهم السلطة العليا على أراجون حتى سنة ١١٧٧ م . وعلى ذلك فقد سافر بيدرو في حاشية كبيرة من الأشراف القطلونيين والبروفنسيين ورجال الدين ، إلى مرسيليا ثم إلى جنوه ؛ ثم غادر وحاشيته جنوه في خمس سفن بحجة السفر إلى بيزا ليمقد معها حلفاء لفزو الجزائر الشرقية (البليار) ، ولكنه لم يقف في بيزا بل رسا عند مصب نهر التيبر في ٨ نوفمبر بسنة ١٢٠٤ ؛ وكان البابا أنوسان الثالث قد رتب كل شيء للاحتفال باستقباله في رومه .

وفي اليوم الثالث من مقدم بيدرو ، في يوم القديس مارتن ، خرج البابا والكرادلة في جمع حافل من رجال الدين والأشراف والشمب إلى دير « بنكراتيوس » وهناك بارك أسقف أوستيا ملك أراجون أمام الجمع الجائسد ؛ ثم وضع البابا التاج على رأسه ، وقدم إليه شارات الملك . وعلى أثر ذلك أتى الملك القسم الآتى : « أنا بطرس (بيدرو) ملك أراجون أقسم وأتمهد ، بأن أكون دائماً مخلصاً ومطيعاً لسيدي البابا أنوسان وخلفائه ، وأن تكون مملكتي على مثل هذا الإخلاص والطاعة ، وأن أحافظ على دين الكاثوليكية وأقم كل ضروب الإصلاح ،

وأن أحمى حريات الكنيسة وحقوقها ، وأن أعمل على تحقيق العدالة والسلام في جميع أراضي المملكة ؛ كان الله والإنجيل في عونى » .

وبعدئذ سار بيدرو في ثيابه اللوكية بجانب البابا إلى كنيسة القديس بطرس ؛ ووضع على ميكها التاج والصولجان ، وضأ إلى أنه يقدم مملكته إلى القديس بطرس ، وهنا قدم إليه البابا السيف ، دلالة على أنه برد إليه المملكة مع خضوعه لأداء الجزية ؛ ووضع بيدرو على الميكل وثيقة ، يقدم فيها مملكته إلى كرسي القديس بطرس ، ويتمهد هو وخلفاؤه بأن يؤدي إليه جزية سنوية قدرها ستون قطعة من الذهب ، ويتمثلب نظير ذلك حماية البابا وتمضيده .

وصدر قرار بابوى يحدد رسوم التتويج للوك أراجون وملكانها ؛ وملخصه أنه يجب أن يجرى التتويج في سرفسطة على يد مطران طور كونه بسم البابا ، وذلك بعد أن يطلب الملك الإذن بذلك إلى صاحب السيادة عليه في رومة .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته ، أبدى البارونات والفرسان تذمر من خضوعه لأداء الجزية للكرسي البابوى ، وحاول الملك أن يهدى خواطرم بتأكيده أنه تنازل من حقوقه هو ولم يفرط في شيء من حقوقهم ، بيد أنهم رأوا في هذا التصرف انتشاكاً على حقوقهم خصوصاً عند اختيار الملك في حالة انعدام الواث الباشر ، ورأوا أنه يحمل المملكة فروضاً جديدة لا تعود عليها بأية فائدة . وكذلك رأوا أن هذه الخطوة من جانب بيدرو في تحرير السلطة اللوكية من نفوذهم تقضى على كثير من ضروب تدخلهم في حقوق المرش . ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يخضع بيدرو الطموح مختاراً لأداء الجزية دون أن يحقق من وراء ذلك منافع خاصة ؛ وقد كان أهون عليه أن يرتضى الخضوع الأسمى للبابا البعيد ، من أن يرفم على الخضوع لصولة الأشراف الأقربين .

على أن بيدرو لم يحفل لسخط الأمراء التابمين ، يدل على ذلك ما عمد إليه في العام التالى من اتخاذ إجراءات كان من المحقق أن تزيد في هذا السخط ؛ ذلك أنه لا كان مثل كثير من أسلافه ، قد تبدت زولات المرش وموارد الدولة بالافتقار

على الكنائس والأديار ، والمبالغة في البذخ والإسراف ، فقد رأى نفسه مضطرا للقيام بأعبائه الكبيرة ، إلى فرض ضريبة جديدة . وكانت موارد الميراث قد أتفق معظمها في هبات إلى رجال الدين وجماعات الفرسان ؛ ولم يبق من الميراث أن تسد الضريبة العادية كثيراً من المطالب نظراً لأن جميع الأعيان والأشراف والقادة كانوا ينفون من أدائها ، وكانت تبقى منها كذلك مدن بأسرها مثل سرقسطة . ففي نوفمبر سنة ١٢٠٥ ، أصدر بيدرو مرسوم ملكيا بفرض ضريبة جديدة عرفت باسم Monedaje ، وبمقتضاها يجب على جميع الأشراف الأكابر منهم والأساغر ، وكذلك الرعايا الأحرار في المدن ، أن يؤدوا عن جميع الثروات المقاربة والنقولة ، اثنتي عشرة فلماً من كل ما قيمته جنيه . ولم يستثن رؤساء الجند — الذين كانوا ينفون دائماً من الضرائب — من أدائها ، إلا إذا التحقوا بهيئة الفرسان . وقد كان هؤلاء يخدمون في الجيش باستمرار ، وعليهم أثناء الحرب — فضلاً عن الاتفاق على أنفسهم — أن يتحملوا نفقات إنشاء الطرق وأسوار الحصون والأبواب والقناطر وغيرها ، ولهذا كان من الإجحاف أن يعامل هؤلاء مثل غيرهم في شأن الضرائب .

وما كاد بيدرو يصدر قراره بتلك الضريبة الجائرة ، حتى قامت ضده جميع طبقات الشعب ؛ واتحد البارونات والفرسان ، أعني أكابر الأشراف وأساغرهم — وقد كانت مصالحهم تتعارض دائماً — على مقاومة الضريبة الجديدة ، بقوام المشتركة ؛ وحذت حذوهم مدينة سرقسطة التي اتحدت مع المدن الأخرى في تنفيذ هذه الخطة ؛ واضطر الملك إزاء ذلك إلى تخفيض الضريبة الجديدة ، ولكنه لم يسحب قراره بشأنها ، وهكذا كانت هذه الضريبة ، أحياناً ممتدة وأحياناً جائرة وفقاً للظروف والأحوال .

وليس أدل على ما كان بشريه بيدرو من حاجة إلى المال أحياناً ، من أنه أثناء محاربه لسانشو السابع ملك نافارا (سنة ١٢٠٩) اضطر بالرغم من سير الحرب في صالحه أن يقدّمه الصلح ، نظير حصوله على عشرين ألف قطعة من

الذهب ، وأنه في الحرب التي شهرها على المسلمين ، والتي انتهت بهزيمتهم في أبدة لم يكن يستطيع القيام بها ، لو لم يأذن له البابا في الحصول على قسط من إيراد كنائس الملكة للاتفاق عليها . وقد سفت في ذلك الحين في قطلونيسة ضريبة أخرى ، فرض أداؤها على كل من يملك ثورين ، وما لبثت أن فرضت في أرجاء الملكة كلها .

ولما انتهى ييدرو من الحرب في أبدة (سنة ١٢١٢م) ، استطاع لأول مرة أن يوجه كل عنايته إلى أملاكه فيها وراء البرنيه . وكانت حروب الألبين قد أثارت في هذه المنطقة اضطرابات عظيمة . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن قيام فرقة « الثلدين » الممثلة ^(١) وانتشارها في تلك الأنحاء ، ويمكن أن نقول إن المجلس الكنسي الذي عقد في « لومبر » في سنة ١١٦٥م ، قد قضى باللعنة على سكان لانجيدوك الثأرين ، الذين عرفوا فيما بعد ذلك بالاجتهاد والسكينة . لكن لم يوجد في ذلك الحين من بضائع بتنفيذ هذا الحكم ، ولم يرغب ملكا إنسكاترا وفرنسا في إجراء هذه الطاردة المنيفة ضد الملاحدة بالسيف . بيد أنه أصدرت اللجنة البابوية في سنة ١١٧٨م ، حكمها ضد إقليم « ألبى » كله ، محمد الكونت روجيه الثاني صاحب بزيه وفرقشونة وألبى ورازبه ، وهو من أتباع الكونت دى تولوز وسلك أراجون إلى الدفاع عن مطالبه ؛ فاضطر البابا عندئذ إلى أن يصدر ضد الكونت قرار الحرمان الكنسي ، وأن يرسل إليه حملة صليبية ولكنه لم يسمع من وراء ذلك شيئا ؛ والظاهر أن ألفونسو الثاني ملك أراجون لم يكن يرى في هذه الفلافل الالحادية ، سوى وسيلة لتوطيد هيئته في لانجيدوك ضد الكونت دى تولوز ، ولهذا كان يمتنع كل ما يمكن أن يشير ضده سكان هذه الأنحاء ؛ ولم يكن مع ذلك ينجأى للملاحدة ، ولكنه كان من جهة أخرى يقاوم كل إجراء عنيف يحاول وكلاء الكرسي البابوى القيام به ويجعله عبثا ، وذلك

(١) م فرقة من الملاحدة مثل الألبين ، أنشأها بطرس فاليس Peter Waldes وهو كاهن من ليون ، في سنة ١١٧٦م ، وقد انتشرت في بروغانس ولومبارديا وشمال اسبانيا .

بالتخلي عن محابهم ؛ على أن ابنه وخلفه بيدرو الثانى كان فى ذلك أشد وطأة ؛ ذلك أنه ما كاد يرقى العرش ، حتى أصدر عدة قرارات ضد الملاحدة الذين حرمتهم الكنيسة ، وأمرهم بمغادرة أراضيه ، وإلا كان نصيب المخالفين نزع أملاكهم وإعدامهم حرقاً . ولما زار بيدرو لانبجودوك فى سنة ١٢٠٣ م ، معترفاً السفر إلى رومة ليتوج هناك ، أبدى ميلاً إلى التدخل بحزم فى شأن هذه الفلاقل الالحادية ، وحرضه بالأخص بعض الأساقفة الأسبان والقسيس دومنيك على أن يستأصل شأفة الالحاد فى الحال بانتار والسيف ؛ ولما زار قرقشونة ، حيث اعتنق جميع السكان تقريباً مبادئ « القلديين » ، استدعى بعض القلدين أمام مندوب البابا ليشرحوا مذهبهم ، وليحكم بنفسه على ما إذا كانت مبادئهم تخالف الدين . وقد اقتنع الملك بأن مبادئهم تخالف تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وأن التهم التى يرمون بها كانت صحيحة عادلة ؛ وفى حفلة تتويجية فى رومة ، تمهد بيدرو بالأبدخى وسماً فى مطاردتهم وسحقهم . على أنه لم يتمكن من تحقيق خطته ، نظراً لما نشب بينه وبين سكان مونبلييه من منازعات ، ولما اضطر إليه من تخصيص جميع عنايته لمقاومة الأشراف الثائرين فى أراجون ؛ هذا إلى ما كان يراه من أن محاربة المسلمين كانت أهم وأجدى .

أما عداوته للقلدين ، فتبدو واضحة فى أنه حينما أرسل البابا أنوسان حملة صليبية ضد الكونت ديمون روجيه صاحب بزيه ، والتمس الكونت إلى بيدرو معاونته بوصفه تابلاً له ، أبى بيدرو ، وخربت بزيه وقتل أهلها سواء كانوا ملاحدة أو مؤمنين ؛ وأقنعت أربونة نفسها بالمبادرة إلى الخضوع ؛ وأما قرقشونة التى تولى الكونت بنفسه الدفاع عنها ، فقد أرغمت — بعد أن رفض بيدرو الشفاعة المنشودة فى شأنها — على التسليم من أثر الجوع ؛ وأسر الكونت ، ولبت طويلاً فى الأسر ، ثم قتل بطريقة لا نعرفها ؛ ومنح المندوب البابوى أملاك الكونت الأسير إلى الكونت سيمون دى مونفور دون أن يستأذن فى ذلك صاحب الجزية . وغضب ملك أراجون من ذلك أيما غضب ، وأبى إقرار هذا التصرف ،

وشجع فرسان الولاية على الثورة ضد سيمون بأن وعدم بالتأييد والمون . بيد أنه كان من صفات بيدرو أن لا يثبت في تصرفاته على حال ، ولا يثق بمهوده ووعوده . ذلك أنه ما لبث أن نزل على رغبات البابا ، لكي يحصل بذلك على طلاق زوجه النبيلة ماري دي مونبليه ، وصادق على تعيين سيمون دي مونفور أميراً (كورتاً) لقرقشونة ، أملاً في تحقيق هذا الطلاق . وفي سنة ١٢١١ م ، تلقى ملك أراجون عهد الطاعة من الكونت ، ووعده فوق ذلك بتزويج ابنه « جاجم » أو يعقوب من بنت الكونت ، وأرسل ابنه الطفل مع الكونت ليتربى في بلاط قرقشونة ، عربوناً للوفاء بهذا الوعد .

بيد أنه ما كاد يرضى البابا ، ومطارد الألبين (يريد الكونت دي مونفور) بهذا التساهل ، حتى عاد فأغضبهما ، بتحالفه الوثيق مع الكونت ريمون دي تولوز الذي كان المندوب البابوي وسيمون دي مونفور يعملان لاغتصاب ولايته ، يرأى الكونت ريمون أن يعمل على اجتناب ذلك ، فتنازل عن الولاية لابنه الذي زوجه ملك أراجون بأخته سانشا . ولما عهد سيمون دي مونفور إلى حصار تولوز ، رد عنها بخسارة . ولكن سيمون الذي ساء بيراخته الحربية ما لبث أن استرد طامه ، وعاد — ضد إرادة البابا — يتابع بنفسه فتوحاته في أراضي الكونت دي تولوز ؛ وعندئذ حاول صهره بيدرو أن يسمي لدى البابا بكل ما وسع لعقد الصلح بين الفريقين ؛ فمول البابا على عقد مؤتمر اجتمع في مدينة آرل في سنة ١٢١١ م ، تحت رئاسة المندوب البابوي ؛ وشهد ملك أراجون والكونت دي تولوز . ولكن طلبت إليهما شروط مهينة ففادرا المدينة آسفين ؛ وأصدر المؤتمر قراره ضد الأضعف أي الكونت دي تولوز ، بالحرمان الكنسي ، ووافق البابا على هذا القرار ؛ وتولى الكونت سيمون دي مونفور تنفيذ هذا القرار بنجاح خصوصاً وأن ملك أراجون كان مشغولاً في ذلك الوقت بحاربة المسلمين في موقعة العقاب .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته وعلم بما أصاب الكونت دي تولوز

الكونت دى فوا والكونت دى كومينج من الشدة على يد الحملة الصليبية ،
حول على التدخل لدى البابا من أجل أصدقائه مهة أخرى . ولكن كل ما استطاع
الوصول إليه هو أن المسألة كلها بحثت في مؤتمر جديد عقد في « لافور » ، وحال
فيه عنت النندوين البابويين وتمصهم دون الوصول إلى أية تسوية ، ورفضت فيه
أعدل المطالب بإياه مثير ، بل لم يبلغ فيه التماس الكونتات إلى البابا .

فمنذئذ استشاط ييدرو لذلك غضباً ، واعتزم أن يساعد الكونتات الطاردين
وأن يحميهم بكل ما وسع ، وأن ينزل ميدان الحرب ضد خصومهم جهاراً ؛
ووجه نفقته بادي دى بدء إلى تأييد الكونت سيمون دى مونفور أداة العنف
البابوى ، ودعاه إلى النزاع ، وأعلن بطلان حق الجزية الذى منحه إياه ؛ فحاول
الكونت فى البداية أن يهدى غضب الملك ، ولكنه لما رأى خيبة سماء
نهض لمقاومته مع جميع السادة التايين له وأعلن الحرب ضده جهاراً فى خدمة
الكنيسة . ولم تتم دعوات البابا عندئذ إلى السلم ، ولم يحدث وعيده لييدرو
بالحرمان إذا لم يكف عن حماية الملاحدة أترأ ؛ ذلك أن التمسب والخبث كانا يريمان
بالاحاد عندئذ كل مجاهد ضد العنف والظلم والجنح .

ونزل ييدرو ميدان الحرب فى ربيع سنة ١٢١٣ م إلى جانب الكونت دى
تولوز والكونت دى فوا والكونت دى كومينج ، متمزماً أن يرد عليهم أملاكهم .
ولما وصل إلى قلعة موديه التى تقع على قيد بضع ساعات من تولوز وحاصرها خف
سيمون دى مونفور فى جيشه الصليبي إلى لقائه . ولما كان الحلفاء قد أهلوا احتلال
المضائق الجبلية التى كانت تحول دون تقدم الجيش الصليبي ، فقد استطاع هذا
الجيش أن يمس نهر الجارون وأن ينفذ إلى قلعة موديه المحاصرة ، وأن يدعو ييدرو
إلى خوض المركة فى اليوم التالى ، وهو الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ ، وكان
ملك أراجون فى تصرفه فارساً شجاعاً أكثر منه قائداً حريصاً . ذلك أنه رفض
نصح الكونت دى تولوز الحكيم بأن يترك الهجوم للعدو ، حيث يصبح نصرهم
فى تلك الحالة أسراً محققاً ، وحملته شجاعته وشهوته للحرب أن يستبدل سلاحه

الملكي بسلاح فارس ، وأن يتقدم إلى لقاء العدو في أول صف ؛ على أنه عرف ، بالرغم من تنكره ، ووجه الأعداء المجهوم إليه ؛ ولكن الملك البطل لم يرعه ذلك ولبث يرد الفرسان الذين يتقضون عليه من كل صوب ، حتى سقط صريعاً ؛ وكان موته ضربة شديدة للجيش التحالف الذي كان مؤلفاً بالأخص من الجند المشاة ؛ ومع أنه لم يشترك في الموقعة بعد — إذ الواقع أن بيدرو كان يقاتل في نفر من الفرسان ، فرسان الصليبيين بقيادة الكونت سيمون — فإنه لم يلبث أن ركن إلى الفرار بلا انتظام وقد سرى إليه الروح ، وحلت به الهزيمة الساحقة ؛ وزعم خصومه بذلك أن نصرهم كان ممجزة ، إذ قالوا إنهم استطاعوا بألف وخمسة مائة مقاتل — هم الفرسان الذين اشتبكوا مع فرسان بيدرو — أن يهزموا جيشاً من مائة ألف .

وقد اشتهر بيدرو حتى بين خصومه بالفروسة والشجاعة ؛ وكان يدعمهما ما يتمتع به من قوام ضخيم ، وقوة جسمية نادرة . وكانت خلاله مثل مماسره الملك وتشارد الإنكليزي مزيحاً مريباً من المواقف النبيلة والكريمة واللوكية ، مع الصلابة والقسوة والإسراف والتمتلك . وكان شاعراً غنائياً (تروبادور) — وقد انتهت إلينا قصيدة من شعره — ومنشياً للعب ، وحامياً كريماً للنساء ، ولكنه كان في تصرفه نحو الأم والزوج قاسياً متجنياً . وكان كثير التقلب في أهوائه ؛ وقد أراد أن يفصل عن زوجه النبيلة ماري دي مونبلييه التي اشتهرت بالفضيلة والتقى ، والظاهر أن البابا أنوسان الثالث كان يميل في البداية إلى إجابة مطلبه ، ولعل ذلك من باب السياسة حتى يستميل إليه بيدرو ؛ فلما أعلن بيدرو نفسه حامياً ومدافعاً عن الأسراء المطاردين في لانجدوك ، أبى البابا أن يوافق على نصيح الكرادلة أن يمنعه الطلاق المرغوب .

الفصل الرابع

تاريخ مملكة ليون وقشتالة

منذ موقعة العقاب حتى اتحادهما

ما لبثت النزاعات أن ثارت بين ليون وقشتالة عقب موقعة العقاب والنصر على الموحدين ، وأضررت بسير الفتوح ؛ ثم اقتضى الزام الهدنة والقمود عن الحرب لخطأ مروع ، عصف بشبه الجزيرة كلها ، ولا سيما قشتالة ، وقضى الجوع على حياة ألوف عديدة ، واضطر المورسون أنفسهم إلى تناول أغذية كانوا يأفنون منها من قبل ، ومن ثم كان من التمهذ التفكير في تنظيم حملة كبيرة لمقاتلة المسلمين ، وأخفقت الحملات الصغيرة التي نظمت لأن الجيوش كان ينقصها العلمام .

ولم يمض سوى قليل على مقدم ألفونسو النبيل إلى طليطلة عاصمة مملكته ، حتى وصلته الأنباء باعتراف ملك ليون على أراضيه . وكان ملك ليون قد احتل القلاع الواقعة على ضفاف دويرو على حدود المملكتين عقب إخلائها من الجند ، وادعى أن قشتالة انتزعتها ظلماً من ليون ، وشجعه هذا النجاح على إعلان الحرب على ملك البرتغال أيضاً ، وكان قد استولى عنوة على أملاك أخته ؛ وسار ألفونسو ملك ليون من مدينة رديك وجليفية بميشين لمحاربة البرتغاليين ، وهزمهم هزيمة ساحقة في « بورنلا دي باليفر » .

ولم يكن ألفونسو النبيل ملك قشتالة إذاء اضطرام المحسومة بين الأمراء النصاري على هذا النحو ليتوقع نجاحاً في محاربة المسلمين ؛ وكان ألفونسو أقل

هؤلاء الملوك أطعما ، وكان يرجو غلصاً أن يسود السلام بين النصارى ، ولهذا لم يكن يتردد في بذل أية تضحية تقتضيها مصلحة اسبانيا . وقد سعى إلى عقد الصلح بين ليون والبرتغال ، ليستطيع حلها على التماون في حملة مشتركة ضد المسلمين ، وزاد على ذلك أن نبذ كل فكرة في استرداد الأماكن التي انتزعها الليونيون فسراً على حدود مملكته ، ورأى أن يهدم بعض القلاع المجاورة لتأمينها لملك ليون وإزالة لشكوكه ، وفي نظير ذلك زعمه ألفونسو ملك ليون بالماونة في الحملة القادمة ضد الموحدون . ولكن ألفونسو ملك قشتالة نزل وحده إلى ميدان الحرب في أوائل العام التالي في سنة ١٢١٣ م ، ومع أنه افتتح القصر (أو قصر أبي دانس) وتقدم بجيشه من طليطلة إلى بسائط أشبيلية ، فإن الحملة كلها أخفقت لأن الأمداد الليونية والبرتغالية لم تصل به واستطاع المسلمون في أشبيلية أن يردوا فرق النصارى الخفيفة ، وأن يغيروا بإمرة قائدهم على أراضي قشتالة ، بيد أنهم عادوا فارتدوا بسرعة أمام أهل طليطلة .

وفي أواخر هذا العام وفي ألفونسو ملك ليون بمهده ، وسار إلى محاربة المسلمين ؛ وزحف إلى القنطرة تماونه فرقة من الفرسان القشتاليين وافتحمها ، بينما سار ملك قشتالة إلى الأندلس ممولاً أن يلتقى هناك بجيش ليون ؛ ولكنه علم أن ملك ليون يمد أن حاصر « كاسيرس » عيشاً ، ارتد إلى أراضيه ؛ فوجه عندئذ جيشه إلى أشبيلية ، وسار إلى بياسه وحاصرها ثلاثة أشهر دون جدوى . ولكنه اضطر من جراء نقص المؤن ونفشي المرض وشدة الإعياء في جيشه أن يعود أدراجه دون أن يحقق شيئاً يذكر .

والظاهر أن القحط العظيم الذي عصفت باسبانيا يومئذ ، قد أرغم قادة الحرب على أن يلتزموا السكينة حيناً ، فلا يتحدثنا بشيء من أخبار الحرب في أوائل سنة ١٢١٤ م ؛ وفي ذلك الحين سار ألفونسو ملك قشتالة إلى برغش ودعا ألفونسو ملك البرتغال إلى لقائه في « بلازنسيا » على حدود المملكة ، وربما دعى ألفونسو ملك ليون إلى هذا الاجتماع أيضاً . ومن الواضح أن هذا الاجتماع المذكور كان يرى أولاً

إلى توثيق أواصر السلام بين القصور النصرانية المتجاورة المرتبطة بروابط القرى ،
وثانياً إلى تنظيم حملة مشتركة ضد أعداء النصرانية ؛ ولكن حدث أثناء هذه
التدابير أن مرض ملك قشتالة وهو في طريقه إلى بلازسيا ، في قرية على مقربة
من أريبالو . وفي السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ توفي ألفونسو النبيل ، ومن
حوله زوجه الملكة البيثورا وابنته برنجاريا والمطران رديك الطليطلي ؛ وتوفي في
الثامنة والعشرين من عمره ، بعد أن حمل لقب ملك قشتالة أكثر من خمسين عاماً ،
ودفن في دير لاس ولباس في برغنش ؛ ولبت صورة التي ربما رسمها مصور
معاصر ، محفوظة — حصراً — في إحدى كنائس برغنش ؛ وهو يبدو في هذه الصورة
متوسط القد بوجه وسيم بفيض حياة ، ووجهة مستديرة ، وشعر أسود ، وحينين
زرقاوين ، وأنف أنقى . وتجمع الروايات كلها على مديحه ؛ وكان يتقد خماسة لنشر
الدين المسيحي ، ومن ثم كانت غزواته المتوالية ضد المسلمين ، وقد نهي في هذا
السبيل بما لم يضعه أي ملك أسباني آخر في هذا العصر ؛ وكان بذله للكنائس
والأديار ، وعطفه على الفقراء ، وعده الشامل ، وشهامته نحو الأعداء ، وشجاعته
في الحروب ، تكسبه احترام الأعيان والفرسان والشعب ، وكذلك احترام
المسلمين . وقد عمل بالأخص على رفع شأن الطبقة الوسطى لتكون عضداً جديداً
للمرش ضد مطامع أمراء المملكة الأقوياء ؛ وكان نصيراً للفنون والعلوم ، وقد
خلد ذكره بإنشاء أول جامعة نصرانية في اسبانيا ؛ وأنشئت في بالانسيا في سنة
١٢٠٩م ، بناء على اقتراح المطران رديك الطليطلي — وكان مالكا كبيراً قام
بدراسات كثيرة في باريس وإيطاليا — كراسي لدراسة العلوم الدينية والمدنية ،
واستدعى لها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا ، وأجريت عليهم الأرواق السنوية ،
وعُتبت أيضاً رعاية الفنون على يد أقطاب الفن . ونقلت هذه الجامعة النصرانية
الأولى في اسبانيا فيما بعد إلى بلد الوليد ، وليس إلى شلتنقه كما يزعم خطأ بعض
الكتاب المحدثين . وكل ما يأخذه المؤرخون الأسبان على هذا الملك العظيم أنه
كان يشغف بيهودية حسناء شغفاً مبرحاً ، وأنها لبثت سبعة أعوام تسيطر عليه ،

وفي وسعنا أن ندرك لماذا أزم الحبران الماصران ، رديك الطليل ولوركا التليل ، الصمت إزاء هذا الفرام المشين في هذا المصر .

ولم يمش من أبناء ألفونسو الأربعة من بعده سوى أصغرهم هنري الأول ، وكان وقت وفاة أبيه في الماشرة من عمره . وتولت أم الملك القاصر الملكة الينورا الحكم بالوصاية عليه لأيام فلائيل فقط ، ثم لحقت بزوجها إلى القبر في ٣١ أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

وعندئذ تولت الوصاية على الملك أخته برنجاريا ، وهي مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ؛ وكانت كبرى بنات ألفونسو النبيل ، وقد جعلها أبوها الملك في وصيته واثرة العرش إذا توفي أخوها وعاشت من بعده ؛ أما أخواتها الأصغر منها فكن ، أوراكا زوجة ألفونسو الثاني ملك البرتغال ، وبلانكا زوجة لويس الثامن ملك فرنسا ، والينورا التي تزوجت فيما بعد من يمهوب (جاييم) ملك أراجون . وأثار تولي برنجاريا للوصاية أيماء قلق ؛ ذلك أن الكبراء القشتاليين الطامعين كانوا يكرهون أن يرى ملكهم المستقبل على يد امرأة ، ويكرهون من جهة أخرى أن تبقى الحكومة حتى بلوغ الملك لرشده --- وقد حدد بسن الرابعة عشرة - في يد غير أيديهم . وكان على رأس أشرف قشتالة ، أسرة لارا الشهيرة القوية ، التي بذلت كل ما في وسعها لتجعل الملك الطفل في حوزتها ، لكي تفوز بما فاز به أسلافها وقت حداثة ألفونسو النبيل من القبض على زمام الحكم . ولم تقو الأميرة الوصية برنجاريا لضمفها على مقاومة الأشرف الأقوياء ، الذين كان يظهرون رجال الدين وفريق من الشعب ؛ ورأت خشية من أن ترج بقشتالة في غمار الحرب الأهلية من جديد ، أن تأخذ بالنصح السيئ ، وأن تنزل غتارة عن الوصاية ، وذلك في مجلس عقد في برغش في سنة ١٢١٥ م ، وأدغمت أن تمنين مكانها في الوصاية الكونت القارو نونيز دي لارا ، ليتولى الحكم وليسهر على تربية الملك الطفل . على أنه أزم بأن يقسم بين يدي الطران رديك الطليل ، بالآزاول حقا من حقوق السيادة قبل إخطار الملكة (هكذا كانت تسمى برنجاريا يومئذ نفسها) وموافقها ، وفي ذلك

ما يدل على أن برنجاريا لم تنزل في الواقع عن الحكم ، ولكن نخلت فقط من إدارة الملكة وتربية الملك إلى الأشراف وإلى أسرة لارا زعيمة الأشراف . وكان مما احتفظت به برنجاريا من حقوق السيادة ، توزيع الاقطاعات واستردادها ، وإعلان الحرب ، وعقد المحالفات ، ورفع الضرائب والرسوم ؛ فكل هذه الحقوق لا يزالها القارو نونيز ؛ وكان عليه أن يتولى كل ما يتعلق بشخص الملك وشؤون الملكة ، وأن يترك الجميع في حقوقهم ووظائفهم ، وأن يمقد السلام مع الممالك النصرانية المجاورة .

وما كاد الكونت القارو دي لارا ، يتسلم الملك بناء على ذلك ، حتى عهد إلى الحكم دون أن يتقيد ذرة بنصوص القسم . بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن المصدر الذي نستقى منه ما يتعلق بطرود فشتالة يومئذ ، كان من المراضين صراحة لأسرة لارا ، ولئن صدقنا كل ما يرويه رديك الطليطلى -- وهو يخفى مع ذلك أنه يضطرم بنفصا لآل لارا -- فإن الكونت القارو نونيز آثار بطفياهه بنفص جميع الطبقات ؛ فطارد الأشراف ، ونهب أموال التجار الأغنياء في المدن ، واستولى على جزء من أعشار الكنائس بحجة أنه يحتاج إلى هذا المال لمحاربة المسلمين ؛ ولم يمنعه من المضي في مطاردة رجال الدين سوى القرار الكنسي الذي أصدره ضده المطران .

ولأرب أن برنجاريا تحمل بعض التبعة في نشوب الحرب الأهلية . ذلك أنها اضطرت سخطا لانتزاع الوصاية وتربية أخيها منها ، فسمت إلى تخريض أصدقائها للعمل على إسقاط الوصاية الجديدة ، وإعادة الملك الطفل إلى حوزتها ؛ واجتمع فريق من الأشراف الذين ينتمون تفوق أسرة لارا في بلد الوليد وقرروا إعادة الوصاية إلى البونا برنجاريا . ومن ذلك الحين شهر الكونت دي لارا عليها الحرب علانية ، فزح أملاكها وأسرها بمناصرة الملكة ؛ فلبأت برنجاريا إلى حصن « أوتليو » وشجعت أنصارها على المضي في المقاومة وبذلك سارت الحرب الأهلية سيرها . وحالت بقطة الكونت القارو دون فرار الملك الطفل إلى أخته ؛

ورأى نمكيناً لسلطانه عليه ، أن يزوجه بالرغم من أنه لم يجاوز الثانية عشرة ،
وسافر الكونت بنفسه إلى البرتغال وحمل ملكها ألفونسو الثاني على الموافقة على
تزوج ابنته بالملك هنرى ، واصطحب معه الأميرة ، واسمها مافدا إلى قشتالة
وعقد زواجهما على الملك . على أن الكونت لم يوفق إلى تحقيق غايته ، ذلك أن
الملك العفل لم يبد ميلاً إلى زوجه . وأعلن البابا أنوسان الثالث ، بناء على طلب
برنجاريا ، بطلان الزواج بسبب القرابة الوثيقة ، وذلك على يد أسقف برغش
وبالانسيا ، وهكذا عادت ما فلدا إلى البرتغال ، وذلك بعد أن حاول الكونت
دى لارا عبثاً أن يقترن بها .

وحدث أثناء أن كان الوصى يقيم مع مليكه في بلدة مقودد من أعمال ولاية
طليطلة ، أن أرسلت برنجاريا سرا إلى ذلك السكان خادماً ليتحرى عن أحوال
أخيه وطريقة تربيته ، وربما أيضاً لكي يبحث عن خير الطرق لاختطافه .
واسكن الوصى الساهر لم يخف عليه أسر هذا الرسول ، فأمر بالقبض عليه وإعدامه
وزعم الكونت أنه عثر معه على خطاب بخاتم برنجاريا وتوقيعها ، وفيه مايدل على
أنها كانت تمنزم أن تقتل أخاها بالسهم ؛ ولكن قليلاً من الناس آمن بزعم الوصى
وكاد رأى يجمع على تبرئة برنجاريا من مثل هذا التدبير المشين ، ويستشف منه
خبث الكونت دى لارا . ولما كان رجال الدين ، وغربى من الأشراف ، وعدة
مدن ، يناصرون برنجاريا - وهو ما اضطر الكونت إلى مفادرة ولاية طليطلة
والذهاب إلى وبدة للإقامة فيها - فقد رأى الكونت إزاء تفاقم غضب الشعب
وازدیاد قوة الملكة ، أنه لابد من معالجة الموقف بسرعة ، والضرب على يد أعدائه
قبل أن يظفروا بالثقل عليه ؛ فأعلن باسم الملك الذى يصطحبه أينما كان ، وبحرميه
بكل ما وسع ، أن الذين يناصرون حزب برنجاريا يعتبرون جميعاً عصاة خائنين ،
وكان الإحجام عن محاربة الملك عظيماً إلى حد أن لندن وجويع الشعب انضوت
كلها تحت لواء الوصى ، ولم تستطع حصون الأشراف الذين يعضدون برنجاريا ،
أن تقاوم القوى التغلب عليها مقاومة ناجحة ، كذلك بدت الملكة وقد فقدت كل

شجاعتها وعزمها؛ ومع أنها لم تنزل ميدان الحرب ضد الكونت ، فقد كانت جوعها تنافس كل يوم ، وكانت الحصون المولية لها تسقط تباعاً في يد الكونت .

وفي الوقت الذى يئست فيه الملكة برنجاريا من كسب قضيتها وامتنعت مع نفر قلائل من الأشراف المخلصين ببعض الحصون المنية ، وأخذ الوصى بمن في مطاردة جميع الدين خاصموه ، حدث حادث جبان حول مجرى الحرب الأهلية إلى اتجاه جديد . ذلك أن الكونت الفارو تونيز غادر بلد الوليد بعد أن أقام فيها مع الملك حيناً ، إلى بالانسيا ؛ وهناك نزل في قصر الأسقف ، وقرر أن تكون نفقات البطانة الملكية من أموال الأسقفية ، وفي ذات يوم كان الملك الفتى يلعب في الفناء مع بعض أقرانه من أبناء الأكابر ، فانطلق أثناء اللعب سهم أصاب أحد أبراج القصر ، فسقطت منه قطعة من الحجر ، فأصاب الملك في رأسه وجرحته جرحاً بالغاً توفي منه لأيام قلائل ، وذلك في السادس من يونيو سنة ١٢١٧ م . ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة بعد ، ولم يكن قد مضى على وفاة أبيه سوى عامين وثمانية أشهر ، ثم تبعه إلى القبر ..

ولابد أن هذا الحادث الحزن قد اعتبر في قشتالة توفيقاً عظيماً ، ذلك أن الطاعة التى كان يستند إليها سلطان الوصى المشيد الطامع ، وهو الملك الذى يحقق باسمه كل عسف ، قد انتهت ، وكان الملك ألفونسو النبيل قد سن في وصية سابقة له أنه إذا توفي دون عقب من الذكور ، فإن عرش قشتالة يؤول من بعده إلى كبرى بناته الدونا برنجاريا ، ثم إلى أعقابها الشرعيين ، ولما كان الأحرار والأشراف قد وافقوا على وصية ألفونسو هذه ، ولم يبق كذلك منذ لأنصار أسرة لارا في رفض الطاعة للملكة ، فقد بويمت بالطاعة في الحال على يد المجلس النيابي (الكورتيس) المنعقد في بلد الوليد ، وذلك بالرغم من تخلف الوصى عن الخضوع ؛ وكانت المرأة الذكية ، حالاً ووقت على موت أخيها الملك ، وكان الكونت الفارو يجتهد في إخفاء النبأ — قد أرسلت بعض خاصتها إلى ليون ، حيث أحضروا معهم ولدها فرديناند الذى رزقت به من زواجها بملك ليون ألفونسو التاسع ، وهو الزواج الذى أُلناه البابا .

ولم يرد الكونت دى لارا أن يعقد أى تقام ما لم يسلم إليه الانفانت (ولى المهد) فرديناند الذى يرث المرش بعد وفاة أمه ، ليقوم بتربيته وحراسته ، ولكن برنجاريا لم تقبل قط مثل هذا الحل بعد الذى شهدته من عبر التجربة الماضية . وهنا ظمت فى البلاد أحزاب ثلاثة ، كان أقواها الحزب الذى ينضوى تحت لواء برنجاريا الملكى ، وكان الأحرار والشعب يخلصون لها ، وكذلك الفرسان من خصوم آل لارا . وكان على رأس الحزب الثانى الكونت الفارو نونيز دى لارا ، وتحت يده جيش لا بأس به ، وفى حوزته كثير من الحصون ؛ وإلى جانب هذين الحزبين المتخاصمين ، كان تحت خصم ثالث هو الفونسو ملك ليون ، زوج برنجاريا السابق ، ووالد ولى المهد فرديناند ، وكان يدعى عرش قشتالة باعتباره أكبر أعضاء الأسرة سناً ، وقد أرسل أخاه سانشو فى جيش كبير إلى قشتالة للاستيلاء عليها . وعندئذ بادرت برنجاريا بمؤازرة القوات والفرسان فى قشتالة الجديدة واسترامادوره ، إلى اتخاذ إجراء حاسم لسحق الحزبين الخصمين . ولما كانت تعلم حق العلم أن الشعب القشتالى لا يرضى عن حكم النساء ، فقد اعترفت أن تضحي بنفسها فى سبيل ولدها ، فأعلنت تنازلاً من حقوقها فى العرش لولدها فرديناند — وكان يومئذ قد بلغ الثامنة عشرة من عمره — وذلك فى الميدان الكبير فى بلد الوليد ، وسلمته مقاليد الحكم فى محضر حافل من الناس ، وفى ٣١ أغسطس سنة ١٢١٧ ، تلقى فرديناند الثالث الذى لقب بالقدس فيما بعد ، بمن الطاعة فى كنيسة بلد الوليد الكبرى . وحملت هذه الخطوة الحاسمة ملك ليون والكونت دى لارا على الاتحاد ، وذلك بعد أن حاول الكونت عبثاً أن يمرض فليب الثانى ملك فرنسا ووالد خلفه لويس الثامن زوج الأميرة بلانكا أخت برنجاريا الصغرى ، على غزو قشتالة والاستيلاء عليها . وبينما سار الفونسو التاسع ملك ليون فى قواته إلى برغن متناسياً صالح أسرته إلى حد أنه تحالف مع التاربن وشهر الحرب على ابنه الذى جملة وارث المرش من بعده ، كان الكونت الثارو يحاول بمؤازرة إخوته وأنصاره أن يضم ناز الحرب الأهلية فى جنوبي قشتالة .

وحاولت رنجاريا في البداية بالرجاء والإقناع أن تحول دون تحالف قوات ليون وقوات الثوار ، وتوسط أسقفا برغش وبلنسية لدى زوجها السابق في هذا السبيل ، ولكن الملك الطامع التحفز لم يرد أن يصنى إلى شيء من هذا الرجاء — وقد كان يضطرم سخطا ، لأنهم رفعوا ابنه إلى العرش دون إذنه ، مع أنه هو صاحب هذا العرش في زعمه ، قضى في توغله في قشتالة ، وأسرع إلى برغش عاصمتها القديمة يحاول افتتاحها ، ولكن ما اتخذته رنجاريا من الإجراءات الحكيمة وما أبداه فرديناند من الحزم والشجاعة ، وما أبداه سواد الشعب القشتالي من النيرة في مؤازرته ، ما لبثت أن حلت ملك ليون على أن يعود أدراجه إلى أراضيه ، ذلك أنه شهد حين محاصرته لبرغش ، كيف يتغافى القشتاليون في الدفاع عنها ، وآانس في جيبته القصور والمعجز ، فبادر بالعودة إلى ليون قبل أن تحل به الهزيمة وهو ساخط أشد السخط لأن الكونت دى لارا خدعه بتصوير ميول الشعب القشتالي على غير حقيقتها .

ولما زال الخطر العام من ناحية ليون بسلام ، وحطم أنصار الكونت دى لارا بالمنف والبغاش ، عمد فرديناند إلى الاحتفال بدفن رفات سلفه الملك هنرى ، وكان جثمانه لا يزال في حوزة أعدائه ، فدفن في القبرة الملوكية في برغش بأعظم تكريم .

وبدأ فرديناند حكمه في ظروف صعبة ، بالرغم من الزايا التي حققت . ذلك أن كثيرا من الحصون في ولاية ريوجا وفي قشتالة القديمة ، وكذلك على ضفة نهر دوبره اليمى كانت لا تزال في أيدي آل لارا ؛ بل إن برغش نفسها لم تكن في مأمْن ؛ وعلت الثوار أيا حيث في أنحاء مختلفة من قشتالة دون أن يتمكن فرديناند من قمع غزواتهم ؛ وكانت أسرة لارا تحتكم على أموال طائلة ، وفي وسعها أن تحشد من الجند مشامت ؛ أما ملك قشتالة ، فكانت بالكس في أشد الحاجة إلى المال ، حتى أن والدته اضطرت أن تبيع جميع حبلها للمعاونة في نفقات الحرب ، وهكذا كان فرديناند عاجزا عن متابعة الحرب ؛ وهنا حدث حادث في غاية

التوفيق ، وهو أن الكونت دى لارا وقع أسيراً في يد فرسان الملك ، في الوقت الذى كان يتأهب الفريقان فيه لخوض المعركة على مقربة من بالانسيا Palencia ؛ فالتى الثوار أنفسهم بلا زعيم ، واضطر الكونت لكي يفقدى حريته ، أن يقطع عهداً بالخضوع ، وأن يسلم الحصون التى يحتلها أنصاره . ولم يمض قليل حتى اضطر أخو الكونت ، وهما فرديناند وجوازالو ، إلى الخضوع أيضاً وتسليم ما بيدهما من الحصون . والظاهر أن وعيد البابا هو نوربوس بأن يقضى بالحرمان على كل تآمر ضد حكومة فرديناند كان له أثر عميق في إخماد الحرب الأهلية في قشتالة (سنة ١٢١٨ م) . ومن ذلك الحين ساد سلطان فرديناند في أرجاء قشتالة كلها .

ولكن آل لارا الثائرين لم يخلدوا إلى السكينة طويلاً . فلم يمض نصف عام حتى ناروا من جديد وزحفوا على منطقة بالانسيا بقوات كبيرة وخرّبوها كما يفعل الأعداء . ولما سار فرديناند في جيش كبير لمحاربة الثائرين مرة أخرى ، ورأى آل لارا أن قواتهم دون قوات الملك ، ساروا إلى ليون ليطلبوا المدد منها وأفلحوا في تحريض الأب على محاربة ابنه مرة أخرى ؛ وما كاد الجيش الليونى يبرح حدود قشتالة حتى أرسل فرديناند قوة إلى ليون لتتميع في منطقة شلنقة ؛ ولما التقى الأب والابن وجها لوجه ، حاول بعض الأساقفة والكبراء التوسط بينهما لمقعد الصلح قبل الالتحام في المعركة ، وعاون مرض الكونت دى لارا الفجأ على ميل ملك ليون إلى إثبات الصلح ، وعقدت الهدنة في الحال بين الفريقين . وما لبث الكونت المريض أن توفى وهو مضطرب سخطاً لأنه لم يكن في سميته لتحطيم عرش فرديناند أكثر توفيقاً . وارندى الكونت قبيل وفاته ثياب جماعة شفت ياقب ، ودفن في اقلش على نفقة الملكة برنجاريا التى كان في حياته أشد الناس خصومة لها ، ذلك أن الكونت أنفق كل ماله في الحرب وتوفى فقيراً . وهكذا عقد السلام الدائم بين قشتالة وليون ؛ واقتنع ملك ليون أخيراً بأنه ليس من اللائق أن يعضد الثائرين على ولده ، وعاون على محاربة آخر زعيم لأسرة لارا وهو الكونت فرديناند شفيق الثمارو ، حتى اضطر إلى الفرار من الملكة (سنة ١٢١٩ م) ، ثم عبر البحر إلى

مراكش ملتجئاً إلى المسلمين ، ولم يلبث أن توفي هناك مرتدياً قبيل وفاته ثياب فرسان الاستبارة .

ولما استتب السلام في المملكة ، احتفل فرديناند في برغن بزواجه بالأميرة بياتريس ابنة القيصر فيليب فون هونشتاوفن . وقبل عقد الزواج أعلن الملك نفسه فارساً وارتدى ثياب الفرسان بمد أن ياركها له أسقف برغن ، وشهد هذا الحفل كبار المملكة مع نساءهم ، ونواب الطبقات ، وعدد كبير من الفرسان .

وحدثت في الأعوام التالية في قشتالة وليون ثورات عديدة قام بها بعض الأشراف النصارى ، ولكن الوثام لبث بالرغم من ذلك سائداً بين ملكي قشتالة وليون ؛ وكان يقوم بهذه الثورات في قشتالة دائماً أنصار آل لارا ، وكان زعماء الثورة إذا ما رأوا فشل جهودهم فروا عادة إلى المسلمين . وحدثت في مملكة ليون خلاف بين الملك وأخيه سانشو فرنانديز ؛ ذلك أن سانشو جمع أربعين ألف مقاتل بحجة أنه سيفودم إلى مراكش لخدمة سلطان الموحدين ، ولكنه لا عبر حدود ليون إلى الأندلس ، كشف عن حقيقة مشروعه ، وهو أنه يريد أن يؤسس له مملكة مستقلة في إسبانيا ، فانفض عنه معظم الجند ، ولكنه امتنع بمن بقي على ولائه في جبال الشارات (سييرا مورينا) حتى توفي في سنة ١٢٢٠ م في حفلة سيد كان يطارد فيها دُباً .

وفي الأعوام التالية ، كان الأب والابن يسيران في قوات قشتالة وليون كل عام تقريباً لمحاربة المسلمين . كذلك كان ملكاً أراجون والبرتغال يسيران لمحاربة المسلمين كلما سمحت بذلك أحوال بلادها المضطربة ، وكانت قشتالة وليون تمدان بالأخص على استغلال ما تجوزة الأندلس من الاضطراب والفوضى بسبب انحلال سلطان الموحدين . فكانا ييمان عونهما للأمرء المسلمين الثائرين تباعاً ، وكانا في نفس الوقت يحاربان ابن هود^(١) الذي خرج على الموحدين وانتزع منهم معظم بلاد

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان السنين بن هود ، وهو الثائر على دولة الموحدين في أوائل المائة السابعة كما سيأتي .

الأندلس ، وببشان بذلك في بلاد المسلمين أعظم ضروب الاضطراب والروع ؛ وسوف نتحدث فيما بعد عن الحروب التي خاضها الليونيون والقسثاليون إلى جانب اللوحدين كلفاء لهم ، ولهذا نتفل ذكرها هنا ؛ ونكتفي بأن نقول هنا إن ألفونسو التاسع ملك ليون حقق لنفسه في تلك الحروب شهرة عظيمة ، وإن فرسان القنطرة ماؤنوه خير معاونة ؛ وكان قسم من فرسان قلعة رباح قد اتخذوا من القنطرة مركزاً لهم ، وجعلوا من أنفسهم جماعة خاصة وأطلقوا عليها اسم هذه القلعة وذلك في سنة ١٢١٩ م ؛ وكانت معظم حروب ألفونسو التاسع ضد ابن هود ، المتدلب على معظم أرجاء الأندلس . ولما افتتح ألفونسو ماردو من المسلمين في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) ، سار المسلمون إلى محاربته في جيش ضخم قوامه ستون ألفاً من المشاة ، وعشرون ألفاً من الفرسان ؛ فلم يرعه تفوق الأعداء في العدد ، واشتبك معهم في معركة أحرز فيها نصراً باهراً ، وكان هذا النصر مثار الدهشة حتى أن بعض الروايات الدينية المعاصرة نسبته إلى عون شنت ياقب (القديس يمهوب) وفرقة من الملائكة ؛ وترتب على هذا النصر أن سقطت بطليوس في يد الليونيين .

وكان هذا النصر آخر عمل حربي قام به ألفونسو التاسع ملك ليون . وحدث أثناء رحلة قام بها ليحج إلى قبر شنت ياقب وليقدم إليه صلاة الشكر عما أحرز من نصر ، أن مرض ونوى في ٢٣ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م بعد حكم دام اثنين وأربعين عاماً ؛ ودعى في بلده شنت ياقب حيث رقد أبوه أيضاً ؛ ومع أنه اشتهر بالمدالة والتقوى ولا سيما على يد معاصره الأسقف لوقا التطيلي ، فإن التاريخ يقص علينا الكثير من أعماله مما يتناقض مع هذا المديح ؛ وكان ألفونسو يبرز في الفروسية جميع الأمراء التابعين له ؛ وكان كثير البذل لرجال الدين ، يهب كل ما يفتحه من الحروب تقريباً إلى الأديار ؛ كثير البر بالمساكين والمطف عليهم ؛ بيد أنه كان كثير التقصير والبطش نحو الفرسان الناهبين ، يلقى بهم من فوق الأبراج أو يفرقهم في البحر ، أو يشتقهم أو يجرقهم في ماء يغلي ، أو يسلخهم أحياء . وقد استطاع بهذه الوسائل الفظيمة أن يحقق السلام والمدالة في مملكته حسبما يقول مؤرخ معاصر . وكان لسوء الحظ

كثير الإِسْماءَ لوشاية الناصحين المفرضين ؛ بيد أنه كان من صالح المملكة أن كان يصنى إلى رجاء زوجه برنجاريا واقتراحتها مما أدى إلى تهذيب بعض القوانين القديمة وإصلاح بعض الميوس . وكان شغوفاً بالأبنية الفخمة ، وقد شيد منها الكثير في مملكته ؛ فأنشأ في ليون قصر أعظيما ، وملجأ لإقامة المساكين من الوافدين لزيارة شنت ياقب ؛ وبني أبراج ليون التي أزالها النصور أو عدم بعض أجزائها ؛ وأنشأ بجوار شنت ياقب كنيسة فخمة ، كما أنشأ كثيرا من الأبراج والحصون في مختلف أنحاء المملكة ، وشيخها بالسكان والقاتلين .

كذلك أصلح ألفونسو الطرق وعيها ، وابتنى القناطر على الأنهر وأبدى حبه وتقديره للعلوم بتأسيس جامعة شلمنقة الشهيرة في سنة ١٢٢٢ م . وقد ظن البعض خطأ أن الجامعة النصرانية التي أنشئت من قبل في بالانسيا ، قد نقلت فيما بعد إلى شلمنقة ؛ على أن ذلك لم يكن من اليسور يومئذ ، إذ كانت ليون وقشتالة كل منهما منفصلة عن الأخرى ؛ ومن الواضح أن الملك ألفونسو التاسع ، قد احتذى في عمله مثل جامعة بالانسيا القشتالية ، وأبدى بذلك أنه لا يقل في مملكته . تقدير الأهمية للعلوم عن مملكة قشتالة .

وقد تزوج ألفونسو التاسع مرتين ؛ ورزق من زواجه الأول بالأميرة البرتغالية الدوناريزا ، بابنتين هما سانشا ودولشا ، وابن يدعى فرديناند توفي رشيداً في سنة ١٢١٤ م . ورزق من زواجه الثاني بالأميرة القشتالية برنجاريا ، بأربعة ، ابنتين هما فرديناند وألفونسو ، وابنتين هما برنجاريا وقسطنطينة ؛ ومع أن الزواجهين قد ألنيا على يد البابا بسبب القرابة الوثيقة ، فإن الأولاد الذين أعقبوا منهما قد اعترف بصحة نسبهم ؛ وبذا كان فرديناند الذي ولي عرش قشتالة ، عند وفاة أبيه أيضاً صاحب الحق بولده في عرش ليون ، وبالرغم من أنه كان أصغر بعض أخواته ، فإنه لم يكن لهؤلاء سوى حقوق على التاج ، متى توفي والده دون عقب من الذكور ؛ ومع أن ألفونسو التاسع كان قد عهد بالعرش من بعده إلى ولده فرديناند فقد ظهر عند فتح وصيته أن يجعل ابنتيه سانشا ودولشا وارثتين لمملكته .

وكان فرديناند ، حينما تلقى نبأ وفاة أبيه ومضمون وصيته ، يخوض الحرب ضد المسلمين ، ويشغل بحصار مدينة جيان . وانقسمت مملكة ليون إلى فريقين ، أحدهما ولى رأسه الأساقفة يؤيد ولاية فرديناند ، وهو الذى أقسموا له بمن الطاعة من قبل باعتباره ملكهم المستقبل ؛ والآخر يؤيد نصوص الوصية الملكية ويمتدح الأميرتين هما صاحبتا المرش ؛ وكان الفريق الثانى قويا بالأخص في سموره وجليقية واشتوريش ؛ وكانت مدينة ليون نفسها تنقسم على هذا النحو ، حتى عمد حاكمها الكونت ديجو دياز ، بعد أن رغب بالمال والوعود ، إلى تأييد حزب فرديناند . وبادر فرديناند إلى ليون دون تأخر ، وفقاً لنصح أمه الحكيمة بلاربي ؛ وهناك بعد أن أقسم باحترام حقوق المملكة وحرياتهما ، تلقى في الكنيسة الكبرى بمن الطاعة من رجال الدين والأشراف ونواب الطبقات ، وذلك بالرغم من أن معظم البلاد كانت في قبضة حمومه ؛ وأسمرت والدة الأميرتين وليتى المهد ، المملكة تريزا من البرتغال إلى ابنتها في جليقية لكي تشهر الحرب على فرديناند بأقصى ما يستطيع ، واعتزم فرسان قبرشت باقب ، وأشراف جليقية واشتوريش أن يؤيدوا دهوى الأميرتين ؛ ولاح أن حرباً أهلية جديدة ستحتاج الممالك الأسبانية ؛ ولكن المملكة برنجاريا وقفت بحكمتها واعتدلتها إلى التدخل لوقف الحرب ؛ فدعت المملكة تريزا إلى مقابلتها في «بلنسية»^(١) الموافقة على شهر منهو ؛ وهنا استطاعت أولمنا الملك ألفونسو التاسع أن تسويا فيما بينهما النزاع القائم بين أولادها ؛ واتفق على أن تتنازل الأميرتان وليتا المهد عن حقوقهما في التاج ، وأن تعترف بفرديناند ملكاً شرعياً على ليون ؛ وفى نظير ذلك تحصلان مدى الحماية على إيراد سنوى قدره ثلاثون ألف قطعة من الذهب .

وعلى أثر هذا الاتفاق أعلن فرديناند ملكاً على جميع أنحاء مملكة ليون . ومن ذلك الحين تتحد مملكتا قشتالة وليون — ومعهما إستانادوره وجليقية واشتوريش — نهائياً . ومع أنه لم يصدر يومئذ مرسوم باتحادهما ، فإنه يجب أن

(١) هي غير تسمى بلنسية المروف .

نعتبر من ذلك الوقت (سنة ١٢٣٠ م) ، أنه قد اتخذت بالفعل قرارات هامة فيما يتعلق بوراثة العرش خلاصتها أن قشتالة وليون هما مملكة واحدة لا مملكتان ، وأن العرش فيها يؤول إلى أكبر البتين ، فإذا لم يوجد عقب من المذكور ، آل إلى الفرع النسوي . وقد أسند عندئذ إلى ألفونسو أخى فرديناند الأصغر نصيب في حكومة ليون . واتحاد قشتالة وليون هذا هو أعظم حادث في تاريخ اسبانيا ، في القرن الثالث عشر ؛ وكان نذيراً بإتمام انحلال سيادة المسلمين في اسبانيا ، والحجر الأساسى لفتوحات العظيمة التى قام بها فرديناند في الأندلس .

الفصل الخامس

اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين

في الأندلس

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى الخليفة محمد الناصر بالأندلس فقط ، ولسكنها أفضت فوق ذلك إلى تحطيم سلطان الموحدين في المغرب . وإذا كان النصارى لم يوفقوا إلى استئلال ظفرهم في موقعة العقاب بما كان على الذكاء وضمف المدد ، فإن الخلافة الموحدية التي جردت منه كل قواها لم نهض من هزيمتها قط ، ولم ينقطع ألفونسو النبيل ملك قشتالة طول حياته عن الخروج إلى محاربة المسلمين ، ولكنه كان مفرق القوى بسبب خصومته الجديدة لليون . وكان أشد من ذلك اضطراب الممالك الأسبانية ، وهو ما أدى إلى تأخير غزو المسلمين بضعة أعوام ؛ ويرجع ذلك إلى ما حدث في نحو عامين من وقوع ثلاثة عروش نصرانية تحت سلطان الوصاية ؛ وكان يشغل عرش قشتالة وأراجون ، — وهما أهم ممالك شبه الجزيرة — أميران قاصران ؛ أما البرتغال فكان يشغل عرشها ملك يظلم لخدمة الدهاء والطمع أكثر مما تغلب الشجاعة وصفات الفروسة . وبينما كانت الممالك النصرانية — وهي تتمتع عندئذ بقسط عظيم من القوة والثمنة — تنحدر على هذا النحو إلى الاضطراب والفوضى ، في ظل الوصايات المخربة ، وما يترتب عليها من حروب أهلية تضطرم خلالها أطباع الأشراف ، والبغضاء والتنازع والحقد ، وقرارات « الحرمان » ، والقتل والتخريب ، إذا بسلطان الموحدين

ينهار في الأندلس أولا ، ثم ينهار بعد ذلك في المغرب ، وتقوم على أنقاضه أسر جديدة ، ولكنها لا تضارع الموحدين في قوتها ومنعتها .

غادر محمد ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى إشبيلية ؛ وهناك سعت في بادئة من غضبه جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس الذين كانوا في مقدمة الفارين من الموقعة ، والذين ينسب إليهم هزيمته ؛ فقتل منهم عدة ، وغرل منهم من كان يلي مناصب النفوذ والثقة . بيد أنه لم يذكر أن البهض بثير البهض ، فبعد أن صب جام غضبه على الأندلسيين كالنمر الفترس ، عاد إلى إفريقية لا لكي بمحمد جيشا جديدا يسترد به هيبة الموحدين الحربية ، ولكن لكي يحاول نسيان كثره وهزيمته بالانفاس في ملاذه وشهوائه . ولم يغم يومئذ بشيء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالسنصر بالله^(١) ، وكان يومئذ طفلا في الماشرة من عمره ؛ ولما انتهى من هذا التمين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه . وقضى هذا الأمير الذي كان يشغف بالحرب والجهاد ، أمدا قصيرا ، لا يجاوز العام ، في هذا القصر الصاخب ؛ ثم دس له خدمه السم ، فانزعجه من مسرائه ، وأودى بحياته ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وذلك في الحادي عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٣ م)^(٢) . وقد حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر . أما الرواية التي يقول بها مؤرخ عربي ، ومفادها أن محمدا كان يشغل بمحمد جيش آخر لكي يححو هزيمته ، وأنه توفي أثناء أهباته بمدينة سلا ، فهي خلط ظاهري

(١) في روض القرطاس أنه لقب بالسنصر بالله (س ١٦٠) ، ولكن في ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٥٠) وفي الحلال اللوشية (س ١٢٢) أنه السنصر بالله .

(٢) إن ما يورده المؤلف عن أيام الناصر الأخيرة ووفاته يتفق مع رواية صاحب روض القرطاس (س ١٦٠) بيد أنه يقول لنا إن الناصر توفي مسموما بأمر وزرائه ، حيث دست له إحدى الجوارى السم في قدح من الخمر ، لأنه كان قد عنم على قتلهم ، فماجلوه بالقتل . وجاء في الحلال اللوشية أنه توفي ما وعما (س ١٢٢) .

بما حدث في وفاة عبد المؤمن . ومع أن الناصر كان بطبيعته يتمتع بخلال بدية فأنه مذ ولي الحكم ، ترك إدارة الشؤون لطائفة من الوزراء الكرويين ومنهم من هو عاقل من كل كفاية ، فكان ذلك من الأسباب القوية التي أدت إلى تصدع سلطان الموحدين من أسسه ؛ وبما يستحق الذكر أيضاً أن عمداً هو سلطان المغرب الذي بعث إليه جون (يوحنا) ملك إنجلترا في سنة ١٢١٣ م ، بسفارة ، يقدم إليه فيها ملكه وحياته ، ويعتمد بدفع الحزبية ، ونبذ النصرانية واعتناق الإسلام ، إذا أمده بالجند ؛ ولكن سلطان الموحدين لم ير في ذلك المرض غنياً بذكر ، فرفض مقترحات الملك جون مكبرياً وازدراء .

وإذا كانت دولة الموحدين قد بدأت من قبل دور انحلالها ، فإنها أخذت في ظل الحكومات اللاحقة تنحدر سراعاً ، حتى أنه لم يكن من اليسور بعد على وصي أن يعمل لإنهاضها ؛ وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبي قاصر ؛ بل إن الدول القوية المنظمة ، كثيراً ما تنهار من جراء ذلك في أعوام قليلة ؛ فبالك بدولة قد أخذت منذ حين تتمزق إلى عناصر خصيمة .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله ، الملقب أيضاً بالنصور بالله ، حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه — دون الحادية عشرة من عمره — وكان أضعف من أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه ، فتركها لأعمام طامحين ، ووزراء ذوي أثره وخلال سبته ، لا يبحثون إلا عن مصالحهم وسلطانهم ، ويسومون الشعب في المقاطعات التي يحكمونها الخسف في سبيل مطامعهم المضطربة ؛ وكان يحكم الأندلس أربعة من أعمام المستنصر لاحد لسلطانهم ، هم السيد أبو محمد عبد الله بن النصور ويحكم بلنسية ودانية ، وشاطبة ومرسية ؛ والسيد محمد ويحكم قرطبة ؛ والسيد أبو علي ويحكم إشبيلية ، والسيد أبو عبد الله ويحكم جنوبي الأندلس . وأقطع السيد أبو علي حكم المقاطعات والنائب بالمال وفقاً لأهوائه ونصح معاونيه ؛ وبذلك أبعد الرجال الأكفاء ، ولاسيما الأندلسيين ، فقد ساءم ذلك ، واضطهدوا صراحة ؛ واختفى العدل بتاتاً ، لأن القضاة الذين اضطروا إلى شراء مناصبهم ، حاولوا

— باضطهاد الشعب وظلمه — أن يستردوا ما خسروا أو يضاعفوه .

فأثار هذا الاستبداد بين مسلمي الأندلس — وقد كانوا يرون في الموحدين ظالمين — أعما سخط على الفاربة ، حتى كانت تكفي شرارات قلائل لتضرم من جديد نار الحرب الأهلية في جنوبي اسبانيا ؛ وقد أدى إليها بالفعل سير الحرب الشنوم ضد النصارى ؛ وبالرغم من أن الدول النصرانية كانت يومئذ عاجزة — من جراء الحرب الأهلية والقحط والتفرق — أن تقوم باستمدادات كبيرة لمحاربة المسلمين ، فإنها مع ذلك لم تمتنع بتاتا عن محاربة عدوها التاريخي ؛ وكانت الفزوات التفرقة التي قام بها ألفونسو ملك ليون ، وفرسان قلعة رباح وسنت جوليان (فرسان القنطرة) ، والبرتغال ، والمطران رديك الطليطلي مع فرسان قشتالة ، تستغرق نشاط الحاميات الموحدية وجند الحدود كله ، حتى إنه لم يكن بوسمها أن تمنى بحركات الثوار في الداخل عناية كافية ؛ وفقد الموحدون هيبتهم تباعا ، ولم يمد يث اسهم ما كان يث من قبل من الخوف والروع ؛ وسقطت عدة من القلاع والحصون في يد النصارى ؛ ففي يولييه سنة ١٢١٣ م ، افتتح ألفونسو النبيل ملك قشتالة حصن القصر ، ونفذت القوات القشتالية الخفيفة حتى ظاهر إشبيلية ؛ وفي العام التالي ، استولى ألفونسو التاسع ملك ليون عنوة على حصن القنطرة ، وهو الحصن الذي اتخذ فيه بمد (سنة ١٢١٩) فريق من فرسان قلعة رباح مركزا لهم ، وتسموا باسمه ؛ وثبتت عندئذ مدينتا القصور (كسبرس) وبباسة بمد أن حاصرهما الليونيون والقشتاليون دون طائل ؛ وحالت الحرب الأهلية التي اضطرت في قشتالة وليون بين سنتي ١٢١٥ و ١٢١٨ م ، وهي التي أثارَت ضرامها أسيرة لارا القوية ، دون قيام النصارى بنزوة كبيرة ضد المسلمين ، ولكن جماعات الفرسان ورجال الدين لم ينقطعوا عن القيام بنزوات في أرض الأندلس ، وقلما كانت تلحقهم الهزيمة ؛ وزاد في جرأتهم ما كانوا يصيرونه من الغنائم الكبيرة ، فكان النزاة يتقدمون حتى أبواب إشبيلية وقرمونه ، وم يخربون وينسفون كل أرض وطشها أقدامهم ، ولم تكن قسوتهم الوحشية قاصرة

على المحاربين من خصومهم ، بل كانت تشمل النساء والأطفال والشيوخ ؛ فكان الخوف والروع يتقدمان الفزاة النصارى ، أينما حلوا ، وكان الموحدون يقاتلون قتال اليائس وقد فقدوا في النهاية كل شجاعة وكل ثقة في قوتهم ومنهم .

وعجل باضمحلال سيادة الموحدين في اسبانيا عود السلام بين قشتالة وليون ، واضطرام الخصومة حول العرش في أسرة الموحدين اللوكية . وقد عقد ألفونسو الأول ملك ليون الصلح مع ولده فرديناند ملك قشتالة ، وحشد الاثنان قواتهما المتحدة لهاربة العدو المشترك ، ولبنّا كل عام تقريباً بقودان فرسانهما الفلمثين إلى القتال إلى غزو الأراضي الإسلامية واقتناص الفنائم ؛ وفي تلك الأثناء كان سلطان الموحدين المستنصر ، خلافاً لأسلافه المحاربين ، يمتكف في قصره بمراكش ، منغمساً في اللهو والترف ، لا يحيط به سوى العبيد والجواري ، ولا يفكر إلا في ملاذه ؛ وبدلاً من أن يبنى بشؤون الحكم ، كان يلهو بما لا يليق بأمر من رعى الأبقار وتربيتها ؛ ومع أنه لم يجاوز الحادية والعشرين ، فقد ذبلت سمته ونحطمت من جراء اللهو الدنيء ، ودنا سراعاً من القبر ؛ ولقيت حياته المأبئة نهاية غير مجيدة ؛ فقد توفى بين أبقاره وهو يروضها ، إذ هجمت عليه بقرة ثمرود منهن وضربت بهقربنها في موضع القلب ، فتوفى لساعته . وذلك في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، الموافق ٦ يناير سنة ١٢٢٤ م ^(١) .

والواقع أن المستنصر نفسه لا يحمل نعمة حلاله السيئة وفشله في الحكم ؛ ذلك أن أقاربه ووزرائه كانوا يذفون به إلى غمر اللهو ويجمعونه غير أهل لأى عمل جدى ، وذلك لكي ينزعوا مقابليد الحكم لأنفسهم من هذا الفتى القاصر ، وقد حققوا غايتهم ؛ ولكنهم دفنوا في نفس الوقت بالملكة إلى يرثى الفوضى والحرب الأهلية .

وسهلت وفاة المستنصر الفجائية دون عقب ، لأقاربه الذين كانوا يحكمون مقاطعات المملكة مستغلين فرصة واسعة لمحاولاتهم وأطماعهم ؛ وسرعان ما أفضى

(١) روض القرطاس ص ١٦١ .

النزاع حول العرش إلى اضطراب الحرب الأهلية . وقام في الحال بالأمر في مراکش
عم أبي المستنصر ، أبو مالك عبد الواحد ، وكان يعيش من قبل عيشة الترهيب
والتبذل ؛ وقام بالأندلس ابن أخيه عبد الله أبو محمد وهو ولد بعتوب النصور ، وأعلن
نفسه أميراً على مرسية باسم المادل بالله ، واعترف أخوه أبو علي إدريس وإلى إشبيلية
بسيادته ؛ ولم يكتف المادل بما أحرزه من الاستقلال بالأندلس ، فأوهم إلى أصدقائه
وأنصاره في مراکش بالثورة على أبي مالك عبد الواحد ، وكان منكبا على لهوه
وملاذه ، فخلع في ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ (٨ سبتمبر سنة ١٢٢٤ م) ، ثم قتل بعد ذلك
بثلاثة أيام ، ولم يطل حكمه سوى ثمانية أشهر . بيد أن المادل لم يستقر في عرشه
المطلخ بالدماء سوى القليل ، ثم أسقطه أولئك الذين رفعوه ؛ ذلك أنه حاول أن
يحد من غطاسة الولاة والقضاة والأشياخ وأطاعهم ، وأن يقيم العدل والنظام
ثانية في تسير الشؤون ، وأن يرد هيبة السلطان كما كانت من قبل ، ولكنه لقي
معارضة من كل جانب ؛ ووقع الانفجار في الأندلس بادي ذي بدء ، حيث رفع
أقارب المادل من السادة الموحدين — وهم محمد صاحب قرطبة ، وأبو علي صاحب
إشبيلية ، وعبد الرحمن صاحب بلنسية ، ومحمد وإلى بياسة — علم الثورة ؛ وتحالف
محمد مع الجند القشتاليين الذين نفذوا إلى الأوامر الإسلامية ، ضد من بقي على
إخلاصه من جند المادل ، واستطاع فرديناند ملك قشتالة بذلك أن يحتل حصون
بياسة وأندوجار ومرطوس ، وأن يحصل على ربيع مواردها . ورأى المادل خشية
من أن يفقد الأندلس كلها أن يعقد حلفا مع ملك قشتالة ، وعين محمد وإلى
بياسة^(١) قائداً عاما لقوات الموحدين بالأندلس ، وحصل فرديناند في الحال
على أهم الحصون الواقعة على الحدود ؛ وانتهز خصوم المادل هذه الفرصة فشنوا
به لدى الشيب ، وأبي قائد حصن كايلا أن ينفذ أمر المادل وأن يسلم المدينة إلى
ملك قشتالة ؛ ورأى أهل قرطبة أن النماری قد أحاطوا بهم من كل صوب .
وأخذوا يتوقعون سقوط المدينة في أيديهم . وأخذ السخط يشتد تباعاً من

(١) ويسى الياسى لأنه قام ودعا لنفسه بمدينة بياسة (روض القرطاس ص ١٦٤) .

جاء الماهدة المقودة مع النصارى ، ورأى الناس فى المادل خارجاً على الإسلام ، وحذف اسمه من خطبة الجمعة ، وجهر الناس بالاماء عليه فى الساجد ، واعتبروه عدوا لله ومفتصباً للعرش بلا حق ، وانتهى الأمر بأن كسب التوار الحرس إلى جانبهم ؛ وفى ذات يوم اقتحموا القصر وطلبوا إلى المادل أن ينزل عن العرش مختاراً ، فأبى وصرح بأنه لن ينزل بأى حال عند مطلبهم ، فقبضوا عليه ، ووضعوا رأسه فى حوض نافورة مملوء بالماء ، وأقسموا بالألا يخرجوه منه حتى يمان تنازله ؛ فأصر المادل على رفضه بشدة ؛ فوضوا عمامته فى عنقه ، وأخذوا فى خنقه ورأسه مغمور فى الماء ، وهكذا توفى هذا الأمير ضحية لصرامته وأطباع أقاربه وكبراء مملكته ، وذلك فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٢٤ هـ ، الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٢٢٧ م ، بعد حكم دام ثلاثة أعوام وعمانية أشهر وبضعة أيام . وحدث فى نفس الوقت أن قتل محمد صاحب قرطبة غيلة ؛ وحاولت مدينة يياسة التى منح قلعها كبير فرسان قلعة رباح ، أن تطرد النصارى ، ولكن جهودها ذهبت كلها عبثاً . ولما استولى فرد بناند على حصن كابيلا بعد أربعة أشهر ، استطاع أن ينفذ فرسان قلعة رباح المحصورين فى قلعة يياسة ، وأن يأخذ المدينة نفسها ؛ وغادر المدينة سكانها ، واحتل النصارى هذا المركز الهام ، وقد كان دعامة ذات شأن لما تلا من الفتوح فى الأندلس .

وكان مدبر الفتنة ورأس المؤامرة التى فقد فيها المادل عرشه وحياته ، أخا المادل ، أبا على إدريس والى الأندلس المتقدم ذكره ؛ وكان مقامه من قبل فى إشبيلية ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مالقة ، وابتنى له بها قصراً فخماً ، وعمل على استئلال سخط الزعماء فى الأندلس للحط من هيبة أخيه ؛ ولما تم له ذلك فى الأندلس ، سهل عليه أن يقوض سلطان المادل فى المغرب ، وأن ينزعه من عرشه ، ويقضى على حياته ؛ وكما أن المادل استطاع أن يرقى العرش بطريق الثورة والحياة والقتل ، فكذلك كان سقوطه ؛ ولم يوفق أخوه أبو على الذى أعلنه التوار ملكاً باسم المأمون ، إلى أن يفوز بحكم أهدأ من حكمه ، وحله فقد كل نظام وطلاعة على أن

يحكم بيد من حديد ، ولما كان مجلسا الحسين والسبعين اللذان أنشأهما أمراء
الموحدين وفقاً لتعاليم المهدي ، قد أصبحا أكبر عضد للإحلال بالنظام والفوضى
من جراء سوء استعمال السلطة ، فقد حاول المأمون قبل كل شيء ، أن يحطم من
سلطة هذين المجلسين ، وأن يردهما إلى سابق حالهما كهيئتين استشاريتين فقط ،
وأن يلغيهما إذا استطاع ؛ وكان يؤازره في ذلك وزيره الأكبر الأمير أبو زكريا
ابن علي ، وكان من رأيه أنه يجب لإقامة حكومة قوية رشيدة ، أن يكون ثمة
شريعة غير شريعة الله ، ورأى الأمير ؛ وكتب المأمون أو كتب وزيره المذكور
باسم هذا المعنى وثيقة يمارض بها شريعة المهدي ونظام حكومته ، ويبين فيها
عيوب هذا النظام وسوء إدارته ، ويعرب عن رغبته في العمل على إصلاح دستور
الدولة المهدية . فرأى الرعاع في تصريح الأمير ، ورأى فيه أعضاء المجلسين
بالأخص تهديداً لامتيازاتهم ، وحاولوا أن يمارضوا بكل قوائم ذلك النظام المطلق
الذي يريد أن يقيمه المأمون ، والذي هو في الواقع نظام الحكم المتأد في الدول
الاسلامية ، لما فيه من حد لحقوقهم ؛ فلم ترد هذه المارضة المأمون إلا نشاطا
في تنفيذ مشروعه الإصلاحى ، ومرعان ما استعجال هذا الصراع في سبيل الحياة
أوالوت بين السلطين إلى حرب أهلية ، وعوقب مجنبا الدولة أعنى مجلسي الحسين
والسبعين من جراء ممارستهما بالحل ؛ ومع ذلك فقد أعان المجلسان قيامهما ،
وأعلننا بطلان حكومة المأمون ، وزعما لأنفسهما الحق في اختيار حكومة
العدل ، ناديا في الحال بولاية أبي زكريا يحيى ، وله نظايغه السابق محمد الناصر
وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره^(١) ، وأقبا له عين الطاعة ، فتلقب بالمتصم
بالله ، وبادر أنصاره الذين رفضوه إلى العرش بإرساله إلى الأندلس على رأس قوة
من الجنود ، ليمثل على إسقاط المأمون عن العرش ، وكان يومئذ بالأندلس ،
وما كاد المأمون يقف على مقدم خصمه المتصم حتى سار إلى لقائه في جيش ضخم
يعاونه بعض الجند القشتاليين ، وهزمه في معركة شديدة نشبت بينهما في شدونة ،

(١) في روث الترماس أنه كان يومئذ في السادسة عشرة من عمره (س ١٦٥) .

وفر الأمير المهزم في قل جيشه القليل إلى مفاوز جبال البشرات ، حتى تسنح الفرصة مرة أخرى لتنازع خصمه المأمون . ولما كان النصارى قد انتهزوا فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين للقيام بغزوات عديدة في الأندلس ، وعبروا الحدود الإسلامية ظافرين من كل صوب ، فقد آثر المأمون أن يتحول إلى مقاتلة النصارى على أن يعضى في مطاردة غلزل المتصم في أعماق الجبال ؛ فانقلب فجأة إلى مقاتلة القشتاليين ، وكانوا يومئذ قد اجتاحتوا أراضي الأندلس حتى ظاهر غرناطة وضربوا الحصار عند عودتهم حول جيان ، وأخذهم على غرة ، فانهزموا وركنوا إلى الفرار بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ؛ وكان من ثمار هذا النصر الذي وقع في سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) أن أنقذت جيان ، واستردت عدة من حصون الحدود المفقودة ، وأصاب المسلمون غنائم عظيمة .

وبعد أن حصن المأمون حدود الأندلس للموحدين على هذا النحو ، بادر بالعودة إلى المغرب ليماقب الزعماء الذين دبروا خلمه أو الذين تخلفوا عن بيعته ، فركب البحر من إشبيلية في أسطول ضخم ، ولما وصل إلى مقربة من سبتة حاول إبراهيم بن غانية أمير البحر من قبل المتصم ، أن يمترض نزوله إلى البر ، فقاتله وهزمه ، وترك المأمون جنده المشاة ، وسار في قوة من الفرسان فقط ، فوصل إلى مراكش بسرعة عظيمة ، حتى أن أحداً من خصومه لم يجد وقتاً للفرار ، وسقط أعضاء المجلسين اللذين بالنا في خصومته جميعاً في يده أسرى ، ففضي عليهم بالإعدام بتهمة الخيانة ، وقام في الجبال حرسه بتنفيذ هذا الحكم .

ولم يقتصر الأمر على العاصمة ، بل تناول المقاطعات أيضاً ، وجد المأمون في مطاردة جميع أنصار النظام القديم ، ونفذت أوامره القموية بمتهى الصرامة ، حتى أنه لم يعض سوى القليل حتى أرسلت زهاء خمسة آلاف من رؤوس القتلى إلى مراكش ، وعلقت على أسوارها ؛ وبثت حكومة المأمون الصرامة الدرع والروع في كل مكان ؛ وألقى المأمون في حرسه من الأندلسيين والسود أداة قوية مستعدة لتنفيذ أوامره ، وققد زعماء الموحدين الذين استطاعوا الفرار من الموت

كل شجاعة وكل عزم ، ومع أن مجلسي الخمسين والسبعين لبثا قائمين بالاسم . فان أعضاءها الجدد كانوا من صنائع المأمون ، ولم يسمح لهم بالتدخل في شأن من شؤون الدولة ، وكل ما هنالك أنهم كانوا يماوتون وزير العدل ، وكان عليهم أن يصادفوا دون جدال على كل خرق للشرع والقانون . ولكي يمدد دستور دولة الموحدين من أساسه ، أعلن أن مؤسسه المهدي مخاض ومحتال ، وعي ذكره من الصلاة ومن المنابر ، وأبطلت جميع النقود والنقوش التي تحمل اسمه ؛ وكان طبيعيا أن يعتبر الشعب المأمون إثر ذلك ملحدا ومرتدا وكافرا ، وألا يحول دون انفجار الثورة العامة عليه سوى بطشه وقوة حرسه ؛ ومن ثم فقد اضطر المأمون إلى المضي في هذا الحكم الرهيب ، ولم يتح له أن يستبدله بغيره ، بالرغم من أنه قد أفتيت في ظله الأثوف ، ولم ترفع رؤوس القتلى عن جدران المدينة بالرغم من أنها كانت تسم الهواء من جراء اشتداد الحر ؛ وكان المأمون يقول : « ها هنا مجانين هذه الرؤوس أحراز لها ، وروايحها عطرة عند المحبين كريهة عند المنفذين ... وأنا أعرف بما يتطلبه الخير العام ^(١) » .

وبينا كان المأمون يحكم المغرب بيد من حديد ، ويرد أنصار خصومه بعد أن هزمهم غير مرة ، إلى أعماق جبال الأطلس ، إذا بمعظم أراضي الأندلس يخرج عن قبضة الموحدين ؛ ففي منطقة مرسية قام أبو عبد الله محمد بن يوسف سليل بني هود أمراء مرفسطة السابقين ، وسرمان ما ألقى العربي النبيل في بنى هرب الأندلس للفتنة الموحدين ؛ كبر عضد ؛ كذلك لم يكن ينقصه تمصيد الفرسان النصاري الذين كانوا - كما كان السيد الكنيطور - يخرجون للحرب والفتوح ؛ واستولى محمد بن هود على مرسية دون كبير مشقة ، وتلوى بنفسه أميراً لها باسم المتوكل على الله ، وحاول أن يكسب الأندلسيين إلى جانبه بسرعة ، وأن يؤايمهم على قتال الموحدين فأذاع أنه يسي إلى تحريرهم من نير المغاربة المرقق ، وأنه لن يفرض عليهم سوى

(١) وردت هذه التفاصيل جميعها عن حكم الإرماب الذي بطله المأمون في الحلال الرشيدة من ١٢١ و ١٢٥ ؛ وقد نقلنا قوله الأخير عن الرؤوس منها ما عدا العبارة الأخيرة .

الضرائب الشرعية ، وأن يعمل على إقامة شرائع الإسلام الحقة ، وأعلن التوكل أن الموحدین كفار ، وأمر أن يحتفل بتطهير المساجد التي دنسها فقهاؤهم وارتدى السواد بهذه المناسبة ، وأمر الزعماء بإرتدائه ، لا باعتباره شعار الحداد كما يقول رديك الطليطلي ، ولكن لكي يميز حزبهم من غيره ، وذلك لأن التوكل ، رأى أن يعترف بسيادة بني العباس خلفاء بغداد ، وشعارهم السواد ، لكي يستعين بذلك على قتال الموحدین .

ولم يرض سوى قليل ، حتى سارعت — بعد مرسية — معظم بقاع الأندلس إلى طاعة ابن هود ، ومبايعة ، ومنها مدن جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ؛ وزاد في قوته وساطتانه ما أعلنه من أنه عدو لندود النصراني ، وأن الخليفة العباسي قد أقر إمارته على الأندلس ؛ واضطر التوكل في بدء إمارته أن يخوض مع ألفونسو التاسع ملك ليون ممالك شديدة ؛ واستطاع ألفونسو أن يفتح عدة حصون على الحدود في مقاطعة استرامادورة ، وأن يهزم جيش التوكل الضخم في معركة هائلة انتهت بأسنيلاء الليونيين على ماردة ، وهي مدينة عظيمة على ضفة وادي يانة ، وعلى بطليوس وهي إحدى الحصون الثمينة ، وذلك في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) .

ولم يدخر التوكل وسماً في العمل على إسقاط المأمون ، أو معاونة منازعه على العرش المتصمم يحيى بن الناصر ، الذي أرسل من جديد جنوداً إلى الأندلس لمحاربة جند المأمون ؛ كذلك لم يفته أن يحسن الانتفاع بثورة أخى المأمون ، أبي موسى بن المنصور ، والى سبته ؛ ولم يكن من الصعب عليه — وقد حظى بمؤازرة الشعب الأندلسي كله — أن يهزم زعيم الموحدین ، بعد أن كان التوفيق يحالفه في عدة ممالك دمية ، وأن ينزع منه حصن غرناطة المنيع (سنة ١٢٣٠ م) ؛ وقصد الموحدون مدينة بعد أخرى ، ومقاطعة بعد أخرى ؛ ولم يروا أمامهم سبيلاً للاحتفاظ بما تبقى سوى عون النصارى الأسبانيين ؛ وكما حاول الأمويون ، ثم الرابطون من بعدهم ، في آخر أيامهم أن يحتفظوا بسلطانهم المضطرب بمعاونة المرتزقة

النصارى ، فكذلك شأن الموحدين^(١) .

وهكذا اتخذ أمير المؤمنين اثني عشر ألفاً من المرتزقة القشتاليين في خدمته ، وأرسلوا إلى المغرب لحماية العاصمة مراكش وإقليم المغرب من عدوان منافسه يحيى وأنصاره ، ونزل لقاء ذلك إلى ملك قشتالة عن عشرة من حصون الحدود ، ودفع إليه مبالغ طائلة من المال ، وسمح بإقامة كنيسة للنصارى في مراكش ، وتمهد بالآ بتعرض أحد في مملكة الموحدين كلها للنصرانية والنصارى بسوء ، وأن يؤذن للنصارى في الأندلس بقرع النواقيس في كنائسهم . أما ما قيل من أنه اشترط في معاهدة الصلح بين المسلمين ، أنه إذا اعتنق الاسلام نصراني ، فإن إسلامه يكون باطلاً ، وأنه إذا اعتنق النصرانية مسلم فلن يتعرض له أحد بشيء ، فما يشك فيه كل الشك ، كما أنه يشك أيضاً في صحة ما نسب إلى المأمون من أنه قال في خطبة ألقاها في الشعب ، إن المهدي مؤسس الدعوة المهدية وحكومة الموحدين مخادع مضلل ، « وإنه لا مهدي إلا عيسى ابن مريم عليه سلام الله وبركاته » ، ذلك أنه إذا كان المأمون ، كما يبدو صديقاً للنصرانية ، فإنه لم يكن باستطاعته أن يجاهر بذلك دون أن يفقد في الحالة عمره وحياته^(٢) .

ولم يدخر المأمون وسعياً في تحطيم خصومه ؛ ومع ذلك فقد كان يرى — والألم يحز في نفسه — كيف ينهار سلطانه يوماً بعد يوم ، وذلك بالرغم من أن حلفاءه النصارى كانوا ينشطون إلى معاونته بالنفوذات المستمرة والمارك المظفرة ضد محمد بن هود ؛ ولكن الأندلسيين لم تكن لترضيهم مخالفة النصارى ، بل كانت بالعكس

(١) تحدث ابن خلدون عن ثورة ابن هود على الموحدين وحروبه معهم بأسهاب في

الجزء الرابع من ١٦٨ و ١٦٩ .

(٢) يورد صاحب روض القرطاس جميع هذه الشروط ، التي اشترطها ملك قشتالة على المأمون نظير إمداده بالجند القشتاليين ومنها إقامة الكنيسة بمراكش ، وعدم الاعتراف بإسلام النصراني إذا أسلم ، وعدم التعرض للإسلام المرتد . كذلك يقول لنا إن المأمون خطب الناس بجامع المنصور ، ولئن المهدي وقال : « أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالمردى الدموم ، إنه لا مهدي إلا عيسى ، ولأننا قد نبذنا أمره النجس ... الخ » (س ١٦٧) ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية في بعض تفاصيلها (ج ٦ من ٢٥٣) .

حافظاً لهم على معاونة خصوم المأمون . وحدث أيضاً أن فقدت مقاطعة بالنسبة
لخصبة الفنية . ذلك أن واليها السيد أبا عبد الله محمد أخا المأمون ، لجأ في حماية
سلطانه من التوكل والأندلسيين الثائرين إلى طلب العون من جاييم الأول ملك
أراغون ، وانهى بأن يؤدي له الجزية ، وأن يكون تابعاً له ، فاشتد لذلك سخط
البلنسيين ، والتفرا حول أحد زعمائهم وهو أبو جليل زين بن أبي الحلات مدافع
ابن أبي الحجاج الجداى سليل آل سهرنيتش أمراء بالنسبة السابقين ، وطردهوا
الأمير المراتلى ، ونادوا بزبان أميراً عليهم ؛ فلم يجد السيد أبو عبد الله أمامه سوى
الالتجاء إلى ملك أراغون يطلب حمايته ، وأجابه جاييم إلى سؤاله باعتباره تابعه سيما
وقد اعتنق السيد وبناته النصرانية ^(١) ، وألقى جاييم عندئذ حجة لغزو بالنسبة ،
مؤملاً أن يحظى بالتأييد والعون من أنصار الأمير الموحدى فيها .

وفي تلك الأثناء ثار والى سبته السيد أبو موسى أخو المأمون ، وانضم مدونه
إلى ثوار الأندلس ؛ واستطاع يحيى الناصر بالرغم من الحماية النصرانية أن
يفتح مراکش ، وهدم الكنيسة التي أقيمت فيها ، ونهب النصارى واليهود
وقتلهم ^(٢) . فعندئذ رأى المأمون أن يترك الأندلس إلى مصيرها ، وإلى خلفائه
النصارى ؛ وركب البحر من إشبيلية — وهي المدينة الوحيدة الهامة التي بقيت
للموحدنين في الأندلس — إلى إشبيلية ، لكي يسترد مراکش قبل كل شيء ؛
ومن النادر أن تفص سيرة أميرة على شفا الانهيار بوضوح وصدق ، فالأورخ
الذى ينسب إلى هذا الحزب أو ذاك يفص حوادث هذا التمرد المضطرب في
الذال وفقاً لسايروى ؛ ومن ثم فانه ليس من المحقق ما إذا كان المأمون قد توفى
بالصرع قبل أن يصل إلى مراکش ، أو أنه خاض مع يحيى الناصر معركة وهزمه
ثم أسابه الموت فجأة وهو يدبر الأمر لاسترداد الأندلس ؛ وقد توفى في الثلاثين
من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١١٣٢ م) ، بعد حكم دام

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٦٩ .

خمسة أعوام ، كدرة الحروب المستمرة مع التوار ؛ وكان موته نذيراً بانهيار سلطان
الموحدين في المغرب بعد أن تم انهياره في الأندلس قبيل موته ؛ وبقيت في المغرب
من سلطان الموحدين أنقاض لبثت بعد ذلك زهاء نصف قرن ، ونحن نقص هنا
سيرتها بإيجاز ، وإن كانت لا تكاد تمت بصلة ما إلى تاريخ الأندلس .

وبعد وفاة المأمون حاول الحزب الذي رفع ابن أخيه أبا ذكريا إلى العرش ، أن
يحصل لارشحه على البابية العامة ، ولكن الحزب المعارض كان أقوى ، فعمل بتأييد
الحرس النصارى على تولية ولد المأمون أبي محمد عبد الواحد ؛ وهو صبي في الرابعة
عشرة من عمره ، وتلق بالرشيد ؛ واعترف بولايته معظم أقطار المغرب ، وقسم
من الأندلس يشمل إشبيلية والجزيرة ؛ أما يحيى فقد استمر أربعة أعوام أخرى
بمخوض معارك دموية كان يهزم فيها دائماً ، ثم توفي على مقربة من فاس ، وذلك
في شهر رمضان سنة ٦٣٣ هـ (يونيو سنة ١٢٣٦ م) ، ولكن لم تنقطع بوقاته
دسائس الأحزاب المختلفة ، وهي دسائس جد عبد الواحد في قمها ؛ وهكذا
استمر يعيش محوطاً بالقلال والفتن ، حتى وقع حادث سيء أودى لجأته بحياته ؛
ذلك أن جواده جمع ذات يوم ورخص به إلى بركة أو نافورة في حديقة ففرق ،
وتوفي في التاسع من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ (٤ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م) ،
وذلك بعد أن حكم عشرة أعوام وبضعة أشهر ؛ ولم يجاوز عند وفاته الرابعة
والعشرين من عمره ؛ وفي أثناء حكمه فقد المسلمون في الأندلس قرطبة وإشبيلية
وأراضي كثيرة أخرى ، استولى عليها النصارى من محمد بن هود وزيان بن
أبي الحلات .

وعلى أثر وفاة عبد الواحد نادى الموحدون بأخيه أبي الحسن علي — الملقب
بالسيد — سلطاناً عليهم ، وكان حكمه أحفل بالمصائب من حكم أسلافه ؛ وألقى
الموحدون خصوماً جديداً في بني زيان وبني مرين ، الذين أخذوا ينزعونهم
السيادة في المغرب ؛ وكان السيد أكثر توفيقاً في محاربة بني مرين ، إذ هزمهم
في معركة شديدة بمعاونة المرتزقة النصارى الذين في خدمته ؛ بيد أنه هزم بعد ذلك

في موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان ، وقتل أثناء القتال ، ولما
بعض على حكمه ستة أعوام بعد ، وكان مقتله في ٢٩ صفر سنة ٦٤٦ هـ (٢٤ يونيو
سنة ١٢٤٨ م) . وفي أثناء حكمه حاصر النصارى مدينة إشبيلية ، وهي آخر قاعدة
كبيرة بقيت بيد الموحدين بالأندلس ، ولم يستطع أن يحدها بالعاونة السكانية ،
فسقطت في يد فرديناند الثالث ملك قشتالة .

وخلفه في حكومة مراکش عمر بن أبي إبراهيم إسحاق ، وهو من أحفاد
أبي يعقوب يوسف ، وتلقب بالمرتضى ؛ وكان أميراً عاقلاً حسن الخلال ، ففسط
للقاومة خصوم أسرته مزبوراً بجميع الوسائل والقوى خلا من الطالع ؛ ولم
تفد جهوده — لإعادة نظم المهدي وتعالجه إلى سابق مكانتها بعد أن أبطل المأمون
بعضها — شيئاً في توطيد سلطانه ؛ ذلك أنه متى انهارت أسس دولة من الدول
فإنه ان تحول دون سقوطها دعائم قدعة مفوضة ؛ ولم يتأثر الشعب ذرة بحج
المرتضى إلى قبر المهدي في تيبال ، جريا على سنة الأوائل من خلفاء الموحدين ؛
ذلك أنه لم يكن يرى في مؤسس دولة الموحدين بعد نبينا ورسولاً . بل اعتاد أن
يرى فيه — وفقاً لأقوال حكومة المأمون — محتلاً مخادعاً . وهكذا فإنه بينما كان
المرتضى يحاول عبثاً رد القديم أن يقبل الملكة من عتارها ، كانت النواحي تخرج
من قبضة الموحدين واحدة بعد أخرى ؛ وكانت أنقاض سيادتهم في الأندلس
تؤول إلى أمير غرناطة محمد بن الأحمر ، أو إلى قشتالة والبرغال ؛ وامتدت في سبته
ثورة لم يقو المرتضى على إخمادها ؛ وسقطت قس في يد النرنيين ؛ ونهزم الخطاب
بمخرج أمير من أمراء الموحدين ، هو أبو الملاء إدريس بن أبي حفص بن إبراهيم
ابن عبد المؤمن الملقب بأبي دبوس ، وكان خروجه في ٢٥ محرم سنة ٦٦٥ هـ (٢٥
أكتوبر سنة ١٢٦٦ م) وحول أن يعمل لإسقاط عمر ، وانزعج ذلك لنفسه ،
فتحالف مع بني مرين ، وسلمهم مدينة مراکش بطريق الخيانة فاحتلوها ، وفر
عمر المرتضى ناجياً بنفسه ، متبوذاً من جميع أصدقائه ، فهاجم حيناً على وجهه حتى
قتله عبده المرافق له غيلة ، وذلك في ٢٢ صفر سنة ٦٦٥ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٦٦ م)

بعد أن حكم تسعة عشر عاماً إلا بضعة أشهر ؛ وحسن ذكره في الناس فيما بعد فكانوا يحجون إلى قبره كما يحجون إلى قبر قديس .

وعلى أثر ذلك ولي إدريس أبو دبوس - بمعاونة الرينيين - ذلك العرش المضطرب ، الذي طون هو على تقويضه ؛ وقبض على أبناء سلفه وزجهم إلى السجن تأمينا لحكومته ، بيد أنه لم يمض سوى القليل حتى أدرك إدريس معاونة الرينيين على حقيقها . ذلك أنهم طلبوا إليه أن يحكم باسمهم بانهياره تابعا لهم ، فأبى إدريس منفضبا ؛ وعندئذ نشبت الحرب بين الفريقين ؛ فحشد إدريس كل ما تبقى له من قوى الموحدين ، وبصد أن دام القتال بينهما حيناً ، وكان النصر بينهما سجالا ، انزعج الفريقان في العام الثالث ، في الثاني من محرم سنة ٦٦٨ هـ (أول سبتمبر سنة ١٢٦٩ م) ، في معركة دموية على ضفاف نهر وادي الزفير ؛ فقتل إدريس وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، وذلك بعد أن مرق جيشه وسحق في كل ناحية وقتل معه سواد الموحدين في ميدان الحرب ؛ وكانت هذه المقتلة ، هي مقتل سيادة الموحدين ؛ فانهارت دولتهم ، بعد أن قامت مدة واحد وخمسين ومائة عام ، وانتهت بالربع عشر من أسرارهم ، وهو إدريس أبو دبوس ، لكي تعقبها دولة بني سرين .

الفصل السادس

نزاع جاييم الفاتح مع عميه وحروبهِ ضد المسلمين

في الجزائر الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه

المملكة لسيادة أراجون

كان نبأ موت بيدرو نذير اضطرام فتن شديدة بين أنشراق أراجون وقطالونية ؛ كذلك نهض أخوا الملك التوفي وهما سانشو وفرناندو في الحال مطالبين بالعرش ، منكربن محبة مولد جاييم (خاييم) أو يعقوب ، لأن بيدرو نفسه كان يعتبر زواجه من ماريا باطلاً ؛ ولكن البابا كان قبيل وفاة بيدرو قد أعلن محبة هذا الزواج ، ولذلك أعلن معظم رجال الدين ، وفريق كبير من الفرسان تأييدهم لجاييم ، باعتباره وارثاً للعرش ؛ وأرسلوا سفيراً إلى البابا أنوسان الثالث ، وحصلوا بمعاونته على استلام وارث العرش من الكونت سيمون دى مونفور ؛ وأحضر « جاييم » وهو طفل في السابعة من عمره إلى أراجون برفقة بطرس مطران بنقنت والكونت ريمون برنجار صاحب بروفانس ، وذلك سنة ١٣١٤ م ؛ وفي مجلس النواب الذي عقد في لارده ، وشهده رجال الدين ، والأنشراق والفرسان ، وكذلك عشرة نواب من كل مدينة ، أعلن جاييم ملكاً شرعياً للبلاد ؛ ولا كان المان قد استطاعا أثناء غياب جاييم عن أراجون أن يחד كل منهما فريقاً كبيراً من الأنصار ، ولم يحضرا مجلس النواب ، فقد رأى المطران أن يطلب إلى الحاضرين أن يقسموا بين الطاعة في الحال للملك ، وهو ما لم يحدث قط من قبل في أية تولية سابقة .

وأصدر المجلس قراراً بأن تسند تربية الملك الطفل وحراسته إلى أستاذ فرسان
الداوية في مملكة أراجون وهو وليم دي موزيدون ، وهو من أشرف قطلونية
الذين امتازوا بوافر عنايتهم وفروستهم وتقافتهم ، وأن يسند حكم البلاد إلى ثلاثة
من حكم المقاطعات ، منهم اثنان عن أراجون ، والثالث عن قطلونية ؛ وأسندت
الوصاية إلى سانشو كونت روسيون حتى لا نهضم حقوق المميين .

ولكن هذه الإجراءات لم تنجح في قمع الفتنة من البلاد ، بل زادت
اضطراباً ؛ وكانت أطباع عمى الملك الذين لم ينزلا عن دعواها في المرش ، أهم
أسباب القلاقل في البلاد ؛ وكما يملأن فقط لتحقيق مصالحهما الخاصة ، وينفقان
موارد البلاد في سبيل أغراضهما ، وترتب على ذلك أن انهدمت موارد البلاط
المالية ، وكانت قد اضمحلت من جراء إسراف بيدرو ؛ وكان القضاة الملكيون
يبيعون المدالة ليحصلوا قوتهم ؛ وبذا كان كل شيء ينذر بالخلال الماسكة . وهنا
نهض الشيخ الأمين الموقر كينو كورنل ، فعمل على إنقاذ الماسكة من السقوط ،
وعلى تأمين المرش لجاييم ، الملك الذي يمانى نوما من الأسر ؛ ذلك أنه عقد حلفاً
بين المخلصين من مواطنيه ، وعمل هؤلاء على تسهيل الفرار للملك الفتي من حصن
موتزون حيث كان سجيناً تحت إشراف عمه الطموح سانشو ، وأحضروه إلى
سرقسطة ، وذلك في سنة ١٢١٧ م ؛ ومع أن جاييم لم يكن في ذلك الوقت يجاوز
العاشرة من عمره ، فإنه كان يبدو من حيث نموه الجسمي والعقل فوق سنه ؛ وكان
يعنى بشؤون الدولة بمعاونة بعض الوزراء الأكفاء ؛ وفي العام التالي استدعى
مجلساً نيابياً في لاردة ، وفيه اتفق مع عمه سانشو ، على أن يقطعه أملاً بكاشاسمة ،
ودخلاً حسناً ؛ ولقاء ذلك نزل سانشو عن الوصاية ، وعن دعواه على المرش ،
وأقسم بين الطاعة المنشود .

وهنا ظهر المم الآخر فرناندو ، وغدا أخطر عدو للملك . وكان أقوى
الأمراء الإقطاعيين يضطرمون عناداً ومعارضة ويرفضون الإذعان للأوامر
الملكية ، وسرعان ما شهروا على الملك الفتي حرباً شمواء ؛ فانهز فرناندو هذه

الفرصة ليمثل على نزع ابن أخيه عن العرش ، والتف حوله الخوارج والثوار ؛ وحاول كل حزب أن يحصل على شخص الملك لكي يستطيع الحكم باسمه ؛ وهكذا وقع جايم في يد آل مونكادو وآل آهوني ، وهما أسرتان قويتان ، لم يلبثا أن استأثرا بجميع السلطات ؛ وكان فرناندو يشترك في جميع هذه الحوادث ، وقد استطاع أن يسيطر على مدن مرسطة ووشقة وجاغة وأن يحملها على الانفصال عن المملكة ؛ ولكن الخلاف والحسد اللذان دبا إلى الحلفاء ، وخلفاء منهم أحزاباً جدداً ، ونصرف جايم الحكيم في جميع المآزق ، قضت على عمل الأطايع والخيانة ؛ وكلما اعتقد فرناندو أنه أوشك على تحقيق الغاية بسدت عنه ؛ واستطاع جايم أن يوثق أواصر تحالفه مع قشتالة بزواجه من الينور ابنة ألفونسو النبيل (سنة ١٢٢٦ م) ، وعاون ذلك على تسوية الخلاف بين الأحزاب الخصيمة لدى قمبر ؛ ولكن سرعان ما عاد فرناندو وأنصاره الأقوياء إلى غطرستهم ؛ وفي سنة ١٢٢٥ م ، استطاع جايم أن يفر من قبضة خصومه الأقوياء مرة أخرى ؛ وحاول - بشهر الحرب على المسلمين - أن يسترد هيئته الملكية ، ولكنه لم يوفق في البداية ، إذ لم يتجه إلى ميدان الحرب سوى القليل من البارونات والفرسان ؛ على أن الملك الفتى لم يبن عزيمته من قلة أعماله واصحاب المحدثه ، وما زال مصراً على تأييد حقوقه بالسيف ضد جمهرة الخوارج عليه ، وقد أبدى في ذلك من الاقدام والغرائز والحلا ، مثلاً أبدى من البراعة في الحرب ، والذكاء ، وضبط النفس . وكانت معظم المدن قد انحازت إلى فرناندو ، وانحاز إليه أيضاً فريق من رجال الدين ، وأعلن معظم البارونات والفرسان خصومتهم للملك ، ونسج الكثيرون منهم فرناندو ؛ وكانت مدن مرسطة ووشقة وجاغة الرنة مما يرباط التحالف الوثيق تعتبره حامياً والمدافع عنها . ولكن جايم استطاع في النهاية ، بمفاوضات بارعة مع الأحزاب ومساندة زعماء الحزبين الكبيرين في قطلونية ، وما أبداه من العزم والحزم ، أن ينزع سلاح خصومه ؛ وما لبث أن انفض عن فرناندو معظم أنصاره فجأة ، فخارت عزيمته ، وبادر بالتضوع لجايم

والتماس عفوهِ ورأفته ، وذلك في مدينة طرطوشة في سنة ١٢٢٧ م . ولم يرد الملك أن يدفع بالقسوة خصومه إلى صراع اليأس ، فلم يكتف بالعفو عن عمه ، بعد أن بايحه بالطاعة وأقسم له بيمين الاخلاص ، بل زاد على ذلك أن أقطعه ثلاثين ضيعة من ضياع الفرسان ، وشمل بمفوه جميع أنصاره ؛ وعهد بقمع الفتن الباقية إلى مطران طركونة وأسقف لاردة ، وأستاذ فرسان الداوية في أراجون ؛ وهكذا تمت تهدئة البلاد بسرعة بعد أن عصفت بها الحرب الأهلية طويلاً ؛ واحتفل بعود السكينة إلى البلاد بتنظيم مواكب الشكر والحفلات الشعبية .

وما كاد يستتب الهدوء الداخلي ، ويطمئن جاييم إلى توطد عرشه حتى عاوده شغفه القديم الذي لازمه منذ الصبا في مقارعة أعداء دينه . واعتزم أن يخصص كل عنايته لمحاربة المسلمين ؛ ولا ريب أنه كان حكيماً بميد النظر حينما بادر بعد قمع الفتن الداخلية ، إلى أن يفتح للبارونات والفرسان الظمئين إلى الكفاح ميداناً للحرب ، يستطيعون أن يخصصوا فيه حياتهم للحرب والقتال دون إضرار بالوطن . ذلك أن غزوات جاييم ضد المسلمين كانت إلى حد ما وسيلة لاجتئاب الحرب الأهلية ، وكان قد حاول أن يقوم بمثل هذا الدور في صباه ؛ بيد أن الوقت لم يكن قد حان بومئذ للقيام به ، إذ كان لا بد من تحقيق وحدة البلاد بادي ذي بدء . وقد أنشأ جاييم في بداية حكمه جمعية عرفت بجماعة الرحمة لكي تعمل على اقتداء النصارى من أسر المسلمين ، وعين لرياستها أحد رؤدييه ، وهو الشيخ الوردع بيدرو نولاسكو ، وربما كان لهذا الشيخ كبير أثر في كون جاييم قد حرص حياته كلها لمحاربة المسلمين .

وفي سنة ١٢٢٨ م ، حينما كان جاييم ينفذ بلاطه في طركونة ، وبرفته جمهرة كبيرة من البارونات والفرسان ، تقرر في إحدى المآدب أن تنظم حملة ضد جزيرة ميورقة ؛ ومن قبل جاييم حاول بضممة من ملوك أراجون افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وكانت ولاية قطلونية أيضاً قد استطاعت أن تشهر عليها مدى حين حروباً موفقة . وأثار بيدور مارتل وهو بحار مجرب من طركونة ،

أطاع الحضور وغضبهم ، بما قصه عليهم من غنى الجزيرة وخصبها ، وما يقوم به سكانها من آن إلى آخر من سبي التصارى ، وما يضمه أميرها للأرجويين من البغضاء والمداوة . وعندئذ طلب الحضور إلى الملك أن يشهر الحرب على الأمير المسلم — وكان هذا الأمير يمازله أيضاً بصلف واحتقار — وأعلن الملك استمهاده المبادرة إلى ذلك . وأقسم أنه لن يعتبر نفسه ملكاً شرعياً قبل أن يتم افتتاح ميورقة .

ولما كان أهل فطلونية نظراً لما يزاوونه من التجارة البحرية يهتمون بهذا المشروع أعظم اهتمام ، فقد رأى جامم أن يعتمد بالأخص على معاونهم . وفي ديسمبر ١٢٢٨ م عقد مجلس نيابى فى برشلونة ، تقرر فيه أن يوطد السلام الداخلى قبل كل شئ . وصرح بواب الطبقات للملك بأن يجيب « ضريبة الماشية » من كل زوج من الثيران بمسفة استثنائية ، وهى الضريبة التى كانت فيما بعد تجب مرة واحدة عند ولاية كل ملك ؛ وأوضح كل من الحضور نوع المساعدة التى يمتزم بتقديمها إلى الملك فى هذه الحلة . ووعد جامم — من جانبه — بأن يقسم حزاء مما يفتح على جميع الذين ساهموا فى هذا الفتح كل بنسبة ما قدم من عون ؛ وندب لتعديد هذا الجزء والجزء الذى يخصص له لجنة من أسقف برشلونة وبعض الأشراف ؛ ولم نفس الكنيسة ورجال الدين ، إذ خصص لهم حزاء لا بأس به ؛ وبعد أن تم التفاهم على تقسيم الأرض المفتوحة على هذا النحو ، تقرر أن يكون نذر سائر مكان الاجتماع ، وأن يبدأ فى تنفيذ المشروع فى نهاية مايو سنة ١٢٢٩ م .

وكان انحلال سيادة الراحدين السريع قد انتهى يومئذ إلى حالة برئى لما مما يهدد انجاح مثل هذا المشروع . وكان السيد أبو عبد الله محمد المنصور ، أحد المأمون والحاكم على بلنسية والجزائر الشرقية ، قد نزع من ولايته قبل ذلك بقايل على يد الأمير زيان بن أبى الحلات ، وأخرج من أرضه ؛ وفر السيد المنزول إلى ملك أراجون ، وكان قد تعهد له من قبل بأداء الجزية وسأله أن يحارب مقتصب ولايته ، وأن يعيد إليه أرضه ؛ فأكرم جامم وقادة الأمير القصار ، ووعد بأن ينظم حملة من أجله ؛

وأومع بأن الحملة التي كانت أعدت من قبل لتزو ميورقة ، إنما أعدت من أجله وفي سبيل معاوته .

وفي الوقت المحدد اجتمع الجيش الذي اتخذ الصليب شعاره ، وأبحر في مائة وخمسين سفينة كبيرة ، وعدد كبير من الزوارق الصغيرة ، وانضم إلى الحملة كثير من الجنويين وأهل بروقانس .

وكانت جزيرة ميورقة يومئذ تحت حكم واليها أبي عثمان سميد بن حكر بن عمر القرشي وأصله من طابرة بفرب الأندلس وبها ولد ، وكان يحكمها من قبل الأمير أبي جميل زيان بن مدافع . وكان قد علم بأمر الحملة التي تهدد الجزيرة منذ البداية فحشد جيشاً ضخماً ، رتبته في الأماكن التي يحتمى أن ينزل منها لخشب الماسم ؛ وبلغ عدد الجند المسلمين يومئذ نحو اثنين وأربعين ألف مقاتل . ومع ذلك فقد استطاع النصارى النزول إلى الجزيرة في منتصف الليل بسلام ، قبل أن يستطيع المسلمون رددهم ، واستولوا على الشواطئ . على أن هذه البداية المؤقتة لم يعقبها ما كان منظوراً من النجاح ؛ ذلك أن النصارى كانوا يلقون في كل خطوة يتقدمونها دس الجزيرة صعباً ويتكبدون خسائر . وبالفون في كل مكان كيناً وممارك يأس ومقاومة باسلة ؛ وقد سقط كثير من قادة الجيش الصابي في المارك الدسوية قبل أن يستطيع التقدم إلى عاصمة الجزيرة ويتاح له أن يحاصرها . ونهض عندئذ راهب دس مينكي اسمه مجويل باقى في الجند مواظباً ملتزمة لسكى بساقي حماستهم وشففهم بالقتال ، ويحفزهم إلى الجلاء والاستبسال ؛ هذا إلى ما كان يدركهم من أمل الحصول على ثروات المدينة وكنوزها ؛ وهكذا سار الحصار في طريقه بالرغم من عطشه وما كان يحيط به من الصعاب . ولكن حدث بعد أن سلم بعض زعماء الأرض السهلة ، وأبدت المدينة المحصورة رغبتها في التسليم وعقد الصلح ، أن هب مسلمو الجزيرة جميعاً إلى المقاومة من جديد ؛ والظاهر أنهم كانوا يتوهمون نزول الأمطار ودخول الشتاء ؛ عندئذ لم يتردد جاييم في أن يهاجم المدينة للاستيلاء عليها ؛ وكان من المحتوم عليه يومئذ أن يجد مخرجاً موقفاً للحملة كلها ،

إذ كان من التمدد عليه أن يبقى طويلاً في جزيرة لا تتسع إلا لحرب صغيرة . ففي آخر يوم من سنة ١٢٢٩ م (صفر سنة ٦٢٧ هـ) قاد جاييم جنوده لمهاجمة المدينة ، بعد أن شهدوا القداس ورتدوا الموت ، وهزم المسلمين الذين خرجوا للقائه ، وطاردهم ، واستولى على المدينة عنوة ، وغادرها المسلمون قاربين ، وامتنع الوالي سميد بن حكم بالقلعة أياماً آخر . ولكنه لما لم يبر آملاً في الإيقاد ، استسلم للفاخر ، وبأبىه بالطاعة على أداء الجزية ^(١) .

ومع ذلك فقد استطاع فريق كبير من المسلمين أن يظل محتفظاً باستقلاله ، معتصماً بكرموف الجبال ومقاوماً . واضطر جاييم أن يعود إلى الجزيرة صريتين ، في سنتي ١٢٣٢ و ١٢٣٣ . وذلك لكي يحارب الزعماء الذين لم يقدموا طاعتهم وبطاردهم في ساقاهم ، ولكي يحمي الجزيرة أيضاً من غزوات مسلمي تونس ، وقد حاولوا العمل على استردادها من النصارى ؛ وجد جاييم في إخضاع الجزيرة ، وكان قد أفر من قبل والدهما السابق سميد بن حكم حاكماً عليها ، معتقداً أن في ذلك ما يخفف وطأة سيادة النصارى على الشعب المغلوب ؛ ولكن النازعات اضطرت

(١) تختلف الرواية العربية في أسر والي مبورقة وقت سقوطها في يد النصارى فيقول ابن أبي سعيد إنه كان عندئذ أبو يحيى بن أبي عمران التينيلي ؛ وقال الخزومي في تاريخ مبورقة إن أمرها يومئذ كان محمد بن علي بن موسى ، وقد وليها منذ سنة ست وستائة ؛ وقد حقد عليه ملك النصارى بتكرار اعتدائه على السفن النسيبة له في مياه الجزائر الشرقية فجهز حملة لمحاربه ، واستولى على مبورقة في يوم ١١ صفر سنة ٦٢٧ هـ ، وأسر الوالي وعذب ومات من المذاب بعد ذلك بسير (راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٤) . وأما سميد بن حكم ، فقد كان عندئذ والياً لجزيرة منورقة ثمانية الجزائر الشرقية ، فلما سقطت مبورقة في يد النصارى ثار بجزيرته ، ثم تصالح مع النصارى على أداء الجزية (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) . وذكر ابن الأبار في الحلة السيرة ، وهو ماصر لهذه الحوادث ، رواية أخرى مفادها أن سميد بن حكم تغلب على مبورقة قبل سقوطها في يد النصارى بقليل ، وعين من قبل واليها وهو يوشد القاضى أبو عبد الله محمد أحمد بن هشام والياً لمنورقة ؛ ثم ثار بالقاضى وانتزع منه مبورقة وانفرد بحكمها منذ سنة ٦٣١ هـ ؛ ولما كان ابن الأبار يتفق مع باقي الروايات في أن سقوط مبورقة في يد النصارى كان في صفر سنة ٦٢٧ هـ ، فمنى ذلك أن القاضى كان والياً وقت سقوطها ، وأنه تصالح مع ملك النصارى ثم ثار به سميد بن حكم وحل مكانه في حكمها مع تمهده بأداء الجزية للنصارى (الحلة السيرة ص ٢٥٥) .

داخل الجزيرة بين المسلمين ، ووقع التفاهم بينهم وبين مسلمي إفريقية ؛ ولذلك رأى جاييم حينما ذهب إلى الجزيرة للمرة الثالثة في سنة ١٢٣٣ م ألا يبق المسلمين من ضروب الحرية سوى القليل ؛ وحصل البارونات والفرسان القطلونيون الذين ظهروا في هذه الحرب ، على معظم الأرض المفتوحة بطريق الإقطاع ، وكذلك خضع المسلمون في جزيرة منورقة لسيادة النصارى ، وقدم زعماءها طاقمهم الملك أراجون واعترفوا بسيادته . ولم يكن من الصعب على مطران طركونة أن يفتح أصغر الجزائر الشرقية ، وهي جزيرة يابسة التي أعطاهما الملك لكثيسته ، وقد استولى عليها في سنة ١٢٣٥ م بمعاونة البارونات والفرسان القطلانيين ؛ ثم إن الأمير بيدرو البرتنالي — الذي عاش فيها يبدو مدى حين متفيا في مراكش ، وجاء بسد ذلك إلى قطلونية وحصل على إمارة ولاية أوردقة (أورجل)^(١) بزواجه من صاحبها الكونتيسة — استولى على جزرني ميورقة ومنورقة من جاييم بدلاً من ولايته .

وعلى أثر فتح الجزائر الشرقية ، وقع فتح أم ، هو فتح بلنسية . وكان السيد أبو عبد الله محمد ، الذي يسميه النصارى : زيت أبو زيت^(٢) قد فر منذ سنة ١٢٢٩ م متنجاً إلى ملك أراجون ، لمعاونة على محاربة مفتصب أرضه أبي جيل زيان ، فوعده الملك بتحقيق مطلبه وعقد معه حلفاً بذلك ؛ وتعهد السيد من جانبه بأن ينزل إلى أراجون عن ربع الأراضي التي يستردها ؛ وفي الوقت الذي شغل فيه جاييم بفتح ميورقة ، أخذ السيد محمد بمعاونة الفرسان الأرجونيين ، ولا سيما بمعاونة بيدرو فرنانديز دي أزاجرا ، وبلاسكو دي الوسون ، بشهر الحرب على خصمه ؛ ولكن السيد لم يوفق في هذه الحرب ، إذ كان يعتمد على قوى قليلة ، وكان الدفاع عن الأراضي المنزوعة قويا متيناً .

(١) هي بالأفريقية Urgel ، وهي ولاية صغيرة تقع في شمال غربي قطلونية في سنج جبال البرنية .

(٢) وأمه بالبرية أبو زيد وهو كنية السيد .

بيد أنه لما انتهى جاييم من إخضاع ميورقة في سنة ١٢٣٣ م (٦٢٧ هـ) واشترك بنفسه في الحرب ضد بانسية ، أخذ التوفيق بحالف النزاة . وأرغمت برّاية^(١) ، الواقعة على البحر ، بعد حصار دام شهرين ، على التسليم ، بالرغم من دفاعها المجيد ؛ وسقطت من بعدها عدة من الحصون ، وكذلك حصن بنيسكولا ، وكلاهما حصون أمامية لحصن بانسية الكبير . وبذل الأمير أبو جيل زيان كل جهد مستطاع ليقف تقدم الأراجونيين ، بل حاول فوق ذلك أن يقوم بفزو أراضيهم ؛ وعقد في هذا السبيل حلفا مع محمد بن هود ، الذي يسيطر على غرناطة وحصانية وجزء كبير من الأندلس ؛ وشجعه أمه في أن يبادر ابن هود إلى نصرته بجيش ضخم ، على أن يسبر المحاصرة حصن شنتمرية ابن دزين (شنتمرية الشرقي) وهو من أهم الحصون الأراجونية ؛ بيد أن التوفيق لم يحالفه ؛ واستطاعت الحامية النصرانية التي كان يقودها بيدرو فرنانديز دي أزايرا بكثير من الشجاعة والجلد أن تحطم كل جهود زيان ، فاضطر بعد محاولات عقيمة أن يمود أدراجة إلى بانسية .

واجتمعت عدة عوامل لتعاون ملك أراجون في مشروعه لفزو بانسية ؛ فقد استطاع في مجلس النواب الذي عقد في مونزون في أكتوبر سنة ١٢٣٦ ، أن يحمّد منازعات الأحزاب التي عادت إلى الظهور في أراجون ، وأن يحقق حريات البلاد ، بحيث أتيح له أن يدعّر جميع البارونات والفرسان الإقطاعيين وكذلك المدن إلى الانضمام إلى الجيش . وكذلك عهد البابا حرمجوردى التاسع إلى تأييد المشروع ، وأعلن في جميع أمم الغرب النصرانية ، أن الحرب ضد بانسية هي حرب صليبية ؛ وكان من أثر ذلك أن قدمت فيما بعد جموع من فرنسا وإنكلترا لتشارك في هذه الحملة . وقرر جاييم عزيمته الأكيد على أن يفتح بانسية ، وأقسم ألا يعود إلى مملكته إذا لم يفز بفتحها ؛ وحذا حذو الملك كثير من البارونات والفرسان ، وكان لذلك وقع حسن في الجيش كله .

(١) هي بالأفريقية Burriana وهي تتر صغير يقع شمال بلنسية .

وفي سنة ١٢٣٧ م زحف جاييم على مملكة بلنسية بنفرضها بالوبل ، مجيش يقدره النصرارى بألف من الفرسان وستين ألفا من المشاة ، وتقدره الرواية المربية بأكثر من ثمانين ألفا . وكان الأمير زيان في حالة سيئة ، خصوصاً وأن حاييفه محمد بن هود ، الذى كان يعتمد على عونه أبداً اعتماداً ، وكان عندئذ يدر إمداده بأسطول وجيش ، قتل عندئذ في ثغر المربة ، وغاض كل أمل في الانتفاع بقواته . وهنا حاول زيان أن يتقى العاصفة التى تندره ، بأن يمرض جميع الحصون الواقعة بين طرطوشة ونهر الوادى الكبير ؛ ولكن جاييم أراد أن يقضم الفرصة السانحة بأكلها ورفض كل عرض من هذا القبيل .

وبذل فرسان زيان — وهم كثرة — كل ما استطاعوا ليحولوا دون تقدم الجيش النصرانى . واشتبكوا معه في معارك مستمرة ؛ ومع ذلك فلم يكن من الميسور أن يردوا جيشاً يفيض حماسة لافتنال في سبيل دينه ، ويفريه أمل الحصول على غنائم عظيمة ؛ وهكذا سقطت جميع القلاع والحصون الواقعة حول بلنسية تباعاً ، وأحاط النصرارى بالدينة من البر والبحر ، وذلك في السابع عشر من رمضان سنة ٦٣٥ هـ (مايو سنة ١٢٣٨ م) ومع ذلك فقد لبث أبو جميل زيان يؤمل النجدة ، وقد أرسل في طلبها إلى الأندلسيين ، وكذلك إلى أقربائه بنى زيان في إفريقية ؛ ولكن الأندلسيين كانت تشغلهم الحروب الأهلية ، ويهددم نصرارى قشتالة ، فلم يكن بوسعهم أن يلبوا النداء ؛ وأما بنو زيان في إفريقية فقد جهزوا أسطولاً صغيراً ، وحاولوا النفاذ به إلى ثغر بلنسية ، ولكن حال دون بنيتهم الأسطول المحاصر ، والمواصف الشديدة ، فسادوا إلى إفريقية من حيث أتوا ، دون أن ينفعوا البلنسيين بشئ^(١) .

(١) راجع في سقوط بلنسية ، فتح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ - ٥٨٠ وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و ١٨٣ ، وكان الأمير زيان حينما حاصر النصرارى بلنسية وتوقع سوء المصير ، قد استعان بصاحب إفريقية (تونس) الأمير أبو زكريا بن أبي حفص ، وأوفد إليه كاتبه الصغير أبا عبد الله بن الأبار الفضائى صاحب كتاب الحكمة (نكتة الصلة لابن يشكوال) ، وأعقاب الكتاب ، والحلة السراء وغيرها ، سفيراً يرجوه الموت والإمداد ، وأنتداه بن الأبار بهذه =

والأطال الحصار واشتدت وطأته ، وبلغ الإعياء بالمسلمين مبلغه من الهجرات المستمرة ، وبش زيان من الانجاء ، اضطر أن يفاوض النصارى في تسليم المدينة ؛ وعقدت معاهدة التسليم بين الفريقين في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) ، وذلك بالرغم من سحق البارونات والفرسان ، إذ كان يحدوهم أمل الفينة والنهب . واشترط أن تسلم بالنسبة إلى ملك أراجون ، على أن يؤمن جميع سكانها في أنفسهم ، وأن تكفل لهم حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى حيث شاءوا ، وأن من آثروا البقاء في بلنسية منهم ؛ كفلت لهم الحرية في مزاوله شغلهم وشراعتهم وعاداتهم ، وألا يدفعوا من السكوس أكثر ما يدفع رعيا ملك النصارى الآخرون ؛ وأنه يجب في ظرف عشرين يوماً أن تسلم إلى ملك أراجون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقر اليسرى ؛ وفي نظير ذلك يمنع ملك أراجون إلى زيان ورعاياه المسلمين المهددة لدة سبعة أعوام . وفي اليوم المحدد دخل ملك أراجون نهر بلنسية في موكب نفخ ؛ وفي الحال حول مسجدها

== المناسبة بين يدى السلطان ابن زكريا نصيده الشهيرة التي تعتبر من غرر القصائد في رثاء دولة الإسلام بالأندلس ، ومظلمها .

أدرك بحبك خيل الله أندلسا	إن السبل إلى منجياتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما القمت	فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاشي مما تمنيه حشايتها	نظالسا ذات البأسى صباح ما
يا للجزيرة أضحي أهلها جزوا	للعاديات وأسى جدها تمسا
في كل شارقة لإلام بارقة	يمود مأنعها عند الدنا عرسا
وكل غاربة أخجال شائبة	نقى الأمان حذارا والسرور أسى
نقاسم الروم لا نالك مفاسمهم	إلا عقائلها المهجورة الانسا
وفي بلنسية منها وفرطية	ما ينسف النفس أو ما يتزف النفا
مدائن حلها الإشراف مبتها	جذلان وارنحل الأيعان مبتها
وصيرتها الوادى الفانيات بها	يتوحش الطرف منها منصف ما أنسا

وهي طويلة وبها رواثر من البيان للزفر . وبادر الأمير أبو زكريا الحفصى إلى لغاة أهل بلنسية ، وبث إليهم في سفته بالجند واللؤن ، ولكن ذلك لم يتخذ بلنسية من قضائها المحترم . ولما سقطت بلنسية رجع ابن الأبار بأهله إلى تونس واستقر بها ، ولابن الأبار رسالة بليغة مؤثرة في رثاء بلنسية أوردتها صاحب فتح الطيب (ج ٢ ص ٥٩٧ وما بعدها) . وفي روض الفرباس أن سقوط بلنسية في يد النصارى كان في سنة ٦٤٢ هـ ، وهو خطأ واضح (ص ١٨٢) .

الجامع على يد أسقف طركونه إلى كنيسة للنصارى ؛ وغادر المسلمون المدينة ، وهم زهاء خمسين ألف نفس في نحو خمسة أيام ، وهاجروا إلى ما وراء نهر شقر ، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا غير آمنين في ظل حكم النصارى ؛ هذا إلى ما شهدوه من أن عدالة ملك النصارى وحدها كانت تحميهم من غضب فرسانه ؛ وقسمت منازل المدينة ومناطقها بين رجال الدين والبارونات والفرسان ، وأهل المدن التي اشتركت في الفتح بنسبة ما اشتركت به الجند ؛ وكان أغلب الفرسان الذين أحرزوا الأملاك في بلنسية ، وعددهم ثلاثمائة وثمانون من أهل قطلونية ؛ وكان هؤلاء أكثر ميلاً من أهل أراجون إلى البقاء في تلك الأراضي البدية الخصب التي سميت بمخ حديقة كبرى ؛ وقد أسندت إليهم بالأخص مهمة الحراسة والحرب ، ورئب منهم مائة فارس يبقون دائماً تحت السلاح ، ثم يستبدلون بغيرهم كل أربعة أشهر . ونظراً لكثرة التارحين من القطلونيين ، كانت القوانين واللوائح التي يسنها جايم لبلنسية تصدر باللغة القطلونية ، وهو ما كان يثير سخط الأراجونيين .

ورأى جايم أن عمله يكون ناقصاً إذا لم يتم الاستيلاء على مملكة بلنسية كلها ، وخصوصاً على المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر شقر ، وعلى حصونها الهامة . كذلك كان جايم يود أن يسبق قشتالة التي أخذت في الإغارة على أراضي مرسية ، قبل أن تستول على هذه المنطقة . ولما كان الأمير زيان لا يزال قائماً بمجاربة معظم زعماء هذه النواحي ، فقد كان يوسع جايم في البداية أن يقوم بحملاته وفتوحه ضد المسلمين دون أن يتهك نصوص الهدنة التي عقدت بينه وبين زيان . وفي الوقت الذي كان فيه زيان يحاول في جموع المسلمين التي هاجرت من بلنسية أن يتناض عما فقده من مملكته بفرو أراضي مرسية ، والاستيلاء على بعضها بالفعل ، عبر فرسان الداوية والقديس يوحنا وكثير من الفرسان القطلونيين نهر شقر ، وتوغلوا فيما وراءه حتى ظاهر شاطبة ، وافتتحوا عدة من الحصون ، وأحرزوا على جموع المسلمين الكثيفة عدة انتصارات نسبت إلى الماونة الإلهية أكثر ما نسبت إلى قوتهم وشجاعتهم ؛ ولم يمض قليل على ذلك حتى طرح جايم جانباً كل اعتبار يتعلّق باحترام نصوص الهدنة ، وعمد إلى افتتاح باقي أراضي مملكة بلنسية بكل

ماوسع من عزم وقوة ؛ واحتج المسلمون وأميرهم زيان بشدة على هذا الانتهاك وهذه الخيانة ، وقالوا إنهم لم يسلموا إليه بطنسية إلا مقابل عقد الهدنة لبضعة أعوام ، وكان أشق ما في هذه الغزوة الاستيلاء على حصن شاطبة النبيع بموقعه ، ولم يكن من الميسور أن يتقدم النصارى في فتوحهم دون الاستيلاء عليه . وكان النصارى قد حاصروا شاطبة عبثاً في سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) ، واضطر جاييم أن يترك الحصار ، ومع ذلك فإنه لم ييأس ولم تنثر عنته ، ولجأ إلى جميع الوسائل من الخديعة والإقناع والوعيد والعنف ليحقق بغيته بالاستيلاء على المدينة . وقد وفق بعد جهود طالت أربعة أعوام إلى أن يكسب حاكم شاطبة — وهو من أنصار الموحدين — بالوعود المغرية ؛ وكان قد حاول عبثاً أن يحصل على معاونة القشتاليين ؛ واستولى جاييم على شاطبة في سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) ، وكان لذلك وقع أليم في نفس ملك قشتالة إذ كان يود أن يفتتح المدينة لنفسه ؛ واشترط أن يبقى المسلمون في شاطبة في أملاكهم آمنين ؛ بل استمرت إحدى قصبات المدينة في قبضتهم زهاء عامين ، وحصل حاكمها لنفسه ولأنصاره على حصن متريزه ، وبلاّده .

وفي نحو هذا التاريخ — قبله أو بعده بقليل — استولى جاييم على ثغر دانية ؛ وكان صاحبها الزعيم الباسل يحيى بن محمد عيسى أبو الحسين ، أحد أنصار الأمير المنكود محمد بن هود ؛ وقد أبدى في الدفاع عن المدينة كثيراً من الشجاعة والبراعة ، ولكنه اضطر أخيراً إلى التسليم ، بعد أن ضربها ملك أراجون من البر والبحر بالمنجنيقات ؛ ودخل جاييم ثغر دانية في مستهل ذي الحجة سنة ٦٤١ هـ (مايو سنة ١٢٤٤ م)

وكان المسلمون لا يزالون كثرة في هذه الأنحاء ، يتوردون ضد النصارى كلما سنحت الفرصة ؛ ولهذا لم يهدأ بال جاييم ، ولم يعتبر فتحه كاملاً ، قبل أن يطرد جميع السكان المسلمين من المملكة ، وقد تم ذلك في سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) وتلفت مملكة غرناطة جميع اللاجئين ، وزاد بذلك سكانها وقوتها ، وأسبغ فتح مملكة بطنسية على جاييم لقب « الفاتح » .

الفصل السابع

فتوح فرديناند الثالث في جنوبي اسبانيا

ونهاية سلطان الموحدين في الأندلس

بينما كان جاييم ملك أراجون يفزو مملكة بلنسية ، كان فرديناند ملك قشتالة ينتهز فرصة اضطراب مسلمي الأندلس وتفرق كلتهم ، ويتفرع منهم مدتهم واحدة بعد أخرى ، حتى غدا سيد المنطقة كلها . وكان المتوكل محمد بن هود قد استطاع بعد موت سلطان الموحدين المأمون في سنة ١٢٣٢ م (٦٢٩ هـ) أن يسيطر على معظم قواعد الأندلس ، وكان سلطانه يمتد من مالقة على الربة وغرناطة وفرطبة حتى مرسية ، بينما كان أبو عبد الله محمد بن الأحمر النصري يسيطر على أرجونة ووادي آش وبياسة وجيان ، ويحكم بعض الأمراء الموحدين إشبيلية وما حولها من النواحي ؛ وكان جميع أولئك الأمراء المسلمين يحدد بعضهم على بعض ويحارب بعضهم بعضاً بشدة ومضاء ، وكان ذلك مما يسهل مهمة محاربتهم على عدو خارجي مثل فرديناند يملك قوات ضخمة ، ويمكنه بانتهاز هذه الظروف الملائمة من أن يسير من فتح إلى فتح .

واستطاع فرديناند في أعوام قليلة ، بصداقته ومخالفته لهذا الأمير طوراً وخصومته لذلك طوراً آخر ، أن يقوم بفتوح هامة في الأندلس ، وأن يستول على عدد كبير من الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يبيت في البسائط أعما حيث ، وأن يقتل ويأسر ألوفاً من السكان : أجل كان النصارى الاسبان كلما أمنوا انتقام

خصومهم ، ازدادوا قسوة وعنفاً ، ولم يكن الشيوخ والنساء ، بل الأطفال بمنجاة من سفكهم .

وما كاد فرديناند يوطد عرشه في ليون ، ويخضع الأحزاب الخصيمة لمركته حتى عمد إلى إشهار الحرب على المسلمين بكل ما وسع من قوة ؛ وسير أخاه الانفانت ألفونسو ، والقائد الشجاع الفاربيريز على رأس جيش إلى منطقة قرطبة ، فافترا بما أحرزا هنالك من نجاح أبعا غرور ، حتى أنهما تقدما إلى إشبيلية ، ثم تجاوزاها إلى شخص شريش على نهر وادى لسكة (الجوادليث) ، وهو المكان الذي استطاع طارق أن يقضى فيه على مملكة القوط ، في الموقعة التي نشبت بينه وبين الملك ددريك (لدريق) . وساد الروع الذي أناره النصرى بمنفعهم وقسوتهم جميع أرجاء الأندلس ، واشتد سخط الشعب على أولئك الأشرار الذين شغلوا بالنضال حول الساطة ، وزكروا البلاد لأعداء الدين يعمنون فيها نهباً وعيثاً دون أن يردعهم رادع ؛ ورأى المتوكل محمد بن هود أن ينزل على صوت الشعب أحيراً وأن ينفذ بذلك مؤازرته ، فترك الحرب التي كان يخوضها ضد ابن الأحمر ، وأذاع نداء عاماً في الأندلس كلها إلى حرب الجهاد ضد النصرى ؛ وحشدت رغبة الانتقام والحاسة الدينية حول ابن هود جوماً كبيرة ، ووفد من إفريقية ذاتها كثير من المسلمين يدفعهم حب الاستشهاد ؛ وخرج المتوكل على رأس جيش ضخم من المشاة والفرسان ، واتي النصرى في شخص شريش على ضفاف وادى لسكة حيث كانوا يبحسون غنائمهم وأسرارهم ودوابهم ؛ وكان عددهم قليلاً لا يمدو ألفاً وخمسمائة مقاتل . وكان من الواضح أنه لا مفر لهم من الهلاك . ذلك أن جيش المسلمين كان من الكثرة بحيث استطاع أن يفلق النصرى تطويقاً تاماً ؛ ولكن النصرى لم يسمعهم إزاء هذا المأزق السيء إلا أن يجمعوا أسرارهم ، وذكر قائدهم الفاربيريز ما أبداه طارق في نفس المكان من بطولة ، وما أحرزه في موقعة شريش بجنده القليل من النصر على جيش ضخم ، وحث جنده بنفس الكلمات على أن يخوضوا معركة الموت ؛ وبعد أن أمر بقتل الأسرى المسلمين وعددهم خمسمائة حتى لا تشغله

حراسهم أثناء المركة ، خاطب القشتاليين بقوله : « البحر من وراءكم ، والمدو أمامكم ، ولا نجاة لكم إلا بعمون الله ، فها بنا نفتدى الموت غالياً » . وبعد أن نضرعوا إلى الله والقديس ياقب ، واعترفوا وتلقوا الغفران ، احتشدوا عند بزوغ الفجر في صفوف متراسة ، وقاد القدمة الفارييرز ، وقاد البقية الانفانت ألفونسو ، ووثبوا إلى الهجوم من الجانبين بقوة وعزم ، تحت صوت الأبواق ، وقرع الطبول ، ونفخ القرون ، وصيحة الحرب المروعة يلقبها الجند . وسرعان ما التف الفرسان المسلمون بكثرة حول النصارى من كل سوب ، ولاح هلاكهم محققا ، ولكن القشتاليين واجهوا حراب الأعداء بصفوف متراسة لا تخرق ، وردوا الفرسان المسلمين على أعقابهم ، وشقوا طريقهم إلى صفوف المشاة التي اختل نظامها من جراء ارتداد الفرسان ، وسحقوا كل معارضة في طريقهم . وهكذا استطاع النصارى بالرغم من خسارتهم الفادحة أن يفروا من الهلاك . ومع أن المتوكل سير جنده لمطاردتهم ، فإنه لم يستطع أن يلحق بهم كبير أذى . ولاح هذا النصر للنصارى كأنه مفاجأة مذهشة ، حتى أنهم نسبوه إلى معونة القديس ياقب ، وزعموا أن القديس ياقب ظهر أثناء المركة على فرس أبيض ، وكان يقاقل المسلمين ويلقى الرعب في قلوبهم ، ويلجئهم إلى الفرار . وزعم النصارى فوق ذلك لكي يزيدوا من روعة هذا النصر ، أنهم لم يفقدوا في هذه الموقعة الدموية سوى رجل واحد ، وأن هذا الرجل قد عاقبه الله بالموت لأنه لم يتصاف قبيل المركة مع خصومه كما فعل الباقون . وتتفق الروايات النصرانية والإسلامية على أن هذه الموقعة قد حدثت في سنة ١٢٣٣ م (نهاية سنة ٦٣٠ هـ) .

وفي العام التالي ، حينما حل وقت افتتاح الفزو ، سارت عدة فرق من الجند القشتاليين إلى الأندلس غازية ، فأحرزت كلها قسطاً من النجاح . وكان فرسان الجماعات الدينية قد افتتحوا في أوائل العام بقيادة آدم أسقف بلازنسيا ، حصون ترواله ، ومجسيله ، ومدين ، والمانجه . وافتتح فرسان القديس ياقب حصن منطيل . وفي الصيف خرج الملك فرديناند نفسه في قواته ، وطوق مدينة أبده بالآلات

الحصار حتى سلت ودخلها القشتاليون في سبتمبر سنة ١٢٣٤م (٥٦٣١هـ) ، بعد أن سمح لحاميتها الإسلامية بالانسحاب .

وتلا الاستيلاء على أبيه فتح أم ، هو فتح قرطبة . وكان التوكل بن هود ، حينما سقطت أبيه يسير إلى غرناطة بجيش ضخم لمحاربة ابن الأحمر ، ففي تلك الآونة سار قسم من الجيش النصارى الذى حاصر أبيه مع قوات أخرى إلى منطقة أندوجار ، وطأوا في تلك الناحية ، وأسروا كثيراً من المسلمين ؛ وعلوا من هؤلاء الأسرى أن قرطبة في حالة سيئة ، وقد أهدمت وسائل الدفاع عنها ؛ ونظروا من بينهم بعض الخونة لماونة النصارى على افتتاح هذه القاعدة الأندلسية الهامة ؛ وعمل النصارى بالمثل القاتل : في الجرأة نصف النجاح ، فسارت الفرقة الصغيرة من الجند النصارى تحت جنح الظلام في هدوء حتى وضعت في قصبة قرطبة الأمامية السجدة بالشرفية (أو شرفية قرطبة) ، وذلك في ٨ يناير سنة ١٢٣٦م ؛ وساعد هطل المطر على إخفاء حركاتهم .

ووضع النصارى ، بإرشاد الخونة من الأسرى ، السلام على الجدران ، وصعد عليها عدة من الفرسان المفاشرين دون أن يشعر بهم الحرس ؛ ولما اقتربوا من أحد الأبراج التى تأوى بعض الحراس — وكان منهم حارس قد اشتراه النصارى — رد النصارى عليهم نداءهم مخادعين بأنهم من سرايت التفتيش ؛ وهكذا دم النصارى الحراس المخلصين وقتلهم بسرعة ، وهدموا الجدران دون أن يشعر بهم أحد من المسلمين ؛ واستولوا بذلك على أحد الأبراج المنيرة ، وعلى قسم من السور ، وعلى البابسمى باب مرطوس ، وقتلوا حراسه ، وفتحوه ، فدخل منه إلى المدينة زملاؤهم التربصون في الخارج ؛ فاجأ النصارى أحياء الضاحية بالمهجوم ، وجرى دم السكان المسلمين غزيراً .

وحينما لاح الصبح علم الناس بما وقع من مدممة القصة الشرقية ، وعندئذ بادروا نفر من أشجع رجال الحامية إلى مهاجمة المتدين في الحال ، وأخرجوهم غير مرة من شوارع القصة ، وأجلاؤهم إلى داخل البرج ، ولكنهم لم يستطيعوا

مهاجرة البرج نفسه ، وبقي النصارى بذلك مسيطرين على القصبية ، وجدوا في تحصينها بجميع الوسائل ، بوضع التاريس وإقامة العمدة وغيرها .

ورأى النصارى أنهم لا يستطيعون بمجموعهم القليل غزو مثل هذه المدينة المنظمة ، التي يؤلف سكانها المذكور وحدهم جيشاً بأسره ، فأرسلوا على عجل رسولا إلى قائد هذه المنطقة القار بيريز دى كاستروس ، وكذلك إلى الملك فرديناند نفسه ، واجين إرسال للمدد السريع لإتمام فتح قرطبة .

وسار القار بيريز بجميع جند الحدود ممن استطاع أن يقتطعهم من حاميات الحصون ، وانضم إلى الجند الذين ملكوا القصبية الشرقية ، ولكن عددهم لم يكن مع ذلك كافياً للقيام بأعمال ذات شأن . أما فرديناند الذي كان يقيم عندئذ في مملكة ليون ، فما كاد يقف على هذا النباء ، حتى اهتم له أيما اهتمام ، وسار في الحال في ثلاثين فارساً فقط ، وأصدر الأوامر بأن تتبعه جوع الفرسان بأسرع ما استطاع ، وكذلك فرسان الجماعات الدينية والمدن أخذوا يجتمعون بسرعة وينضمون إلى الجيش . ولما كانت الأنهر قد فاضت بماء الطر الفزير ، وكان الوقت مبكراً لم تجر العادة فيه بإشهار الحرب ، فقد عاق ذلك سير الجند ، واجتماع الصفوف ؛ ولهذا سار فرديناند في قوة صغيرة إلى مدينة رديك ، ثم اخترق ولاية استراندادوره إلى مدينة القلعة ، وبمض يني النصارى الراجين في ضاحية قرطبة بمقدمه السريع ، متى اجتمع لديه الجند الذين أمر بمحشد من كل صوب .

فأذكي ذلك من عزائم النصارى في قرطبة إلى الدروة . أما أهل قرطبة أنفسهم فقد تروا الفزع والروع ؛ وانجى أملهم الوحيد في النجاة إلى التوكل محمد بن هود ، وأرسلوا إليه الرسل طالبين الإيجاد بأسرع ما استطاع . ولم يكن ابن هود يجهل أى خطر يتعرض له الإسلام في الأندلس إذا سقط هذا الحصن النسيج في يد النصارى ؛ ومن ثم فانه لم يتردد في أن يحشد في الحال جيشاً ضخماً ، وأن يسير على عجل لإنقاذ المدينة المهددة ؛ فلما وصل إلى استجة ، علم بأن النصارى بقيادة ملكهم فرديناند قد اقتربوا من قرطبة في جيش ضخم ؛ وهنا ذكر التوكل

ما أصابه من قبل في مبارك خاضها مع قوات نصرانية أقل عدداً ، ولم تحقق له
الكثرة العددية أى تفوق أو هزيمة ، وخشى المواجهة إذا اشتبك دون تبصر في
معركة لم يتحقق فيها بعد من قوى قوة أعدائه ؛ ولما عقد المجلس الحربى كان
التوكل من رأى قاذبه القربن. نصحوا بإرسال الرسل للتحقق أولاً من مبلغ قوى
فرديناند ومواقفها الحقيقية ، ولم يوافق على رأى القربن نصحوا بالبحث عن المدو
نوا ومهاجمته على الأثر .

وكان في جيش المسلمين فارس جليقي يدعى لورنسبوس سوارز ، كان الملك
فرديناند قد نفاه من المملكة بسبب أعماله العنيفة ، فخرج منها مع بعض أتباعه
من الجند والتحق بخدمة التوكل ؛ فاستدعاه التوكل ، وعهد إليه بأن يأتى إليه
في ظرف ثلاثة أيام بمعلومات وثيقة عن جيش فرديناند . وكان سوارز يبحث قبل
كل شيء عن صالحه ، فرأى الفرصة سانحة لكي يحصل على عفو الملك فرديناند ،
وإذن العودة إلى وطنه ؛ فانسل إلى المسكر النصراني ، وتوصل إلى مقابلة الملك ،
ونبأه بحقيقة مهمته ، وبأنه قد اعتزم تخادعة المسلمين ، وأنه سيقدم إليهم عن
قوى النصراني وصفاً لا يجرأون منه على محاولة إنقاذ قرطبة ، وأنه يجب إحكاما
لخديعة المسلمين ، وخشية من أن يحصلوا على معلومات أخرى ، أن يأمر الملك
بمضاعفة نيران الحرس ليلاً .

ولما علم التوكل من سوارز إثر هودنه أن الجيش النصراني يتفوق بكثيره
تفوقاً كبيراً ، وأنه حسن الأهبة والتسلح ، ساوره التردد في أن يشتبك معه
في موقعة ؛ وبينما هو في تردده وحيرة فيما يفعل ، إذ وصلتته أنباء من أبى جميل
زيان أمير بلنسية حملته على أن يمتزم أمره ؛ ذلك أن زيان حينما شدد عليه بجاييم
ملك أراجون الضغط أرسل يستنيث بأخيه في الدين ، ويطلب إليه الدد
السريع ، ويمدده نظير ذلك بخضوعه وطاعته إليه . وهكذا لاح لابن هود أمل
في الاستيلاء على مملكة بلنسية ، وخشى في الوقت نفسه أن يكون جنده مازالوا
متأثرين بذكريات مباركة السابقة مع النصراني ، وأن يكونوا غير أهل للاشتباك

مع جيش فرديناند في معركة ظافرة ، قترك قرطبة إلى مصيرها ، وهو يمزى نفسه
ويعنيها بأن أهل قرطبة ، وهم كثرة حاشدة ، قد يستطيعون رد النصارى ، وأنه
حتى إذا سلت المدينة ، فإنه من اليسور استردادها ، خصوصا وأنه يتمذر على
النصارى أن يمكنوا سلطانهم من السكان المسلمين .

وكانت تضطرم في تلك الأثناء حول قرطبة عدة معارك دموية شديدة ؛ وكان
القرطبيون يقاتلون بمنتهى الشجاعة من أجل الوطن والحرية والحياة طالبا
خالجهم أمل الإنقاذ والفوث ، ويدافعون عن أنفسهم بمنتهى الشدة والبسالة
في الشوارع والميادين ، ويبعدون ضروبا رائمة من الجلد والاحتمال ؛ ولكنهم
لم يعلموا بأن التوكل سوف يتركهم إلى مصيرهم ، وأنه سار بالفعل إلى نجدة
أمير بلنسية ، خبت شجاعتهم ، وحل الخور واليأس لديهم مكان القوة والبسالة .
وأما فرديناند ، فإنه بالمكس ، فضلا عن استقدام الجند من جميع الأنحاء بعد
تحسن الجو ، أخذ يشدد في حصار المدينة بكل ماوسع ، واستمر يبالغ في التضيق
عليها ، حتى اضطر أهلها إلى البدء في مفاوضات من أجل التسليم ؛ بيد أنهم لم
يحصلوا منه على أكثر من عهد بتأمين النفس والحرية ، ولم يسمح لهم بالاحتفاظ
بشيء من أملاكهم وأموالهم ؛ وفي ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيو
سنة ١٢٣٦ م سقطت قرطبة في يد النصارى بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين
خمسمائة وخمسة وعشرين عاما (١) .

وما كاد النصارى يستولون على المدينة حتى وضموها صليبا فوق مسجدها
الجامع ، الذي أقامه الخلفاء الأمويون بمنتهى البذخ والبهاء ، ورفعت راية ملك

(١) راجع في حوادث سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٢ . ويسى
ابن خلدون فرديناند ملك قشتالة المستول على قرطبة : « هرائده » (ص ١٨٢) مع أنه يسمى
فرديناند عادة « بفردلند » (راجع ص ١٨٢) . وكذلك روض القرمطاس ص ١٨٢ ، وشيخ
الطبيب ج ٢ ص ٥٨٥ ، ويذكر المقرئ هنا أن غرناطة سقطت في يد النصارى في ٢٣ شوال
سنة ٦٣٦ هـ ، وهو تحريف ظاهر فيا يتعلق بالسنة . والجميع عليه أنها سقطت في
سنة ٦٣٣ هـ .

قشتالة على أبراج « القصر » ، وانتظم موكب في طليعته الكهنة المختلفون وفرسان الجماعات الدينية وجمهرة كبيرة من الفرسان ، ودخلوا المسجد الجامع وهم ينشدون أناشيد الحمد والشكر ؛ وفي الحال قام يوحنا أسقف أوسمه بتحويل المسجد إلى كنيسة نصرانية ، وأقام به القداس . ولما هجر فردبناند بالنواقيس التي انتزعها الحاجب المنصور فيما مضى من كنيسة القديس ياقب ضمن غنائمه ، وحملها الأسرى النصارى على أكتافهم إلى قرطبة ، أمر بأن تناد بالمثل إلى مكانها الأصلي على أكتاف الأسرى المسلمين .

وغادر المسلمون المغلوبون قرطبة بقلوب محزونة ، وتفرقوا في باقي مدن الأندلس ، واقتسم النصارى الأملاك والدور الموجودة ؛ ولما ذاع نبأ سقوط قرطبة ، خضع كثير من القلاع والحصون . وكان أهمها حصون : بياسة ، وأستجة ، والدور ، ورتفيله ، وأشبته .

وفي تلك الأثناء توفى التتوكل ، محمد بن هود ، فجأة ؛ فأثارت وفاته انقلابا كبيرا في الأندلس ، إذ كان حتى وفاته أقوى الأمراء المسلمين في جنوبي اسبانيا . وكان يمد أن ترك قرطبة إلى مصيرها قد سار إلى الربة معتزما أن ينقل جنده منها بالسفن كي يصل بسرعة إلى بلنسية ، وينجد زيان ضد الأرجونيين ؛ فاستقبله عبد الرحمن بماحب الربة في قصره أعظم استقبال ، واحتفل بقدومه بإقامة المآدب والحفلات الشائقة . ولكنه لما آوى إلى غرفته للنوم ، انقض عليه مضيغه الخبيث النادر ، وقتله خنقا ، وذلك في ٢٧ جمادى الأولى سنة ٩٣٥ هـ (سنة ١٢٣٧ م) . وفي صباح الفد ، أذيت إشاعة مفادها أن التتوكل توفى بالصرع بسبب الإفراط في السكر ^(١) .

(١) كان صاحب الربة يوشد ، وهو الذي يسميه المؤلف ببند الرحمن ، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأمدى الريسى وزير ابن هود ؛ وكان يدعو ذا الوزارتين ؛ وقد ولاه حكم الربة . ويذكر لنا ابن خلدون أن ابن هود حينما قدم على وزيره في الربة توفى في الحمام ، بيد أنه يشير إلى رواية قتل واتهام وزيره بذلك (ج ٤ ص ١٦٦) . وأورد القرى تفاصيل أخرى عن علاقة ابن هود بوزيره الريسى ، وعن وفاته (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨١ و ٥٨٢) .

وقد أنفق المتوكل أيام حكمه كلها في نضال مستمر ضد الاضطراب والثورة ،
 وضد أطماع الرعماء المسلمين ، وغزوات النصارى . ولم يكن من اليسور إزاء
 هذه الفوضى الشاملة والأخطار المديدة ، أن توطد دعائم الحكم ، وأن تجتمع له
 أسباب القوة . وكان المتوكل ، وهو عقب بنى هود الذين كانت لهم من قبل دولة
 قوية في سرقسطة ، يرى أسفاً أن الإسلام في جنوب اسبانيا يقترب أيضاً من
 نهايته . وليس أدل على أهمية شخصه — كما مل في جمع كلمة الأندلس — من أنه
 سرعان ما أذيع موته حتى تفرق الجيش الذي كان يقوده ، وعيناً حاول القادة
 أن يمدوا الجند إلى الصفوف . وقد أشاد شاعر العصر أبو بكر محمد بن أحمد
 الباصوني بخلال ابن هود وشجاعته ، في قصائد غراء . وأنهم المتوكل بأنه لم
 يكن قويا في دينه ، وأن ذلك كان سبب هلاكه .

وآل ترات معظم الولايات التي حكمها ابن هود إلى محمد بن نصر بن الأحمر ،
 أمير جيان وأرجونه ؛ ولم يقصر الأمر على استيلائه على الربة على يد حاكمها
 القادر عبد الرحمن ، ولكنه استولى أيضا على غرناطة الحصن الهام ، وقاعدة
 مملكة ابن هود ، بدعوة من أهلها ، وذلك في رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل
 سنة ١٢٣٨ م) ، وبها جعل مقر حكمه .

وسرعان ما اعترفت بطاعته أيضا مالقة وكثير غيرها من مدن الأندلس .
 أما إشبيلية وشرش ومدن الغرب (غربي الأندلس) فقد احتفظت باستقلالها
 أو انضوت تحت حكم الموحدين المحتضر .

وحكم في باقي أراضى المتوكل — أى في مرسية — في البداية — أخوه على بن
 يوسف عضد الدولة ، ونودي به أميراً عليها في الرابع من محرم سنة ٦٣٦ هـ
 (١٢٣٨ م) ، ولكن حكمه لم يطل أمده ، إذ استولى على مملكته أبو جميل زيان بن
 مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى ، وذلك في الخامس عشر من رمضان من نفس
 العام ، وأسر ، ثم قطع رأسه بعد ذلك بأيام قلائل ^(١) . وعلى أثر ذلك اختلف الرعماء

واضطرب القتال بينهم من أجل رئاسة الديانة ، وسادتها الفوضى الشاملة^(١) .

وفي الوقت الذي كان فيه جاييم ملك أراجون يتابع فتوحاته في شرق اسبانيا بعد أن انتزع قلعة بلنسية من أبي جليل زيان ، وقضى على إمارته في ولاية بلنسية ، كان محمد بن الأحمر النصارى يزداد في جنوبي اسبانيا قوة وسلطانا ، وكان ينضوي تحت لوائه كل مسلم يعنيه إنقاذ الإسلام ؛ وكان مولاه يحصن أرجونه Arjuna في أمرة قديمة عريقة في النبل ، وكان قد ترك فلاحة الأرض (إذ كان كالرومان القدماء يفلح ضيعته بنفسه) ، وهرع إلى ميدان الحرب أيام خليفة الموحدين المأمون ، حينما ساد الاضطراب جميع أرجاء الأندلس ، وسقطت فريسة لغزوات النصارى ؛ وأذكت محاسن الصدف ، وعلامات ونبوءات عمرت له بإحراز الساطان ، شجاعته في المارك إلى الدروة ؛ ولما تفاقمت الخطوب على الأندلس من جراء غزوات النصارى المنظمة ، منحه الزعماء المتطلعون إلى المون لقاء شجاعته الرئاسة أولاً في أرجونه ، وهي موطن أسرته بني نصر ، ثم على المدن المجاورة لها ؛ فوطد فيها رياسته بالرغم من معارضة ابن هود ، وبسطها من بعد وفاته على جزء كبير من جنوبي اسبانيا .

وأخذ محمد بن الأحمر بمحمد من حوله جميع السليين الذين غادروا البلاد التي افتتحتها النصارى ، وسرعان ما غدا عضد الإسلام الوحيد ، وأصبح كل من لم يؤيده وبلنفس حوله يعتبر خارجا على الإسلام ؛ ثم دعا الشعب بأسره إلى محاربة النصارى ، وبعد أن حشد جموعا كبيرة من الفرسان ، وكذلك جيشا ضخما من الشاة ، سار إلى أرض النصارى ، وعسكر أمام قلعة مرطوس ، وكاد يتنقلب عليها لولا أن قدم لإنجاده جيش من النصارى ، فرفع ابن الأحمر الحصار عنها ، ولكنه لم يحجم عن الاشتباك مع النصارى في معركة أحرز النصر فيها ،

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ و ١٧٠ ؛ وفي روايته أن الذي ولي مرسية بعد وفاة ابن هود ولله أبو بكر محمد الملقب بالرائق ؛ وتناوبها من بعده عدة من الزعماء . راجع أيضا فتح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ .

(سنة ١٢٣٨ م — ٦٣٩ هـ) ، وبذلك أعاد الثقة إلى نفوس جنده في قوة المسلمين . واستطاع فرديناك بعد غزوات عديدة ، ومهاجمات لبعض المدن الصغرى ، أن يضم بالصلح والراضى ولاية بأسرها ، هي مملكة مرسية . وكانت مرسية ، منذ مقتل محمد بن هود ، قد اقتصمها رهط من الزعماء ، وأصبح لكل مدينة ، بل وكل قلعة ، حاكم مستقل ، ينحصر نشاطه في أن ينازع جاره ملكية مدينته أو منطقته ، أو أن يدفع عدوانه عن أملاكه . وهكذا شملت الحرب الأهلية جميع الولاية ، وعانى الشعب أروع الآلام من عسف الزعماء الطامعين المتطلعين إلى الحكم والسلطان . ولما بدا أن أمير غرناطة محمد بن الأحمر يرى إلى أن ينتهز فرصة تفرق الزعماء ، والاستيلاء على بلنسية ، وهو ما كان يرجوه الشعب لكي يتخلص من نير الطغاة الأصغر ، آثر أولئك الزعماء أن يحتفلوا بسلطانهم كأتباع للملك قشتالة ، على أن ينزلوا عنه لابن الأحمر ، أو أن يتحدوا على مقاومته ؛ ولما نعى إليهم أن ألفونسو أكبر أولاد الملك فرديناك ، قدم إلى حدود الولاية على رأس قواته ، أرسل كل منهم إليه رسولا للفاوضة وتقدير الشروط التي يرى أن يخضع للملك قشتالة وفقاً لها . وفي « الكراز » وقعت الشروط التي يخضع بمقتضاها محمد بن علي بن هود والى مرسية ، وحكام لقنت ، وأريولة ، والحامه ، ولبيط ، وعفيفة ، وجنجاله ، وخلصوها أن يبقى هؤلاء متمتعين بحكم مدنهم وموارد دخلهم ، وعليهم في مقابل ذلك أن يدبخوا بالطاعة للملك قشتالة باعتباره سيدهم الأعلى ، وأن يؤدوا له الجزية ، وأن يتعهدوا بأخذ جنود من النصارى في القلاع والحصون . ولكن والى لورقة ، أبا بكر غريز بن عبد الملك بن خطاب أبي أن يدخل في هذا الاتفاق ، إذ كان يدعى السلطان على مملكة مرسية بأسرها باعتباره خلفاً للمتوكل محمد بن هود ، بيد أنه لم يستطع أن يحتفظ إلا بثلاث مدن هي لورقة وموله وقرطاجنة ، وكان ينبغي عنه حاكماً في كل من موله وقرطاجنة . كذلك كانت مدينتا شاطبة ودانية اللتان تيمدان من أملاكه تترفان بسلطان ، وقد ولي عليهما أبا الحسين يحيى بن أحمد حاكماً من قبله .

وبعد أن تلقى ألفونسو طاعة زعماء « الكراز » وهي مدينة تقع على مقربة من منابع نهرى شقورة والوادي الكبير ، وبذلك كفل لهم الحماية ضد أى اعتداء ، سار في عدد كبير من الفرسان القشتاليين والزعماء الخاضعين إلى مدينة مرسيية ، فدخلها بين مظاهر الاحتفال الفخمة (سنة ١٢٤٣ م - ٦٤١ هـ) ، ورتب في المراكز الهامة ، في الأراضي الجديدة ، جنوداً كمامية تسهر على ولائ المسلمين . وحاول ألفونسو عند عودته أن يرغم والى لورقة الذى أمر على رفض الخضوع على التسليم بالسيب ، واستطاع أن يفتتح قلعة مولة الواقعة على نهر شقورة (Segura) . ولكنه أخفق في اختناح قلعة لورقة وقرطاجنة ، واكتفى بالبيت في أرضهما (سنة ١٢٤٤ م) .

وهنا استطاع فرديناند لأول مرة أن يحارب أمير غرناطة بنجاح . فأرسل ولده ألفونسو مرة أخرى بجيش لافتتاح لورقة وقرطاجنة ، ومن ثم تهديد غرناطة من هذه الناحية ، وسار بنفسه بجيش آخر من أندوجار إلى جيان ، وخرب هذه المنطقة ، وأرسل قسماً من جيشه بقيادة تونيو جونزالز دي لارا إلى قلعة أرجونة لمحاصرتها . ولما كانت أرجونة غير مستعدة لحصار طويل ولم تزود بالؤن (خصوصاً وقد كان القحط يعمش يومئذ بجنوبي اسبانيا) فقد فتحت أبوابها للنصارى ، وغادرها سكانها الذين أسنوا في أنفسهم ، إلى أماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ؛ وشجع النصارى هذا النجاح فتابعوا فتوحهم واستولوا على حصون قسيلية ، وبجالجر ، ومنتجر ، وكارنجر ؛ وفي ربيع نفس هذا العام (١٢٤٤ م) زحفوا على وادي قرطبة ، ولم يلق الفرسان القشتاليون مقاومة تذكر ، حتى وصلوا إلى ظاهر غرناطة ذاتها ، وبدأوا حصارها في الحال ، ولكن تقدم الوقت وقيام المحصورين بهجمات عنيفة كانت تكبد القشتاليين خسائر فادحة ، وزحفت قوة إسلامية على مرطوس وراء خطوط القشتاليين ، كل هذه حملات النصارى على رفع الحصار ، والارتداد إلى أراضيهم ، وكانت هجمات المسلمين تتوالى عليهم حين العودة . وفي تلك الأثناء خرجت مرسية من قبضة النصارى مرة أخرى ؛

ذلك أن بعض المسلمين لزعمائهم الذين يعتمدون في تمكين سلطانهم على الجند القشتاليين كان يشتد يوماً عن يوم ؛ فلما سار أبو جميل زيان عقب فقده لبلنسية واستيلاء چايم ملك أراجون عليها ، إلى مدينة مرسية ، وغزا أراضيها بقوة لا بأس بها ، عب المسلمون لتحطيم النبر الذي فرض عليهم ، ونادت شاطبة ودانية ، ومدن أخرى بانضوائها تحت لواء أمير بلنسية السابق . وسار عزير بن عبد الملك والى لورقة في قوائه لمحاربتة ، ولكنه هزم وقتل في معركة دامية (٢٦ رمضان سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م)^(١) ، ومكن هذا النصر زيان من الاستيلاء على لورقة وقرطاجنة وعدة أماكن أخرى ؛ ولم يستطع القشتاليون مقاومته ، فطردوا من كل مكان . ولما كان ملك أراجون يسير قوائه أثناء ذلك لافتتاح شاطبة ودانية وكنائهما تقع في أراضي مرسية ، وتعتبرها قشتالة واقتنن تحت سيادتها ، فقد كان تطور الحوادث على هذا النحو نذيراً باضطراب الخلاف بين الملكتين على حقوق الفتح في أراضي مرسية .

وفي العام التالي ، أعني سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) ، اعتزم ابن الأحمر أمير غرناطة أن يشحن قلعة جيان بالمؤن والسلاح ، إذ كان يتوقع أن يهاجم ملك قشتالة هذه القلعة الواقعة على الحدود ، فأرسل إليها قافلة من ألف وستمئة من دواب الحمل محملة بالمؤن والذخائر ، وسارت من غرناطة إلى جيان في حراسة خمسمائة فارس ، فلما علمت قوات النصارى على الحدود بأمر هذه القافلة ، سارت إلى منطقة جيان مما يلي غرناطة ، وتربعت لهاجتها والاستيلاء عليها . ولكن المسلمين علموا بهذا السكين في الوقت المناسب ، وعادت القافلة إلى غرناطة . وأدرك النصارى من ذلك أن جيان ليست مزودة بالمؤن الكافية ، فوجهوا عنايتهم لافتتاحها ، وبدأوا حصارها بتخريب جميع المناطق المحيطة بها ، حتى تصبح وقد غاض أسلها في تاقى أى قسط من المؤن ، ومع أن النصارى كانوا متفوقين في العدد ، فقد

(١) راجع في ترجمة عزير بن عبد الملك مجلة السيرة من ٢٤٩ وما بعدها ، وفي رواية ابن الأثير أن وفاته كانت في جادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ :

دافعت الحامية عن المدينة ببسالة نادرة ؛ بيد أنه لما كانت جميع القلاع والحصون القريبة منها قد وقعت في يد النصارى ، ولم يوفق ابن الأحمر حينما سار في قواته من غرناطة بسرعة لإنجاد جيان بل هزمه النصارى ، فقد كان من الواضح أنه يتعذر على هذه القلعة التي تنقصها جميع وسائل الدفاع ، أن تصبر طويلا على هجمات الفشتاليين ، وأمر فرديناند — الذى أقسم بالاستيلاء على المدينة — قواته بمتابعة الحصار بالرغم من قسوة الشتاء وهطل الأمطار ، خلافا لما درج عليه النصارى في غزواتهم .

ولما رأى أمير غرناطة عقم المضي في المقاومة ، وأدرك أن فرديناند لن يقف في فتوحه عند الاستيلاء على جيان ، اعتزم أن يقوم بخطوة حاسمة لتأمين أراضيه من عيث النصارى ؛ بل وحمايتها بمعاونتهم ؛ فسار إلى لقاء فرديناند ، في ممسكرو أمام جيان واثقا كل الثقة في شهامته ، وعرفه بشخصه وبالقرض الذى أتى من أجله ؛ وقدم طاعته إلى ملك قشتالة باعتباره سيده الأعلى ، وصرح بأنه يحكم كل أراضيه من قبله على أداء الجزية ، ثم قبل يده إندانا بالخضوع له ؛ ودهن الملك فرديناند لما رأى من ثقة عدوه بالأمس ومن عروضة ، وأبت عليه شهامته أن يخيب ظن الأمير ؛ وفى الحال نهض لمناقشة ابن الأحمر ، وساء صديقه وحليفه وصرح بأنه لن يمتدى على شيء من أراضيه ؛ وهكذا عقدت بين الأميرين مهادنة يحتفظ فيها أمير غرناطة بكل أراضيه ومدنه ، ويشهد بأن يؤدي إليه جزية سنوية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب ، وأن يماونه كلما طلب بمدمعين من الفرسان لمحاربة أعداء قشتالة ، سواء أكانوا من النصارى أو من المسلمين ؛ وتعهد أمير غرناطة فوق ذلك بأن يشهد اجتماع المجلس النيابى (الكورتيس) أسوة بباقي الأمراء التابعين للعرش ، وأن يشهد كل حفلات البلاط الرسمية ؛ وسلكت قلعة جيان إلى فرديناند رهينة بصدق التعاقد ، ودخلها على أثر عود ابن الأحمر إلى غرناطة ، وذلك فى أبريل سنة ١٢٤٦ م (نهاية سنة ٦٤٣ هـ) ، بمد أن حاصرها عشرة أشهر ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، ورتبت بها حامية قشتالية كبيرة.

وكان انتهاء الحرب ضد غرناطة بهذه السرعة الفجائية ، في نفس الوقت الذى تفتتح فيه النزوات ، مشجعاً لفرديناند على أن يضطلع بمشروع ضخم آخر . ذلك أن أمير غرناطة قد أصبح صديقاً لك قشتالة يدين له بالولاء ، وعليه بوصفه تابعاً له أن يعاونه بقواته في كل حرب يخوضها ؛ وكان فرديناند قد اضطر أن يرجي افتتاح مرسية — حيث تضاءلت قوى الأحزاب من جراء المارك الستمرة ، واعترف عدة من الزعماء بسيادة فرديناند — خوفاً من الاصطدام بأراجون ؛ وكان الخلاف على حق افتتاح شاطبة ودانية على وشك الوقوع بالفعل ؛ ولذا كان من الطبيعي أن يوجه فرديناند جيوشه المظفرة إلى ناحية أخرى يستطيع أن يحقق فيها فتوحاً أهم ، لا يتنازع في شأنها أحد من جيرانه النصارى ، تلك هي فياض الأندلس المباركة ، ومدينة إشبيلية الغنية ؛ وقلعتا قرمونة وقسنطينة المنيحتان ، وهى التى يحقق له افتتاحها امتلاك نهر الوادى الكبير كله ، ويقضى على البقية الباقية من سلطان الموحدين في اسبانيا .

فلم تخض ثمانية أشهر على الاستيلاء على جيان ، حتى كان فرديناند قد رتب فيها كل شيء ؛ ثم خرج في جيشه ، وبمد أن طالب إلى تابعه الجديد أمير غرناطة أن يسير معه إلى ميدان الحرب في فرسانه وفقاً لشروط المعاهدة ، انقض على كورة قرمونة^(١) ، وعاث فيها أليماً حيث وانقسف فيها كل شيء ، وهو تمهيد لحصار المدن الكبيرة حتى يتمفر نحوونها لبضعة أعوام . وفي الموعد المحدد حشد أمير غرناطة خمسمائة فارس حصى الأهبة إلى جانب الجيش القشتالى ؛ وكان أول مكان حاصره النصارى قلعة وديره ؛ ولم يثبت المسلمون — لضيقهم — طويلاً ، فبمئز إلى محمد بن الأحمر وسلموا إليه المدينة ، مؤميين أن يجدوا منه كسليمن ماملة أفضل ؛ وكاد ذلك يمكر صفو الملائق بينه وبين فرديناند ، ولكن كليهما كان ماقلاً مستعداً لتضحية الأقل لاغتنام الأكثر ؛ فسلم ابن الأحمر المدينة إلى فرديناند بدوره في البداية إلى حليفه كفتيح أول . وسهل امتلاك هذه القائمة الواقعة بجوار

(١) وفي ياقوت قرمونية .

إشبيلية انتساف أراضيها باستمرار ، والتوسع في تخريب مساكنها حتى شريش وقرمونة ، وكان يحاصرها يومئذ فرسان القديس ياقب وقلمة وبلج ؛ وحصل فرديناند على إذن البابا بأخذ أعشار الكنائس ليستعين بها على نفقات الحرب الكبيرة .

وكان من الواجب قبل أن يتمكن النصارى من محاصرة إشبيلية بنجاح أن يتغلبوا على ما حولها ، وأن يستعينوا أيضاً بأسطول يقطع عنها البر من جهة البحر . ولم يستطع النصارى تحقيق الشطر الأول إلا في بداية سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) حيث انتسفوا المدايق والكروم وأعواد الشجر ، وجميع المحاصيل ، في كل مكان أبدى السكان فيه معارضة ؛ على أن معظم المسلمين آثروا التسليم والانفواء تحت لواء النصارى كرهابا يؤدون الجزية ، وآثرت قرمونة وقسنطينة ولورة ، والقلعة ، وهي جميعاً حصون منيعة كان يوسمها أن تحتل الحصار طويلاً ، — بعد أن لبثت أشهراً تنتظر عبثاً ، وعرض عليها النصارى عقد الهدنة — أن تبادر بالخضوع ، فتفتم عطف الظافر ، على أن تتعرض بالقاومة الشديدة لقسوته ، كما حدث لقلعة قنطالان التي اقتنعها النصارى ، وقتلوا كل من فيها ؛ واستطاع ابن الأحمر أمير غرناطة أن يحمل — بالنصح والإقناع — عدة حصون على التسليم ؛ وأن يحصل من الملك فرديناند على وعد ، ألا يستعمل العنف حيث لا ضرورة لاستعماله ، وأن يقدم النصارى شروطهم إلى كل مدينة وقلعة قبل أن يبدأوا حصارها . وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يحقق كثيراً من الدماء ، واستولى النصارى بمعاونته على عدة من الحصون ، منها جويلان ، وقلعة ربه ، وجريئة ، وغيرها .

وفي أوائل سنة ١٢٤٧م ، أنشأ النصارى في ثغر سبتاندر برئاسة ريموند بونفاشيوس ، وهو سيد من برغن ، أسطولاً من ثلاث عشرة سفينة شراعية ، وسار هذا الأسطول ورسا عند مصب نهر الوادي الكبير ؛ واجتمعت في الوقت نفسه جميع القوات التي طلب حشدتها ؛ وعندئذ شرع النصارى في تعاوين

إشبيلية ؛ وكان أهل إشبيلية قد اختاروا لرياستهم يومئذ أميراً من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، وعهدوا إليه بالدفاع عن المدينة ، ودعا السيد أبو عبد الله ابن أخيه أبا الحسن بن أبي علي حاكم قرمونة لما وُتته في تنظيم الدفاع ، فبادر إلى تلبية دعوته ، لما رأى من أن إشبيلية قد غدت مقصد فرديناند ؛ وتلفت المدينة من إفريقية بعض المأونة ؛ وأدرك السيدان أهمية المحافظة على طريق البحر وبقائه مفتوحاً ، لكي يتسنى لإشبيلية تلقي المؤن باستمرار ، فاستقدا من الموحدين في إفريقية أسطولاً صغيراً رسا في مصب الوادي الكبير عن ثغر شنت لقر لمنع سير الأسطول القشتالي في النهر .

ولكن الأسطول القشتالي استطاع بمد عدة معارك شديدة أن يحرز النصر ، وأن يترك أو يمتلأ عدداً من سفن المسلمين ، وأن بأسر السفن الباقية ، وعمل الجند القشتاليون من جانبهم على إخلاء الشاطئ من الأعداء ؛ وهكذا استطاعت سفن النصارى أن تمخر عباب النهر . ومنذ ٢٠ أغسطس سنة ١٢٤٧م (٥٦٤٤هـ) كانت إشبيلية قد طوقت من كل مكان من البر والبحر ، واستمر الحصار طوال العام بأسره ؛ وجمع النصارى كل ما يحتاجون إليه ، وأقاموا الخيام في كل ناحية ، حتى بدا كأن مدينة أخرى قد أقيمت إلى جانب المدينة المحصورة .

وبعد أن لبثت إشبيلية محصورة طول الشتاء ، وقد قطع عنها كل مدد من المؤن ، وكذلك ردت الأمداد التي حاول المسلمون في قرى الأندلس إرسالها بقيادة محمد والي لبلة ، حشد فرديناند في أوائل سنة ١٢٤٨م قوات أضخم ، للاسراع في افتتاح هذه القاعدة الهامة من قواعد الأندلس ؛ وتنافس السكباء والفرسان الأسبان في المساهمة في هذا الفتح . وفي شهر مارس قدم إلى المسكر النصراني ولد الملك وولي عهده ألفونسو في قوة مختارة من الجند القشتاليين ، وفي صحبته ألفونسو ولي عهد أراجون ، ويبيدرو ولي عهد البرتغال ، وصاحب (كوت) أورقة ، ومعهم جمهرة من الفرسان الأراجونيين والقطالونيين والبرتغاليين ثم وفد من بدم لوبيز دي هارو ومعهم قوة من جند إسكونية وقشتالة القديمة ؛

وقدم يوحنا مطران شنت ياقب في قوة مختارة من جند جليقية ؛ كما قدمت قوات من مدينة سالم ومدلين وقورية وغيرها ؛ وقدم معظم الأساقفة وكثير من الأعيان والرهبان من جمعات القديس دومينيك والقديس فرنسيس والقديس بندكت ، وأخذوا يلهبون بمواعظهم حماس الجند ؛ وقدم محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، — وفق نهمه — بقوة من الفرسان ، وعسكر أمام برج الفرج ، وأدى بحكته وشجاعته ، وما قدمه من فرسان حنى الأهمية : ملك قشتالة خدمات جليلة ؛ وإذا صحت الروايات الإسلامية ، فإن إشبيلية لم تقطع عن تاقى المؤن من طريق البحر ، وذلك بالرغم من أنه قد نشبت عند مصب الوادى الكبير معارك دموية شديدة ؛ وأخيراً قرر النصارى وفقاً لنصح ابن الأحمر أن يطوفوا المدينة تطويقاً تاماً ، وكانوا قد حاصروها مدى ثمانية عشر شهراً ؛ وفى الثالث من شهر مايو سنة ١٢٤٨م نزلوا عند نصيح أمير غرناطة ، ونصح أمير البحر ريموند ، وأحرقوا سفن المسلمين فى ميناء إشبيلية ، وذلك بأن دنفوا إليها بحرافتين محملان آنية عملة بالكبريت والفار وغيرها من المواد الملهبة ، ثم دنفوا بعض السفن الثقيلة نحو قنطرة السفن بقوة الريح والتيار ، فخطموا سفنها المثبتة مما بسلاسل الحديد ، وقطعوا بذلك المواصلات بين المدينة ، وبين قلعة طرطوش ؛ واستولى النصارى على قلعتى طرطوش وجوليس ، ثم اقتحموا ضاحية الصفار وباب مقربنة ، ولم يبقوا فيها على أحد ، ومع ذلك فقد دافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، واستعملوا فى قتالهم كثيراً من الآلات الفاذفة والمكاحل ، وأنزلوا بالنصارى أضراراً فادحة ، وكانت مقدوفاتهم تشقى الجراد المدرع من جانب إلى آخر .

وفى النهاية أضنى الحصار أهل إشبيلية ، ولا سيما بعد أن بشروا من الإيجاد ، وأخذ شيوخ القحط يهددهم ، فنزلوا على حكم الظروف مرغمين وبدأوا المفاوضات فى تسليم المدينة ، متمسكين ببعض الشروط . وتقول الروايات النصرانية إن فرديناند لم يقبل أية منافسة فى الشروط ، وتقول الروايات الإسلامية إنه قبل الشروط مقتبطاً ، لئى يعجل بالاستيلاء على المدينة ، أما شروط التسليم فتتلخص فيما يلى :

أن يكون المسلمون أحراراً في أن يبقوا في المدينة أحراراً آمنين محتفظين
بعتازلهم وأموالهم لا يؤدون سوى الضرائب العادية ، أو أن يهاجروا منها بعد أن
يبيعوا أملاكهم ؛ وأن يمنح الذين يرغبون في الهجرة شهراً كاملاً ، وأن يقوم
النصارى بتسهيل رحيلهم سواء بالدواب في طريق البر ، أو بالسفن في طريق البحر ،
وأن يسمح الملك فرديناند لأبي الحسن والى المدينة (والظاهر أنه كان آخر من ولى
الأمر فيها) — وهو الذى يسميه النصارى أورانتس Orantes أن يبق فى
إشبيلية ، وأن يمنحه مبلغاً من المال لتفقتة . بيد أنه أتر الهجرة ، وما كاد ينتهى
من تسليم مفاتيح المدينة حتى ركب البحر فى نفس اليوم ، أى فى ٢٣ نوفمبر سنة
١٢٤٨ م الموافق ٦٤٦ هـ إلى سبتة وإفريقية حيث لحق بآله ، وكانوا يومئذ
يتنازعون مع بنى مرين على السلطان .

وهكذا انتهى سلطان الموحدين فى إشبيلية بعد أن حكموها مائة وبضع
سنين ؛ وقد حكمها المسلمون منذ فتح الأندلس خمسمائة وسبعة وثلاثين عاماً ؛ وقد
غادرها من المسلمين ثلاثمائة ألف ، وسار فريق منهم برقة فرسان قلعة رباح إلى
ثريش ، ونزح القليل مع الموحدين إلى إفريقية ، وذهب آخرون إلى لبلبة وغربى
الأندلس ، وقصد أكثرهم إلى كورة غرناطة حيث وعدهم ابن الأحمر بحسن
الوفادة والحماية . ودخل فرديناند المدينة بعد ذلك فى موكب نفخ ، وقد حملت أمامه
صورة السيدة العفراء ، وركب إلى جانبه ولده وولى عهده ألفونسو ، ومن وراءه
باقى أبنائه ، ثم تبعهم ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ،
لجميع الأحبار الراققين للجبش ورؤساء فرسان الجماعات الدينية ، واصطف من
حولهم كبراء المملكة والفرسان ؛ وقصد الموكب إلى المسجد الجامع : فقام الأحبار
بتحويله إلى كنيسة ؛ ورفع فى الوقت نفسه علم النصرانية وعلم ملك قشتالة على
قمة البرج الأعلى للكنيسة الجديدة وهو الذى سمي « بالجيرالدا » Giralda ،
وصنع بياق الساجد ما صنع بالمسجد الجامع ، وشهد المسلمون بأفئدة مكلمة ،
كيف أزيلت قبور آبائهم وأجدادهم خلال هذا التغيير .

والا انتهى النصارى من تحويل إشبيلية إلى مدينة نصرانية رأى فرديناند أن يفتتح أيضاً جميع المدن الواقعة على مصب الوادى الكبير وفي منطقة وادى لشكة ، واستطاع أن يخضع بالفتح أو بالإرهاب في سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) ، شريش الفرتيرة ، ومدينة شدونة (مدينة سدوينا) وقلعة الفزال ، وباش ، وقادس ، وشنت اقر ، وثمر شتمرية ، وروطة ، وأرك وغيرها^(١) ، بل لقد فكر فرديناند قبل أن يتم إجملاء المسلمين عن الأندلس ، في أن يعب البحر بأسطول إلى إفريقية ويفزو هنالك ويفتح ؛ وقام أسطول قشتالة بالفعل بقيادة أمير البحر ريموند بونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربي في سنة ١٢٥١ م (٦٤٩ هـ) ، بيد أنه لم يوفق إلى الاستفادة من هذا النصر نظراً لوقاة فرديناند بعد ذلك بقليل

(١) هي بالأفريقية على التوالي Xeres de la Frontera ، Medina — Sidonia ، Arcos ، Rota ، St Maria del Ponto ، St Lucar ، Velez ، Alcala de Gazules

الفصل الثامن

تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول
حتى افتتاح ألفونسو الثالث لولاية الغرب

١ — سانشو الأول للمعمر

كان سانشو الأول قد ظهر منذ عهد أبيه ألفونسو بشجاعته وبراعته في الحروب . ولما تولى العرش — في ٦ ديسمبر سنة ١١٨٥ — رأى أن يتبع فيما يختص بملافته بالكرسى الرسولى ورجال الدين سياسة أخرى غير التي اتبعها سلفه . وكانت البرتغال بلا ريب مدينة بقيامها كملكة مستقلة إلى حماية البابا ؛ ومن ذلك الحين كف القيصر ألفونسو ريمونديز من محاربتها وقبل وساطة البابا ، ولم ينس ألفونسو هنريكيز طول حياته لمن يدين بمرشه بمد السيف ، ولبت على خضوعه نحو الكرسى الرسولى وعلى جوده نحو البابا والكنائس والأديار . بيد أنه لما ولي ابنه سانشو العرش ، كانت ظروف اسبانيا قد تغيرت تغيراً عظيماً ، فشغلت الممالك الاسبانية النصرانية الأربع بقتال بعضها البعض ، وقتال الوجودين بلا انتفاع ؛ واستطاعت البرتغال أن تخرج من القوة ما أحرزته الممالك المجاورة ، وأن تحافظ على استقلالها دون حماية البابا ؛ وكان سانشو يغير حلفاءه وفقاً لما تولى به الحكمة والصلحة ؛ وكان — حسب ما ذكرنا من قبل — يشار على محاربة المسلمين دون كمال . وقد افتتح كثيراً من حصون الحدود ، وعمرها بالسكان النصراني ، وأسبغ عليه التاريخ من أجل ذلك لقب «المعمر» Poplador وكان كأمر مستقير يعمل على تأييد

النظام والسلام والرفاهية في مملكته ، ثم على تخفيف أعباء الحرب وغيرها من المكوس عن كامل الشعب قدر استطاعته ؛ وقد شمل جماعات الفرسان بوافر جوده ، وعمل دائماً على توثيق روابطها ومصالحتها بالعرش ؛ ومنح كثيراً من المدن والأماكن حقوقاً وحريات خاصة ، فساعد ذلك على تقدمها ورفع شأنها ، وشجع الزراعة أعظم تشجيع ، ووزع الأراضي المجدية والمهمة على فقراء الزراع لزرعها ، وأذكرى هم الممال المجدين بالنجح والامتيازات ، وأسبغ الفلاحون البرنتاليون على ملكهم لقب « الفلاح » رمزاً إلى مالقوا من رعابته وحمايته .

وكانت مدينة شلب بعد أن افتتحها النصارى بمعاونة الجند الصليبيين من جنوبي ألسانيا ، قد سقطت مرة أخرى في يد الوجودين وذلك نظراً لوفوعها في قلب الأراضي الإسلامية ؛ ولكن سانشو عاد فافتتحها للمرة الثانية في سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) ، وهدها حتى غدت قاعاً مفضفاً ، ولبثت قفراً مدى حين ، وفقد المسلمون بفقدتها حصناً من أمنع الحصون .

ولم تلق البرنتال في الأعوام التالية سوى القليل من عدوان المسلمين ؛ ولكن خصاماً نشب بين سانشو وبين البابا ساستان الثالث من أجل زواج ابنته بابن عمها ألفونسو ملك ليون ؛ ثم نشب خصام عنيف آخر بينه وبين خافه البابا أنوسان الثالث الذي ارتقى كرمى البابوية في سنة ١١٩٨ م . وكان هذا الخبر أشد صلابة وحرصاً من سلفه على تنفيذ حقوق البابوية ومطالبها ؛ فطالب سانشو بالجزية التي تعهد بأدائها ألفونسو هنريكز للكرسى الرسولى وفقرها مائة قطعة من الذهب . ومع تسليمه بأن ألفونسو هنريكز قد دفع من قبل إلى الكنيسة ألف قطعة من الذهب كآثار ورعه وتقواه ، فإن هذه الهبة لا يمكن أن تعتبر أداء مقدماً لجزية عشرة أعوام كما أراد أن يعتبرها سانشو ، وليس هناك ما يدل على أن سانشو قد خضع لوجهة نظر البابا ؛ ذلك أنه بالرغم من مصادقة البابا على معاهدة الصلح بين قشتالة والبرنتال ، وإنذاره بممانية المخالف بالحرمان ، وحمايته البرنتال بذلك من نكث قشتالة ، فإن سانشو لم يسلك نحو رجال الدين

مسلكا وديا . أجل لقد سمح للبابا بأن يشرف على تنظيم أحوال الكنائس في البرتغال ، وأن يرتب علائق جماعات الفرسان الدينية بالأساقفة ؛ ولكنه لم يكن يصبر على أى تصرف من الأحبار البرتغاليين أو البابا يرى فيه مساساً بهيبة العرش . وهذا ما أثبتته سانشو في فرصتين ، الأولى في خصام نشب بينه وبين أسقف بورنو ، والثانية في موقفه نحو أسقف فلورية ؛ ذلك أن سانشو بالرغم من التجارب المحزنة التي عرفها ملوك اسبانيا النصرانية فيما عقده من زيجات لم ترض الكنيسة عنها ، عقد ألفونسو زواج ولى عهده ألفونسو من إحدى قريباته الأقربين هي أوركا ابنة ألفونسو التاسع ملك ليون (سنة ١٢٠٨ م) ؛ ولكن أسقف بورنو الذي سبق أن غاضبه مهادراً من قبل ، وظن مع ذلك أنه أوفياء بمجوده وصلاحه ، اعترض على هذا القران بشدة ، وأبى أن يبارك العروسين ؛ وزاد على ذلك أنه حينما قدم الملك وولى عهده إلى بورنو لم يقم نحوها بإجراءات التكريم العادية ، وأعلن قرار الحرمان الدينى ضد الزوجين الجديدين . وهنا استشاط سانشو من الأسقف غضباً ، وأمر بالقبض عليه ، ومصادرة أملاكه وأمواله ، ومماقبة كل من آثر أن يتبع أقواله على اتباع الأوامر الملكية . نعم أطلق سراح الأسقف بعد ذلك بقليل حينما وعد بأن يسحب قرار الاعتراض والحرمان ، ولكنه لم يف بوعده ، بل فر إلى دومة ليستصرخ البابا . وأمر أنوسان الثالث المبعوث البابوى في سموره بأن يعمل على تسوية المشكل ، فترد إلى الأسقف جميع حقوقه ويسحب قرار الاعتراض ، على أن لا يعود الملك إلى التدخل في شؤون الكنيسة . ولما نرى كيف انتهت هذه الخصومة ، مما يدل على أن سانشو لبث هو الظاهر المتغلب ؛ وقد حدث ذلك في سنة ١٢١٠ م .

وحدث قبل أن تنتهى هذه الخصومة أن نشب خصام أشد بين الملك وبين أسقف فلورية . وكان الملك كثير المدوان على الحقوق الأسقفية ، هذا إلى ما يمانيه الأحبار من حفلات الصيد الملكية ، واضطرارهم إلى إضافة كثير من الناس والحيوان ؛ وكثيراً ما كان الملك يسخر من رجال الدين ويحقّرهم ويبدى

غضبه عليهم ، وفوق ذلك فقد أتى بعضهم إلى السجن . واحتج أسقف قلدرية على هذه الأمور لدى الملك أولا ؛ فلما لم تنجح شكواه ، كتب إلى البابا مباشرة متخفياً في ذلك مطران براغا نظراً ليله إلى الملك ، ووصف له إلحاد الملك وصفاً مثيراً ، وزعم في كتابه أن الملك يضيق لديه امرأة عرافة تسدى إليه النصح كل يوم . ثم إن الأسقف أعلن قرار الحرمان الكنسي في دائرته ، ولكن سانشو أراد كمادته أن يأخذ كل شيء بالعنف ؛ فقبض على الأسقف قبل أن يتمكن من الفرار وسجنه . ولما علم البابا أنوسان بما حدث أتم بأمر الأسقف ، وطالب الترضية إلى الملك ، ولكن سانشو أبى كل ترضية وتمسك بموقفه . بيد أنه لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل وشعر بدنو أجله ؛ وهنا وهنت إرادته ، وساوره الندم وسى إلى طلب الصفح ، ووعد بالترضية ، حتى يظفر بالفقران من رجال الدين ؛ وعلى أثر ذلك أعلن مطران براغا تبرئته من الحرمان وكل عقوبة أخرى . والواقع أن سانشو قدم الدليل في وصيته على أنه لم يكن يحقد على رجال الدين ؛ فقد كتب وصيته قبل وفاته بعامين (في أكتوبر سنة ١٢٠٩ م) بمصادقة ومشهد عدة من الأساقفة والكبراء ؛ وفيها يجرى الصلوات للأحبار وي طرح جميع نصوصها لمصادقة البابا ، ويوصى له بمائة سبيكة من الذهب ؛ وقد صادق عليها البابا ولم يجد فيها موضعاً للطعن . ولم يمض سانشو لمشهد مصادقة البابا على الوصية ، وإلغاء قرار الحرمان على يده ، إذ توفي في ٢٧ مارس سنة ١٢١١ م ؛ وفي السابع من يونيو من نفس العام ، قبل أن يصل نبأ وفاته إلى رومة أقر البابا أنوسان الثالث إجراءات مطران براغا ، وصادق على الوصية ، ووعد بأن يبنى بالممل على تنفيذها .

٢ — ألفونسو الثاني الملقب بالبادن

عنى سانشو الأول بأن يرتب لجميع أولاده موارد ثابتة ، وعلى ذلك فقد منح في وصيته لبناته أيضاً أراضي معينة يملكنها ؛ وكان ألفونسو قد أقسم بأن يترك

لأخواته ما خصهن به والدهن ؛ ولكن هؤلاء رفضن أن يعترفن بسيادة الملك على الأراضي المقطوعة لهن ، واعتبر ألفونسو هذا الرفض من الأمور التي لا يمكن التسامح فيها . وكان هذا سبب الخصام . ذلك أن الأميرات خشية من تهديد أخيهن لهن في حقوقهن حسبما يرينها ، قصدن إلى البابا أنوسان الثالث ، الذي وعد بأن يسهر على تنفيذ الوصية . فأعلن البابا دون درس الموضوع ، أنه حامى الأميرات ؛ ولم يقنع هؤلاء بهذه الحماية فسمين في طلب المساعدة الخارجية خشية من عدوان أخيهن ، وكان ألفونسو التاسع ملك ليون على أهبة لأن يبذل هذه المساعدة . وكان يقيم في بلاطه ولي عهد البرتغال بيدرو ، الذي غادر المملكة لخصام عائلي ؛ فسار هذا الأمير مع ولد أخته نيريزا وهو فرديناند ولي عهد ليون على رأس القوات الحاربة ؛ وغزا البرتغال ، وعاث في أرضها ، ليرغم الملك ألفونسو الثاني على أن يرفع الحصار عن الأماكن التي اختص بها الأميرات ، بيد أن الجيش الفاتح بالرغم مما أتيه من مساعدة البرتغاليين ، واقتتاحه لبعض الحصون ، وبالرغم من أن مبعوثي البابا أعلنوا قرار الحرمان ضد ملك البرتغال ، لم يستطع أن يحول دون سقوط أملاك الأميرات في يد أخيهن . وهنا فقط أبدى ألفونسو الثاني استمداه للصالح . وفي أثناء الهدنة التي عقدت سار بيدرو مع القوات البرتغالية للاشتراك في محاربة المسلمين في موقعة العقاب وأبدى شجاعة وبطولة . بيد أنه لم يحض سوى التنازل حتى سار إلى مراكش ملتجئاً إلى سلطان الوحدين الذي كان يحاربه من قبل ، ثم حارب إلى جانبه ضد الخارجين عليه في المغرب .

وفي تلك الأثناء نشبت الحرب في البرتغال بين الملك وأخواته من جديد ؛ وأصدر مندوبو البابا الذين عهد إليهم بتسوية النزاع حكماً في منتهى التمسف ، إذ قرروا دون البحث فيما إذا كان ألفونسو الثاني محقاً في محاربة أخواته أم متجنياً عليهن ، أن يلزم بتفقات الحرب كلها ؛ ولما أبى ألفونسو أن يذعن لهذا الحكم ، صدر ضده قرار الحرمان الديني مرة أخرى ، ولكن البابا أنوسان كان بعيد النظر فسارع إلى إصلاح الخطأ ، وقضى بمد بحث جديد لأسباب النزاع بإلغاء

حكم مندوبيه ، وإنهاء قرار الحرمان الذي صدر ضد الملك ، وبأن يمهّد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية ، وأن يعطى دخلها إلى الأميرات ، وأن تبقى خاضعة لحقوق الملك وسلطانة . أما نفقات الحرب وما ترتب عليها من الأضرار فيقدرها بعض المدول وتوزع على الفريقين بالإينصاف ؛ وصدر الحكم البابوي في ٧ أبريل سنة ١٢١٦ م فاستقبله الفريقان بالرضى .

وعندئذ فقط استطاع ألفونسو الثاني أن يشهر الحرب على المسلمين ، وكان قد رسا في تلك الآونة (يوليه سنة ١٢١٧ م) في مياه اشبونة أسطول من ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجنود الصليبيين ، القادمين من جنوبي ألمانيا ، لإصلاح ما فسد من السفن أثناء الرحلة ؛ وكانت الحملة تحت قيادة الكونت فلهم صاحب هولنده ، وجورج فون فيد ؛ فاستجاب معظم رجالها لدعوة رجال الدين البرتغاليين وأستاذ الفرسان ، وحملهم تقدم الفصل ، وأمل الظفر بالفتنم العظيمة ، على التدخل في البرتغال ، والقيام بحملة ضد المسلمين . ولم يرغب هذا العرض سوى الفريزيين ، فأبحروا إلى فاسطين في ثمانين سفينة . وسار باقي رجال الحملة مع الفرسان البرتغاليين ، وفرسان القديس ياقب ، وفرسان الداوية والاستبتارية ، وحاصروا قصر أبي دانس ؛ وفي الحال حشد ولاية قرطبة وجيان وإشبيلية جيشاً إسلامياً ضخمًا ، سار إلى إبحاد القلعة ، ولكن هزمه النصارى ؛ ونسب النصارى نصرهم في تلك الموقعة إلى معونة فرقة من الملائكة في صفة الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم في ثياب بيض ؛ وسقط من المسلمين في تلك الموقعة أربعة عشر ألفاً (١٠ سبتمبر سنة ١٢١٧ — ١١٤^(١) هـ) ولم يتمكن النصارى بالرغم من هذا النصر الباهر من الاستيلاء على القصر إلا بعد ذلك بستة أسابيع ؛ وعملت المدينة التي فتحت أبوابها للمحاصرين في ٢١ أكتوبر سنة ١٢١٧ ، ماملة مدينة فتحت عنوة ، فقتل من أهلها كل من كان أهلاً للجل. السلاح ؛ وأخذ باقي

(١) وردت تفاصيل هذه اللوحة في روض القرطاس (ص ١٦٦) ، ويطلق على مدينة قصر أبي دانس بالألمرغية Alcazar do sal .

السكان أسرى ؟ وسلت المدينة بعد ذلك إلى فرسان شنت ياقب ، لما أظهره
أثناء القتال من شجاعة فائقة ، ولم يسافر الجند الصليبيون إلا في أوائل العام
التالى بعد أن قضوا الشتاء فى أشبونة ، فنادروا مياه البرتغال إلى فاسطين .

ولم يكن ميسوراً فى ذلك الوقت الذى تمعدت فيه شؤون البرتغال الكنسية
أن يطول أمد الوثام بين الملك وأساقفة المملكة ؛ فقد طالب الملك الأساقفة
بنصيبهم من نفقات الحرب من متحصل أملاكهم الواسعة ؛ ولم يكن يتاح للملك
دائماً أن يجمع جرائم رعايه ، التى كان يرتكب مقامها بسبب النظم السيئة وامتيازات
رجال الدين ، كذلك رأى الملك أن يقدم رجال الدين الذين يخالفون قوانينه إلى
القضاء المادى ليحاسبهم على مسلكهم ؛ فاحتج اصطفان مطران براغا على هذه
الأمور كلها بشدة ، فكان جواب الملك أن نزع منه بعض أملاكه ؛ فاستشاط المطران
غضباً ، وأصدر قرار الحرمان والتحریم ؛ فلم يبدأ الملك بذلك ، واضطر الأسقف أن
يسمى إلى السلامة بالفرار ؛ وحاول البابا هووربوس فى كتابين متتاليين أرسلهما
إلى الملك أن يصلح بينه وبين الأسقف ، وحشهما على النسيان والصفح ، فذهبت
جهوده عبثاً ، وعندئذ أصدر هووربوس — بتحريض المطران الفار — قراراً (فى
٢٢ ديسمبر سنة ١٢٢١) ، ينذر فيه الملك بأنه إذا لم يبادر إلى إنصاف المطران ،
فإنه يصدر قرار الحرمان والتحریم ضد المملكة كلها ؛ ثم يأمر بعزله وتولية أمير
آخر على المرش . ثم أصدر البابا أمراً آخر يطلب فيه الملك بالتخضوع والطاعة
ويكرر وعيده فى حالة المخالفة ، ولكن الملك لم يذعن مع ذلك ولم يسلم ، بيد أنه
مالئت أن مرض وتوفى فى ٢٥ مارس سنة ١٢٢٣ م . وقد عجز ألفونسو فى أواخر
حكمه عن متابعة الحرب بنفسه نظراً لبدائته الفرطة ، وهى التى أسبغت عليه لقب
« البادن » بيد أنه كان مع ذلك يدير شؤون المملكة بكفاية ؛ وقد غير نظم البلاط
وملح حقوقاً خاصة لكثير من المدن ، وعنى بإصدار طائفة من القوانين الجديدة .
وكان قد دعا عقب توليه المرش ، فى العام الأول من حكمه ، المجلس النيابى
(الكورتيس) إلى الانمقاد فى قلمرية ، وأصدر بموافقته عدة قوانين ونظم عامة ،

أدرجت فيما بعد في مجموعة القوانين التي أصدرها ألفونسو الخامس . ونص في هذه القوانين على احترام الحرية الشخصية ، وأصلحت إجراءات المرافعات ، ونص على تأمين الملكية ، وعلى إنشاء المكوس الظالة ، وتأييد بعض امتيازات الكنيسة ورجال الدين ، كما ألغيت منها بعض الامتيازات المرفقة .

٣ — سانشو الثاني الملقب بذي الثوب الكهنوتي

كان سانشو الثاني في العشرين من عمره حينما خلف أباه على العرش ، وكانت مهمته الأولى أن يصلح بينه وبين رجال الدين ؛ ففي المجلس النيابي الذي عقده في قرطبة في يولية سنة ١٢٢٣ وضع اتفاق بنص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التي آلت إليهم في عهدي الملكين السابقين ، وأن تلغى جميع الحقوق والسلطات التصفية التي كانت الكنيسة تشكو منها بحق ، وزيد على ذلك أن منحه الأساقفة سلطات جديدة على حساب العرش ؛ ومع أن الملك اعتبر حامياً للكنيسة ، فإنه لم يكن يسمح له بأن يقضى في الخصومات التي تنشأ فيما بين رجال الدين .

وعقد الملك مع مطران براغا اتفاقا خاصا تمهد فيه بأن يدفع له ستة آلاف قطعة من الذهب ، وأن يعوضه عن جميع الأضرار التي نزلت به من جراء النزاع ؛ وقام المطران من جانبه بالناء فرار الحرمان والتحریم ، ونبرة المولى الذين دفنوا من قبل دون تبريك وفقا لعافوس الكنيسة .

كذلك عقد سانشو الصلح بينه وبين عماته ؛ فنزل لهم عن الأماكن التي وهبت لهم بمقتضى وصية جده . وقرر لهم راتباً سنوياً قدره أربعة آلاف قطعة من الذهب ؛ واعترف الأميرات من جانبيه بسلطة الملك ، وأن يقدمن إليه وقت الحرب الجند اللازمين ، وأن تستعمل السكة الملكية في أملاكهن ؛ وبعد وفاتهن تؤول الأماكن والحصون الهامة التي بأيديهن إلى العرش ؛ أما باقي أملاكهن فتوزع على الكنائس والأديار التي خصصت لها . وفي مقابل ذلك أيضاً رد فرديناند ملك ليون وقشتالة (سنة ١٢٣١) حصن سنت اشتين الذي استولى عليه

إلى سانشو ! وهكذا سوى هذا النزاع الذى طال أمده بين أفراد الأسرة الملكية .
ولما انتهى سانشو من ترتيب جميع الشؤون التى يمكن أن تمس سلام المملكة
الداخلى ، وقطع فى الحكم بضمه أعوام يدير الأمور بحزم وفطنة ، عول على أن
يشهر الحرب على المسلمين ؛ وكانوا فى تلك الفترة يكثر من الإغارة والميث فى
أطراف المملكة الجنوبية تارة بقيادة الأمراء الموحدين ، وتارة بقيادة خصومهم .
وكان قد استولى عنوة على مدينة الواس فى سنة ١٢٢٦ ، وشحنها بالسكان
النصارى الذين أعطاهم حق المشاركة فى احتلال يابره ؛ وفى الأعوام التالية كثر
غزواته للأراضى الإسلامية . ولما أخذت دولة الموحدين فى الانهيار وقام ابن
هود بمحاول إنشاء دولة جديدة فى الأندلس والمغرب ، انتهز سانشو فرصة
الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية ، وعمل على توسيع حدوده الجنوبية ،
فافتتح صربا وبورمنها وغيرها من القلاع ؛ وسر البابا جريجورى الحادى عشر
لهذه الفتوح أيما سرور حتى أنه أصدر فى ١٢١ أكتوبر سنة ١٢٣٤ م قراراً وعد
فيه جميع النصارى الذين يحاربون مع الملك سانشو ضد المسلمين بغفران ذنوبهم ،
كما لو كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية فى الأراضى المقدسة ، على أنه يبدو أنه
لم يقصد البرتغال يومئذ لمحاربة المسلمين كثير من الصليبيين ، ومع ذلك فقد ضاعف
سانشو العزم فى فتوحاته . وكان من أهمها فيما بعد الاستيلاء على مدينة مارنلة ،
وهى مدينة كانت لوقتها الحصين تصلح قاعدة لفتوح أخرى ، وقد أعطاها سانشو
لفرسان شنت ياقب تمكيناً للمحافظة عليها . وترتبت على هذا الفتح فتوحات أخرى
فى الأراضى الإسلامية ؛ وهوجم المسلمون من البر والبحر ؛ وأثار البابا حماسة
البرتغاليين بقرار جديد أصدره سنة ١٢٤٠ م ؛ وافتتح الفرسان البرتغاليون طبرة
وهى قلعة هامة فى الغرب فى سنة ١٢٤٣ م ؛ فوهبها سانشو أيضاً إلى فرسان
شنت ياقب ، وهى هبة صادق عليها البابا .

وبالرغم من أن الملك بذل جهد استطاعته لإرضاء رجال الدين وجد فى محاربة
المسلمين ، ونشر النصرانية ، وبالرغم من أنه كان يستند فى ذلك إلى تأييد البابا

فانه لم يستطع اجتناب النزاع مع جميع أساقفة المملكة ، فلم يكن هؤلاء ليهدا لهم بال قبل إسقاطه عن العرش .

وقد اضطر سانشو أن يترل عن هيئته الملوكية لإرضاء لطالب يوليان أسقف بورتو ؛ وكان هذا الجبر قد شكا منذ أوائل حكم سانشو إلى البابا ، بأن الملك ييسط سلطته القضائية على أسقفية بورتو ، وأبى الأسقف بييدرو خلف يوليان أن يسمح للملك أن يكون له اختصاص في قضايا الأفراد الماديين أو المنازعات التي تقع بين رجال الدين ، أو أن يسمح لرجال الأسقف بأن يؤخذوا للقتال مع الملك . ولو سلم الملك بهذه المطالب لفدا الأساقفة في دوائهم كالأمرء المستقلين .

وقدم الأسقف شكواه في رومه إلى البابا ، فزولى الوساطة بينه وبين الملك ، وعقد اتفاق (في سنة ١٢٣٣ م) يتعهد الملك بمقتضاه باحترام الحريات والحقوق الكنسية ، ولكنه يتمسك بمقابل ذلك بأنه إذا نشبت الحرب ضد المسلمين فعلى أسقف بورتو وكذلك أساقفة المملكة الآخرين أن يقدموا إليه الجند الممونة ، وبأن يكون للقضاة الملكيين وحدهم حق الفصل في الخصومات التي تقع بين الأفراد الماديين وبين رجال الدين ؛ على أن هذا الاتفاق لم يكن حاسماً للنزاع لأن البابا لم يصادق على هذه النقطة الأخيرة .

وسرعان ما اضطر النزاع من جديد بين الدينين ورجال الدين فإنه لم يمض سوى القليل على تسوية النزاع مع أسقف بورتو ، حتى أخذ الموظفون الملكيون يتدخلون في الشؤون الدينية حسبما زعم مطران براغا . ولما لم يحقق الملك رغبة المطران في عمل الترضية اللازمة ، أصدر المطران قرار التحريم ضد أولئك الموظفين الملكيين ، ونوجه بشكواه إلى البابا ؛ وبدل مضمون هذه الشكوى بوضوح على أن منح الامتيازات المرفقة لطبقة من الطبقات مما يحمل الطبقات الأخرى على أن تستعمل وسائل العنف والضغط لتفوز بنوع من المساواة ؛ وقد كانت الشكوى في مجملها ضد الموظفين الملكيين أعنى ضد الملك الذي يمولون ويقضون بأمره وبأمره ، بيد أنها تضمنت أيضاً شكوى معينة ضد الملك ذاته ، منها أنه أثناء

سفرائه يرهق الأديار والضياع الكنسية بطلب المال والمؤن ، وأنه يقبض إيراد الكنائس الخالية لحسابه ويولى أمرها للمدنيين ، وأنه يدعى حق الحماية على بعض الكنائس الحرة ، ويسلمها إلى أشخاص من السفلة ؛ وأما الشكاوى التي قدمت في حق الموظفين ، فأجمعها أنهم يرهقون المطران ورجال الدين بالغراملات المالية لحملهم على الاشتراك في الحرب ، وينفقون على إطعام رجال الملك وخيله من أموال الكنائس ، ويرغمون الأحرار على اتباع النظم الدينية ، ومن ذلك إرغامهم على الحضور أمام القضاة المدنيين في قضايا النزاع على الملكية ، ومنهم أن يتقبلوا الهبات أو الأوقاف من الأتقياء متى وصلت أملاكهم إلى حد معين ، وأنهم كثيراً ما يعمنون المطران من معاقبة القساوسة المدنيين ، وكثيراً ما يدخلون منازل القساوسة لأوى الأعداء فيهينونهم ، ويسرقون أموالهم .

وفي ١٥ أبريل سنة ١٢٣٨ أصدر البابا قراراً بوجوب إلغاء هذه المساوىء ، وخول للمطران في حالة ما إذا أصر الملك على موقفه ، أن يحدد ضده قرار الحرمان ؛ فإذا لم يكف هذا الإجراء ، لجأ البابا إلى وسائل أخرى ؛ ولم يجد سانشو في المرسوم البابوي ما يمس حقوقه الملكية بصورة مباشرة ، فوافق على تنفيذ النص الخاص بحرية الكنائس كما ورد في الرسوم ومراعاته ؛ وبذلك استطاع أن يجتنب المأساة مرة أخرى .

على أن استسلام الملك لم يرق في أعين فريق كبير من الأشراف . ذلك أنه كلما ارتفعت مرتبة رجال الدين وزادت امتيازاتهم زاد عبء الممونة العسكرية ونفقات الحرب على الأشراف . وكانت الأشراف قد اعتادوا أن يحصلوا بالعرف والعصب من رجال الدين ما كان يخلق بهم أداؤه مختارين لو وزعت الحقوق والواجبات بصورة عادلة ، بحيث كانت امتيازات رجال الدين ، امتيازات اسمية أكثر منها فعلية . وكان على رأس خصوم الأحرار ، أخ فتي للملك هو الأنفانت فرديناند صاحب صربيا ؛ وكان قد ارتكب ضد الكنائس والأديار كثيراً من ضروب المسف ، حتى أن مطران براغا جعل قرار الحرمان

يشمله . ووجه اللوم إلى الملك كره أخرى لأنه لم يقمع عدوان آلِه وسجده ؛ واضطر الأنقائت فردبناند أن يذهب إلى رومه (سنة ١٢٣٩م) ليقدم غرامته إلى البابا وليحصل على عفوه ؛ فمعا عنه البابا مقابل تمهده بالآلا يستدى بمد على شيء من حقوق الكنيسة . ولكن سانشو لم يكن باستطاعته أن يرغم جميع أشراف مملكته الذين يرتكبون المسف ضد الكنيسة ، على مثل هذا الخضوع . واستمر سانشو مدى أعوام أخرى يبذل أعظم الجهود في أداء واجبات الحاكم اليقظ ، بتابع الحرب ضد المسلمين بنجاح ، ويكافح داخل المملكة ضروب الإخلال بالنظام والمسف أبنا ظهرت ، ويدبر دفة الحكم بمنتهى العناية والحرص ؛ بيد أن الصعاب كانت تتفاقم في سبيله ، فقد بدأ الأشراف بالتحرك ، وكان أخص أقاربه على تفاهم معهم ، وكان رجال الدين يفيضونه ، ويترقبون الفرصة لإسقاطه ؛ ولهذا لم يكن غريباً أن ينحدر سانشو بعد هذه الأعوام الطويلة التي قضاه في جهود عقيمة إلى نوع من السأم والخلول ، وأن يمد أعداؤه إلى انتهاز هذا الظرف لإسقاطه ؛ واضطر سانشو أن يقف الحرب ضد المسلمين بمد أن تخاف عن طاعته فريق من الأشراف ، وحتى الحدود غدت دون دفاع كاف ضد غزوات المسلمين ؛ وعهد الأخبار - بدلا من البحث لدى الأشراف المخالفين عن سبب اضمحلال سير الحرب ، ومحاولة إقناعهم بالخضوع - إلى اتهام الملك بالإهمال والتواكل ، وتمريض المملكة بذلك إلى الخطر ، وأنحازوا خفية إلى النابرين . وقد كان اضطراب أية ثورة ينذر سانشو بالويل . ذلك أن أخويه الفونسو وفردبناند ، وعمه بيدرو كانوا يمثلون الحركة الثورية ، وكان لكل منهم حزب من الثوار ؛ وكان الجود التي لزمه سانشو يومئذ ، وخضوعه المطلق لنفوذ زوجه السي ، وهي الملكة ماريا لوبيز دي هارو ، مما يثبط هم أقرب أنصاره ويشجع خصومه على اتخاذ خطوات سريعة حاسمة .

ولما كان سانشو دون ولد ، فقد كان ذلك يحفز الأمراء إلى الاهتمام بأمر المملكة ؛ وكانت أطماعهم تتفق مع أمانى الثوار في خلع الملك عن عرشه . وكان

المتقد أنه لا ينقص مثل هذه الخطوة سوى موافقة الكنيسة ؛ ولهذا انجبه الثوار وعلى رأسهم الأحرار بشكواهم إلى البابا أنوسان الرابع ، وكان يومئذ بمقد في ليون مجلساً كنسياً (سنة ١٣٤٥ م) ظلع القيصر فردريك الثاني ؛ فأصدر كتاباً إلى الملك بأن يعمل على تلافى أسباب الشكوى ، وأن يقدم الترضيات اللازمة ، وإلا اضطر الأب المقدس إلى أن يتخذ في حق ملك البرتغال ومملكة البرتغال خطوات شديدة أخرى .

وذهب في تلك الآونة أيضاً إلى المجلس الكنسى في ليون أسقفنا بورتو وقلمرية ومطران براغا ليرضوا شكواهم شخصياً على البابا ؛ وكان يصحبهم عدة من الأشراف البرتغاليين كسفراء للملك يدافعون عن حقوقه ، بيد أنه تبين فيما بعد أنهم خائنون لقضية مليكهم ؛ وما كاد الأحرار والأشراف البرتغاليون يصلون إلى ليون حتى قدموا شكواهم ضد مليكهم ، وطلبوا عزله عن الملك ، وتولية أخيه الأنفانت الفونسو مكانه ؛ وكان هذا الأمير قد غدا بزواجه من الكونتيسة مانبلده صاحبة بولونيا ، أميراً لهذه الولاية ؛ وكان قد توثقت صلته بالكنيسة منذ أعوام ، وكان يعد بأن يقود جيشاً إلى الشرق لمحاربة الغزاة التتار ، وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمى الأندلس ؛ وكان الأحرار والأشراف الخوارج يرون فيه أداة لينة لتنفيذ خطتهم . واستجاب البابا أنوسان الرابع لرغبات هؤلاء النفر الفلائل ، وقبل أن يصله من البرتغال جواب كتابه السابق ، أصدر في ٢٤ يولييه سنة ١٣٤٥ م قراراً بمنزل الملك سانشو الثاني ، محتجاً بأنه اغتصب بعض الأملاك الكنسية ، وترك الفوضى تفرم البلاد بمجزئه وإحماله ، وتنصيب أخيه الأنفانت الفونسو صاحب بولونيا مكانه في الحكم ، وقد كان من حقه أن يخلف سانشو في الملك إذا توفى دون عقب ؛ وكان القرار يحمل بالفاظله معنى إقامة الفونسو وصياً لا ملكاً ، ولكن تبين فيما بعد أن المقصود هو العزل الحقيقي . وكان الفونسو يومئذ في باريس لدى خالته الملكة بلانكا والدة القديس لويس ، فانقلب عائدأ إلى البرتغال . بيد أنه اضطر أن يقطع في البداية لزعماء الأحرار الذين

ذكر نام عهداً بأن يحترم جميع امتيازات رجال الدين ، وأن يبذل لهم امتيازات وحقوقاً أخرى ، وأن يؤيد كل القوانين العامة والحقوق الخاصة ، بل تمهد لهم بأن يعطيهم نصيباً في حكم المملكة .

فقلع الفونسو على نفسه هذه المهود في سبتمبر سنة ١٢٤٥م مشترطاً مع ذلك ألا تضرب بحقوقه أو حقوق المملكة ، ثم ترك لزوجته إدارة الإمارة ، وركب البحر مع الأبحار والأشراف البرتغاليين ، عائداً إلى البرتغال ، فوصل إلى ثغر اشبونه في نهاية سنة ١٢٤٥م ؛ وفي الحال أقبل الشعب على مبايعته بالطاعة والخضوع . وكان تطور الحوادث على هذا النحو مفاجأة لسانشو ، فما تصور قط أن تفضي الأزيمة إلى مثل هذه النهاية ، ولم يفكر في الاستعداد لمحاربة خصمه وإخضاعه بقوة السيف . ذلك أن الفونسو كان معه رجال الدين وفريق من الأشراف ؛ ولم يكن رأى الشعب يومئذ قيمة في تأييد هذا أو ذاك ، ولكنه كان ينحاز حتماً إلى الجانب الذي تؤيده الكنيسة والأشراف . هذا إلى أن مطران براغا وأسقف قلدرية ، قد استصدرا من البابا مرسوماً يخولهما أن يوقعا المقولات الكنسية على كل مخالف للحكومة الفونسو ، وهكذا اضطر سانشو أن يبحث عن سلامة نفسه ؛ ففر إلى قشتالة ، ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث « المقدس » ، فاستقبله في طليطلة ، ووعد — عملاً بنصح الأساقفة وبعض الأشراف — بالمعاونة والتأييد ضد ثوار مملكته الذين تزعموه من المرش .

وخرج سانشو على رأس جيش جهزه له ملك قشتالة ، ومعه ألفونسو أكبر أبناء فرديناند الثالث ، وزحف على البرتغال ، بيد أن محاولته كان مغضياً عليها بالفشل . ذلك أن ألفونسو الثالث أمير البرتغال الجديد ، بادر إلى استمالة كثير من أنصار سانشو المترددين ، بالوعود والمطايا ، وإلى إرهاب أولئك الذين أصروا على معارضته وإخضاعهم ؛ ولم يبق إلى جانب الملك القديم سوى عدد من القلاع التي ثبت أصحابها على ولائهم ؛ فلما غزا الجيش القشتالي الأراضي البرتغالية ، لقيه ألفونسو في قوى ضخمة ؛ بيد أنه قبل أن يشبكيه معه في القتال ، حاول أن يقنع

القشتاليين بالحسنى أن يعودوا إلى بلادهم ؛ وبث إلى الأنفانت ألفونسو بطلمه على الفرار الباهوى ، وكيف أنه تلقى الحكم من الأب القدس ، وأن كل من يقف في سبيله يمرض نفسه لمقوبة الحرمان ؛ كذلك حث الأحرار الأنفانت على المود ؛ ورأى الأمير أنه لا يستطيع أن يحمل من تلقاء نفسه نيمة خطورة قد تمرض عواقبها قشتالة ذاتها للخطر ، فعاد بالجيش إلى قشتالة دون أن يشتبك مع البرتغاليين في موقعة ما . وربما رأى سانشو في تصرف القشتاليين من الحكمة وبعد النظر ، أ كثر مما أبدوا من وفاء بهودهم . ومع ذلك فقد آثر أن يعود ليميش في قشتالة على أن يحاول أن يجوز تقلبات الحرب في مملكته . وقد كان أنصاره المخلصون يسيطرون على كثير من القلاع ، وكان في وسعهم أن يهددوا حكومة ألفونسو أعواماً أخرى ، ولكن سانشو آثر فيها بقاءه دعة الحياة الخاصة ؛ وعاش الأمير الذي كان ولوعاً بالحرب ثلاثة أعوام أخرى كما يمشى الرهبان ، بين الاستغفار والصلاة وأداء الصدقات ؛ وهو أكثر اتصالاً بالمسلم الآخر منه بهذا المسلم . وقد نعتقد أن لقبه وهو « ذو الثوب السكهنوتى » اشتق من هذه الحياة التى عاشها في أعوامه الأخيرة ؛ ولكننا نعلم في الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل — على أثر مرض خطر أصابه — ثوب راهب تبركا بالقديس أوغسطين ووفاء لنذرته بذرتة متى شفى . وتوفى سانشو في طليطلة في يناير سنة ١٢٤٨ م .

ومع أن سانشو قد نبذ عرشه ، وترك أنصاره إلى مصيرهم ، فإنه مضت أعوام أخرى قبل أن يوطد ألفونسو سلطانه في سائر أنحاء المملكة ، وقد اضطر إلى أن يحاصر كثيراً من القلاع مدداً طويلة ؛ ولم يستطع تنلباً عاجها إلا بالجوع . وكانت قلعة قلورية ما تزال تقاوم حتى موت سانشو ؛ وكان حاكمها مارتى دى فريتاس يدافع عنها وهو يمانى كل ما يفرضه حصار أعوام من ضروب الضيق والإرهاق ؛ بل لقد أبى أن يسلمها حتى بعد أن جاءت الأنباء بوفاة سانشو ، وطلب أن يتحقق بنفسه أولاً من صدق الخبر ؛ فأعطاه ألفونسو أماتاً وإذناً

بالسفر ، فسافر إلى طليطلة ؛ وطلب أن يفتح قبر سانشو ، وهناك وضع بين يديه مفتاح قلعة قلورية . ولا اطمأن إلى أنه أدى واجب الولاء للملكة تاما ، عاد إلى القلعة ، وسلمها إلى ألفونسو .

٤ — فتوح ألفونسو الثالث في ولاية الغرب

لم يتخذ ألفونسو الثالث لقب الملك إلا بعد وفاة سانشو ، وعلى أثر ذلك دما نواب الطبقات الثلاث إلى الاجتماع ، فبايعوه بالطاعة باعتهاره « أميراً ماسكا » ؛ أما قبل ذلك فكان يلقب فقط بالقائم بشؤون الدولة أو نائب الملك .

وما كاد ألفونسو يطمئن إلى توطد عرشه ، حتى أخذ يفكر في استئناف الفتح في ولاية الغرب (غربي الأندلس) ؛ وكانت الظروف يومئذ أشد مما تكون موافقة لإعلان الحرب على المسلمين ؛ ذلك أن سقوط إشبيلية في يد فرديناند الثالث في ذلك الحين قد أثار الروح في باقي الأراضي الإسلامية . وكان سانشو الثاني قد افتتح معظم ولاية الغرب ، واستولى على عدة من القلاع الواقعة على ضفة وادي يانة اليسرى مثل مورده وصرىا وبامونت ، فلم يبق على تنمة إخضاع الأراضي الواقعة غربي مصب وادي يانة سوى الاستيلاء على بعض الحصون .

وكانت دولة الموحدين قد انهارت تمام الانهيار ، وساد التفرق بين مسلمي الأندلس ، وغدا أقوى أمراءهم ، أمير غرناطة من أتباع ملك قشتالة ، فلم يكن من الممكن أن نتمتع الحصون الإسلامية في ولاية الغرب على أية مساعدة من الخارج ؛ وكان في وسع ألفونسو أن يطمئن إلى نجاح غزوه ؛ وقد بدأ بحصار قلعة فارو الواقعة بين شلب وطليطلة ، فطوقها من البر والبحر ؛ وصرعان ما اقتنع المسلمون ببسب المقاومة ، وجنحوا إلى تسليم المدينة (١٢٤٩م — ٥٦٤٧هـ) وأُتفق على أن يحتفظ المسلمون الذين لم يرغبوا في الهجرة بأموالهم ، بدينهم وأموالهم وشراعتهم ، وأن يكونوا رعايا الملك البرتغالي ، يؤدون إليه من الضرائب ما كانوا يؤدونه قولا إلى أمراءهم المسلمين ؛ وتلا الاستيلاء على فارو ، سقوط

المدن المجاورة بسهولة ؛ وكانت البقيرة قد أخذت قبل ذلك بقليل ؛ ولم تستطع لوله وما جاورها أن تقوم بمقاومة تذكر ، فلم يأت منتصف سنة ١٢٥٠ م (١٦٤٨ هـ) حتى سقطت ولاية الغرب كلها في أيدي البرتغاليين . وفي العام التالي عبر البرتغاليون نهر وادي يانه ، ومضوا في فتوحهم على ضفته اليسرى في قلب الأندلس ، واستولوا على قلعتي أروشه وأرسينه الواقعتين على مقربة من لبله ؛ وشجر الخلاف من أجل هذه الفتوح بين ملك البرتغال وملك قشتالة ، وسوف نقص فيما بعد كيف سوى هذا الخلاف بين الملكين ، وكذلك ما تبقى من سيرة الفونسو الثالث .

وهكذا غدت مملكة البرتغال — التي لم تكن عند قيامها في عهد مؤسسها الملك الفونسو هنريكي (ابن الرين) سوى الرقعة الممتدة بين نهري منهو ومنديجو — بفضل جهود البرتغاليين وشجاعتهم ، في ظرف قرن فقط ، ضعف ما كانت عليه ؛ وكان الملك الفونسو الأول قد استطاع خلال عدة حروب موفقة أن يدفع حدود المملكة إلى ما وراء نهر التاجه ، وأن يفتح العاصمة أشبونة ؛ ثم غزا ولده سانشو الأول ولاية الغرب ، وافتتح منها عدة حصون ، بيد أن هذه الفتوح لم تكن ثابتة نظرا لبعدها هذه الحصون وعزلتها ؛ ولم يمهد طريق الفتوح الثابتة في الغرب إلا بعد أن افتتح الفونسو الثاني بمساعدة الجند الصليبيين قصر أبي دانس ؛ ثم جاء سانشو الثاني فأبدي حمة مضاعفة ، وقام بفتح بعد فتح ، من القاس إلى يامونت وطبيرة ، وافتتح كل الأراضي الواقعة على ضفتي نهر وادي يانه الأسفل حتى مصبه ، ومهد بذلك السبيل إلى إنحسام افتتاح ولاية الغرب ، وكان هذا الفتح من نصيب أخيه وخلفه الفونسو الثاني ، في منتصف القرن الثالث عشر . ولم ترد مملكة البرتغال حتى يومنا في حجمها على ما كانت عليه في بداية حكم الفونسو الثالث .

الفصل التاسع

أحوال الدول الأسبانية

حتى وفاة فرديناند الثالث

يستمد فرديناند الثالث شهرته وعظمته في التاريخ الأسباني بالأخص من فتوحه ؛ ذلك أنه لم يوفق ملك أسباني في القرن السابق من الممدود الوسطى إلى ما وُفِن إليه من اجتتاب جميع المنازعات مع جيرانه من الملوك ، حتى لا يشغل في حروبه ضد المسلمين ؛ ولم يكن ثمة ريب في أن الحاسة الدينية لنشر النصرانية كانت أهم البواعث التي حملته على خوض الحرب مع المسلمين بلا انقطاع ، بيد أنه لم ينفل مع ذلك مصالح المملكة السياسية ، فقد بقي مثلاً على ارتباطه الوثيق مع أمير غرناطة . أما موقفه إزاء جاييم ملك أراجون ، فقد كان بحيث يخشاه هذا الملك دائماً نظراً لما كان ينشب من خلاف بينه وبين أكبر أولاده وكثير من أشراف مملكته ؛ على أن فرديناند لم يكن ليخشى من أراجون شيئاً على سلامة أراضيه ؛ ذلك لأن فتوح جاييم في مملكة مرسية لم تكن لتهدد قشتالة في شيء . وليس هناك ما يدل على أن فرديناند كان يطمح إلى امتلاك ناغارا عقب وفاة ملكها سانشو السابع بلا عقب ، وقد كان الناغاريون والأرجونيون يقاتلون ممّا مثل هذا التوسع من جانب قشتالة ؛ ولكن فرديناند كان أعقل من أن يقدم على مثل هذه الخطوة المقيمة ، التي كانت لتحول بلا ريب دون فتوحه في الأندلس ؛ ومع أن ملك قشتالة كان قليل التدخل في شؤون البرتغال الداخلية ، فإنه مع ذلك تولّى حماية سانشو الثاني

حينما فقد عرشه على يد رجال الدين ، ثم حاول أن يردّه إلى عرشه بقوة السيف (سنة ١٢٤٦م) ؛ ولكن حال دون تحقيق مشروعه قرار الحرمان البابوي ، ووفاء الملك الخلع عقب ذلك ، وكان يقيم في ظل رعايته في طليطلة . كذلك يستمد جاييم ملك أراجون شهرته بالأخص من فتوحاته ؛ وقد اشتهر أيضاً بأنه مشرع ومقنن ؛ ولكنه لم يكتسب هذه الصفة إلا في النصف الأخير من حكمه وهي فترة تتصل بمصر آخر لا نمنى به هنا . وأبدى جاييم في مسألة وراثة العرش كثيراً من الضعف والتردد ، وكاد يقضى من جرائها على جميع ما أداه من خير لملكته ؛ ذلك أنه طلق زوجه الينور بحجة القرابة حينما أصبحت لا تروق له ؛ ومع ذلك فقد اختار ولده الفونسو الذى أعقبه منها ولداً لعهده المملوك كلها ، وذلك على يد المجلس النيابي الذى عقده في طركونه سنة ١٢٣٣م . وكان هذا التصرف من جانب جاييم منافساً للمعاهدة التى عقدها مع سانشو السابع ملك نافارا ؛ وكان هذا الملك - الذى لم يقم منذ موقعة العقاب بأى عمل حربى يذكر - يمشى مع جاره في سلام دائم ، متمسكاً ببجالة ، بيد أنه استيقظ من جموده ، مذ ضم فرديناند الثالث عرش قشتالة وليون في مملكة واحدة ؛ وعقد مع ملك أراجون في الاجتماع الذى تم بينهما في تطيلة (سنة ١٢٣١م) معاهدة تحالف وثيق ضد قشتالة ، نص فيها على أن يتبنى كل من الملوكين زميله ، وأن يخلفه في عرشه ، وذلك بالرغم من أن جاييم كان له ولد ، وكان سانشو قد اختار من قبل ولد أخته الكونت تيوبولد أمير شامبانيا ليخلفه في عرش نافارا .

فلما أعلن جاييم في العام التالى ولده الفونسو ولداً لعهده ليخلفه في جميع مملكته ، قضى بذلك على معاهدته مع ملك نافارا . بيد أنه تقدم نحو عرش نافارا بطلبات بحجة ، حينما توفي سانشو السابع في السابع من أبريل سنة ١٢٣٤م ، في الثمانين من عمره ؛ واختار نواب الطبقات بالإجماع ابن أخته الكونت تيوبولد أمير شامبانيا ملكاً شرعياً لنافارا . وكان عدول ملك أراجون

عن دعواه الباطلة ضد ناقدرا ، يرجع بالأخص إلى اشتغاله بالفرز في أراضي المسلمين أكثر مما يرجع إلى اعتراضات رجال الدين والبابا جريجورى التاسع . وهكذا بقي تيوبولد حتى وفاته ملكا لملكته بلا منازع ، وخلفه في العرش عقبه . أما تاريخ هذه الأسرة الجديدة التي تولت عرش ناقدرا ، والتي تدين لمؤسساها بتنظيم الدولة وتزويدها بكثير من القوانين الحكيمة ، فيدخل في تاريخ العصر التالي .

وكان نصرف فرديناند إزاء جاييم ملك أراجون مليناً بالثغامة . ذلك أن جاييم طلق زوجته الأميرة الينور القشتالية بحجة القرابة ، واختار الفونسو ولده (سنة ١٢٣٢م) وليا لعهده ، ولكنه عاد فانتزع منه بعض أجزاء المملكة ليعطيها لأبنائه من زواجه الثاني ؛ ومع ذلك فقد بذل فرديناند كل ما في وسعه لكي يهدى بوساطته ما ترنّب على تصرفات جاييم التعسفية من الاضطرابات في أراجون ؛ ولما تزوج جاييم في سنة ١٢٣٥م بالأميرة يولانتا ابنة اندرياس الثاني ملك المجر ، ورزق منها بأولاد جدد ، قرر على يد المجلس النيابي الذي عقد في دروفه سنة ١٢٤٣م ، أن يعطى ولده من زواجه الأول الفونسو ، أراجون وحدهما ، وأن يعطى ولده من زواجه الثاني بيدرو ولاية قطلونية . وقد أثار هذا التصرف من جانب جاييم غضب ولي العهد وجميع الأشراف ؛ وكادت أن ترنّب عليه حرب دموية بين الوالد والابن ، لولا أن وفق فرديناند بتدخله إلى اجتنابها ؛ ذلك أنه أرسل ولده البكر الفونسو ، إلى ملك أراجون ، فمقد مؤتمرًا في السبرة (سنة ١٢٤٤م) ، واستطاع أن يسوى النزاع القائم بين قشتالة وأراجون على حق الفتوح في ولاية مرسية ، وأن يسوى في نفس الوقت ما شجر من خلاف بين الأحزاب الأرجونية . كذلك عقد الفونسو ولي عهد قشتالة خطبته على يولانتا ابنة جاييم توثيقاً لملائق الصداقة بين الملكين المتجاورين ، واشترط أن تعطى الأماكن المختلف عليها بين قشتالة وأراجون كهر لها .

وما كاد النظام يستتب في أراجون حتى وجه جايم كل عنايته لتزويد المملكة بالقوانين الكافية بتقديم الشب ورفاقتها ؛ فأعد في أوائل سنة ١٢٤٧ م على يد المجلس النيابي المنعقد في وشقة تشريفاً جديداً قام بوضعه جماعة من علماء القانون والعرف ؛ وكان واضحاً أن هذا التشريع الجديد يرمي إلى الحد من امتيازات الأشراف ، والتوسع في حقوق الطبقة الوسطى . وجمعت قوانين المملكة المختلفة في هذا التشريع وشرح منها ما كان غامضاً ، ونقح منها ما كان في حاجة إلى التنقيح ؛ ونص على أنه في الأحوال الغامضة يُرجع إلى رأى ذوى الزامة والمعرفة الذين خبروا هذه الشؤون ؛ وأضيفت إلى التشريع أيضاً مجموعة الأوامر القديمة المتعلقة بالحقوق الشخصية ، وإجراءات المرافعات ، والنظم الإدارية . ولم تبحث الأصول الدستورية ، وقصد بذلك على ما يلاحظ أن تعفى الامتيازات التي يتمتع بها الأشراف التابعون بمضى الزمن ، على أن جايم لم يخطر في باله أن الحقوق الملكية التي لم تسجل بوضوح ستندو هي ذاتها موضعاً لاعتداء الأشراف ، وهو ما وقع بالفعل فيما بعد .

وكان ثمة فكرة مشثومة تلاحق الملك جايم وهي تقسيم المملكة بين أبنائه . وما كاد ينتهي من تزويد أراجون بالقوانين الصالحة ، وهي خير قوانين عرفت يومئذ في أوروبا ، حتى أخذت تغلب عليه مخبرضات زوجه البارعه الطموحة بولانتا . وكانت الملكة تريد أن يمنح جميع أبنائها مناطق من أراضي المملكة ، فاستطاعت أن تحمل زوجها على أن يضع لها تقسيماً جديداً (سنة ١٢٤٨ م) ؛ وبمقتضى هذا التقسيم خص ألفونسو ، ولد الملك من زواجه الأول ، بولاية أراجون فقط ، ومنح بيدرو أكبر أبناء بولانتا ولاية قطلونية وجزيرة ميورقة وباقي الجزر الشرقية ، وحصل أخوه جايم على ولاية بلنسية ، وفرناندو على إمارة روسيون وكوتفلان ، وشرطانية ومونبلييه ، وعدة أماكن أخرى شمال البرتية ؛ أما أصغرهم سانشو فقد التحق برجال الدين ، ولم يحصل على شيء . بيد أنه رقى رغم حداثته إلى أرفع المناصب الدينية .

وما لبث هذا التقسيم أن أثار في أراجون حرباً أهلية أخرى ، وثار ألفونسو أكبر الأبناء من جديد ، وتحالف معه الأنفانت البرتغالي بيدرو صاحب بلنسية النقي بموارده ، وكان قد تنازل عن ميورقة لقاء بلنسية . وقد أرغم الأميران مدى حين على مذابرة الملكة ، بيد أنهما انضبا في معظم أنصارهما — وم أشجع فرسان أراجون وبلنسية — إلى الملك فرديناند الثالث ، وقدا إليه خدمات جل في عاصمة إشبيلية وافتتاحها ؛ ولهذا كان من الواضح لجاييم أن ابتفادها عن الملكة لم يضع للحرب حداً ، ولكنه أرجأها فقط . ورأى جاييم لكي يحول دون تفاقم الاضطراب في الملكة ودون تدخل قشتالة في شؤونها الداخلية أن يدمر نواب الطبقات إلى الاجتماع في القنيس (سنة ١٢٥٠ م) ؛ واختار النواب عدة محكين للفصل في منازعات الأحزاب والعمل على التوفيق بينها ؛ ورجع الفضل بالأخص إلى نصيح فرديناند في أن ولي العهد ألفونسو ، والأمير البرتغالي — وكأنا بقيان يومئذ في إشبيلية — انتهيا بالخضوع إلى هيئة المحكين . وكان ملك قشتالة يرجو غلصاً أن يمود السلام الداخلي إلى أراجون ، وعلى هذا فقد اضطر ولي العهد ألفونسو أن يخضع إلى القرار الذي أصدرته هيئة المحكين التي تدبها مجلس النواب في برشلونه في ٢٦ مارس سنة ١٢٥١ ، وإن لم يكن هذا القرار في صالحه ؛ وكان القرار يقضى بأن يخص ألفونسو بأراجون وحدها والفتوح الجديدة في ولاية بلنسية ، وبؤيد منح ولاية قطلونية للولد الثاني بيدرو ، وأن يعطى الولد الثالث جاييم جزيرتي ميورقة ومنورقة ومونيليه ، والولد الرابع فرديناند ولاية دوسيون وشرطانية وكونفلان . وهكذا حل جاييم بحبه الأعمى لأولاده من زواجه الثاني على أن يمزق مملكة أراجون ، في الوقت الذي عظمت فيه قوتها بافتتاح بلنسية ، وفي الوقت الذي استطاعت فيه قشتالة باتحادها مع ليون وفتحها في جنوبي اسبانيا أن تقضى على التوازن بين الدول الاسبانية ؛ بيد أن حكم جاييم الطويل الحازم ، وسوت ولي العهد ألفونسو قبل أيه حالا دون انقسام وحدات المملكة الرئيسية وهي أراجون وقطلونية وبلنسية . أما فرديناند ملك قشتالة فقد استطاع

بالمكس أن يوطد وحدة الأراضي التي ورثها ، والتي افتتحها ، وأن يذم بذلك عرفان الأمة الاسبانية التي اعتبرته بحق مؤسس المملكة الاسبانية .

ولما شعر فرديناند بدنو أجله ، استدعى ولده وولى عهده الفونسو ، وهو الذي اختير منذ مولده في سنة ١٢٢٢ م على يد مجلس رغش لولاية العهد ، وأوصاه بحضور الأشراف أن يعنى بأمر إخوته الخمسة وأن يكون لهم عناية الأب ، وأن يعامل الملكة — وهي جان دي بونتيه التي تزوجها فرديناند في سنة ١٢٣٨ م بعد وفاة زوجته الأولى بياتريس — بمقتضى الرفق والتبجيل ، وأن يترك الأمراء التابعين حقوقهم وامتنيازاتهم ، وألا يفرض شيئاً من الغرائب إلا إذا قضت بذلك الضرورة القاهرة ، وأن يسهر على تحقيق العدالة بين الناس دون تفریق بين أحد منهم ، وأن يحكم الملكة في خشية من الله . وفي ٣٠ مايو سنة ١٢٥٢ م توفي فرديناند مأسوفاً عليه من الجميع بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاماً ، وحكم ليون اثنتين وعشرين عاماً . ودفن في إشبيلية آخر فتوحه ، وكان قد جعلها قاعدة لمملكته ؛ وأسبغ عليه معاصروه — نظراً لورعه وتقواه — لقب « المقدس » ، ورويت عن قبره أساطير عديدة ؛ وخلع عليه البابا كليمنطوس الرابع لقب القداسة في سنة ١٦٧٧ ، تحقيقاً لرغبة الملك كارلوس الثاني .



ومنذ توات الأسرة البرجونية عرش قشتالة وليون ، وقعت في نظام الحكم في هاتين الدولتين تغييرات عديدة وإن تكن غير جوهرية . وكان أثر النظم والتقاليد الفرنسية قد أخذ يبدو منذ تبنأت الأسرة النافارية عرش قشتالة ، ولكن زاد هذا الأثر ظهوراً ، مذ وليت الأسرة البرجونية المتفرعة من أسرة كابيه الملكية ، عرش المملكة الاسبانية . فزادت سلطة الملك بعد أن كانت محدودة جداً ، وألغى مبدأ حق الانتخاب ؛ وكان حصول الملوك على حق اختيار أولياء العهد راجعاً بالأخص إلى أن الفتوح التي يقومون بها في الحروب الموقفة ، تعتبر ماسكاً خالصاً لهم يتصرفون فيه بما شاموا ، وكان الملك يحصل في هذه التصرفات على موافقة

السكراء من الأشراف والقواد والأساففة ، وهم الذين حققت هذه الفتوح على أيديهم ، ولكن هذه الموافقة لم تكن فرضاً لازماً ، وإنما كانت تؤخذ فقط لتسهيل إجراءات التصرف ؛ ومن ثم فقد تبوأ معظم ملوك قشتالة وليون العرش بطريق الوصايا الملكية من أسلافهم ، وهي وصايا كانت يصادق عليها دائماً كبار المملوك ؛ وكان لكل ملك أن يقسم ولايات المملكة بين أبنائه . ولكن مملكة تقوم على مبدأ الانتخاب تأتي مثل هذا التقسيم . وكان فرديناند الثالث ، الذي تولى عرش ليون بالرغم من إرادة أبيه وحرمانه إياه في وصيته ، أول من وضع لخبر المملكة قانوناً يحرم تقسيم مملكة قشتالة وليون المتعددة (وذلك في سنة ١٢٣٠ على ما يظهر) ولكن لم ينص فيه صراحة - في حالة ما إذا لم يوجد عقب مباشر من الذكور - ماذا يتبع في توريث القروع أو إلى أي حد يفضل فرع الذكور ، على الأعقاب من الإناث . ومع أن فرديناند الثالث كان يسيطر على نحو ثلثي شبه الجزيرة ، وقد دفع أطراف مملكة قشتالة إلى حدود لم يوفق إليها أحد من أسلافه ، فإنه لم يفعل ما فعله ملوك قشتالة السابقين من ادعاء السيادة على باقي الممالك النصرانية ولم يتخذ كـ بعض أسلافه لقب القيصر .

وكانت الحقوق الملكية ونظم البلاط في هذا العصر باقية على النحو الذي شرحناه من قبل^(١) ؛ فالوزير الأول يسمى « محافظ القصر » Majordomus وبلية وزير الحرب أو حامل السلاح Armiger ؛ وكانت وزير العدل يسمى Merinus Major ؛ ويتولى توقيع المراسيم والتصرفات الملكية السجل الملكي والمستشار الملكي . وحدث أثناء عهد الوصاية على القونسو النبيل ، وهنري الأول ، أن استطاع الأشراف أن ينتصبوا معظم سلطات الحكم ؛ وكان سن الرشد قد عين عند بلوغ الملك الرابعة عشرة ؛ وقد بلغت غطرسة الأشراف يومئذ حدا عظيماً بحيث كان من المألوف أن يرفضوا طاعة الملك ، بل لقد زعموا لأنفسهم يومئذ حقاً خطراً على كيان المملكة هو أن في وسعهم أن يرفضوا

(١) راجع من ١٢٢ وما بعدهما من الجزء الأول من هذا الكتاب .

الولاة لأملاك وأن يختاروا أميراً غيره ؛ وقد استطاع الفونسو النبيل ، وكذلك فرديناند الثالث في أعوام حكمه الأخير أن يحطما سلطان الأنراف — وقد كانوا ينفون من الضرائب ويملكون الضياع الواسعة والحصون والقلاع — وذلك بالأخص بمعاونة رجال الدين الأقوياء الأثرياء ، ورفع الطبقات الأخرى من الناحية الاجتماعية ؛ ومما يذكر في ذلك أن الفونسو النبيل قد نزع من الأنراف هيبتهم ، واضطهدهم ، وسلب المدن والفلاحين لمحاربتهم ؛ وعاون السكفاح المستعمر ضد المسلمين في المدن ، ولا سيما في أطراف المملكة الجنوبية على إنهاض الروح العسكرية ؛ وكانت هذه المدن كلها تقريباً تحكم نفسها طبقاً لقوانينها وتقاليدها الخاصة fueros ، وهي التي حصلت عليها أو انتزعتها من الملك ؛ وكانت تنزل إلى ميدان الحرب بأعلامها وقوادها مجهزة أحسن تجهيز ، وكثيراً ما تبرز النصر الباهر على العدو ، وتعود جيوشها مثقلة بالكنائس ؛ وظهرت بالأخص في هذا الميدان عدة مدن من قشتالة الجديدة واسترمدوره مثل آبله ، وصوريا ، وسقوية ، ومدينة ردريلك ، وشلنقة وغيرها . وفي أواخر القرن الثاني عشر صادق على مرسوم أصدره الفونسو النبيل منظم لوراثة العرش زعماء خمسين مدينة منها اثنتا عشرة تقع شمال نهر دوبره ، وتقع الباقية في جنوبه ، وتقع في المنحدر الجنوبي لوادي الرملة منها أربع عشرة ، وتقع في المنحدر الشمالي الشرقي أربع وعشرون . وإسكان فرديناند الثالث قد افتتح في القرن الثالث عشر عدة مدن كبيرة مثل بياسة وأبدية وجيان وفرمابة وإشبيلية وغيرها وشحنها بالسكان النصارى ، فقد كانت الطبقة الثالثة يومئذ غنية بمدها ؛ وكان نواب الطبقة الثالثة يمثلون عندئذ في المجالس النيابية ؛ ومن الخطأ أن يقال إن نواب الطبقة الثالثة مثلوا في الكورتيس (البرلمان) لأول مرة في عهد الفونسو الحادى عشر في سنة ١٣٢٥ م ؛ وكانت المدن التي تمتت فيما بعد ، في سنة ١٣٤٩ ، في مملكة قشتالة وليون المتحدة بحق إرسال نوابها إلى البرلمان ثمانى عشرة فقط .

وكان ابتداء مجلس البرلمان (الكورتيس) خلال القرنين الثاني عشر والثالث

عشر من الشؤون الكنسية يبدو شيئاً فشيئاً ، وغدت الشؤون الكنسية تبحث في مجالس خاصة (synod) ؛ وكان الأساقفة يمثلون في البرلمان كسابق عهدهم ، ولكن — بالأخص — باعتبارهم من الكبراء والأشراف ؛ وكان الكورنيس يدعى في هذه المصوّر بالأخص في أحوال ثلاث :

أولاً — حين صدور الراسيم الملكية الخاصة بوراثة العرش والوصاية ، وإصدار القوانين ، أو إصدار النظم المتعلقة بإدارة شؤون الدولة ، مما يجب أن يحوز مصادقة الأشراف .

ثانياً — عند إعلان الحرب على المسلمين ، وذلك للمصادقة على توزيع نفقات الحرب ، وتقرير عدد الجند الذين يجب حشدهم .

ثالثاً — عند فرض الضرائب وتقريرها ؛ ولا كانت هذه المسألة تهم المدن بنوع خاص ، فقد جرت المادة شيئاً فشيئاً أن يدعى مأمورو الملك وزعماء المدن إلى مجالس الكورنيس ؛ ولم يكن لهؤلاء حق التصويت في هذا الشأن ، ولكن كان لهم أن يبدوا رأيهم ، وأن يبدوا اعتراضاتهم في الأحوال التي يرون فيها فداحة الضرائب . وكان يوجد نعمة إلى جانب الضرائب العادية فروض وخدمات أخرى ، مثل تقديم المؤن والأقوات للجيش وأعمال التحصينات والحراسة في المدن والأماكن القريبة من حدود الأعداء .

هذا ، ولما كان لكل مدينة وكل ضيعة وكل دير تقريباً قانون خاص تجري المداولة بمقتضاه ، فقد كان من الممكن يومئذ نظراً لتجني الأشراف وسيادة حق القوة ، أن يقع التصادم بين مختلف القوانين ؛ بيد أن مثل هذا التصادم كان أقل مما نتصور . فقد كانت كل جهة تتمسك بقانونها دون أن تعبأ بمعارضة الآخرين . وكان السكان الذين يستقرون في المدن المفتوحة حديثاً يحصلون على قانون جديد ، يقبضونه عادة من مدينة سبقت لهم السكنى فيها . بيد أنه كان يجب الحصول على مصادقة الملك . وقد رأى فرديناند الثالث — لكي يحقق نوعاً من المساواة في التقنين في أراضي مملكته — أن يصدر تشريعاً عاماً يستند بقدر الاستطاعة إلى

القانون القوطي وإلى القوانين الخاصة المختلفة . بيد أن هذا المشروع لم يتحقق ، وأصدر ولده وخلفه ألفونسو المائث تشريراً جديداً ، ولكن على أسس أخرى غير التي رآها أبوه .

كذلك وضع فرديناند الثالث الأسس الأولى لمجلس قشتالة الملكي ، وهو عبارة عن محكمة استئناف عليا لجميع المملكة . وكانت هذه المحكمة تتألف من عشرة من كبار المشرعين من رجال الدين والدينين ؛ وكانت هي الملاذ الأخير في المنازعات ، وفي وسعها أن تنقح أحكام الحاكم الدنيا أو تعيد النظر فيها أو تنقضها ؛ بيد أن المستأنف كان ملزماً بأن يودع مبلغاً كبيراً قدره ألف وخمسة دبلون (عملة اسبانية) ، يضيع عليه إذا لم يحكم لصالحه .

وكما أن فرديناند الثالث ، لم يستطع أن يسطر سيادة قشتالة على باقي الممالك النصرانية ، فكذلك لم يحاول مطران طليطلة أن يحدد السيادة التي كانت لكنيستته على باقي الكنائس الاسبانية ؛ وقد كان مطراناً شت ياقب وطاركونه يمارضان في ذلك أشد المارضة . وظهرت هذه المارضة بشكل واضح منذ عهد الطران رديريك الطليطلي حيث احتج زملاؤه على طوافه في دوائرهم بهيئة رسمية وإصدار البراءات وغيرها من أعمال وظيفته ؛ وعقد يومئذ مجتمع ديني (سنة ١٢٤٠ م) تقرر فيه أن مطران طليطلة يرضى الأماكن التي يمر بها على هذا النحو إلى الحرمان . ولم يرض البابا من هذا القرار ، ولكن المطارنة الأسبان أصرروا على رفض سيادة مطران طليطلة عليهم . ولم يغيروا موقفهم حتى عند ما تولى سانشو ولد فرديناند الثالث منصب المطران في سنة ١٢٥١ م .

ونلاحظ فيما يتعلق بالشؤون الكنسية أن هيئة الأساقفة ورجال الدين قد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ما تولى الأساقفة القيادة ، وكثيراً ما حرضوا على أعمال القسوة ضد المسلمين ؛ وترتب على ذلك أن شابت الوحشية طباع الشعب ورجال الدين . ثم تلا ذلك ظروف محزنة جنح فيها الملوك — بالرغم من معارضة الكنيسة — إلى الزواج من أقاربهم ؛

وجلبوا بذلك فرار الحرمان والتحرير على أنفسهم وعلى الشعب ، واضطهدوا رجال الدين الذين أطاعوا البابا ، وأبدى فريق من الشعب اجتقاره للآخرين ؛ وغاضت المواطف الدينية حسب اعتراف الأساقفة أنفسهم شيئاً فشيئاً ؛ بيد أنها عادت فقويت من جديد في ظل حكم فرديناند الستين . وحذا هذا الملك الورع ، الذي اضطر أيضاً إلى حماية سلطته من رجال الدين ، حذو الفونسو النبيل ، في إنشاء الأسقفيات والكنائس والأديار في المدن التي فتحت حديثاً ؛ وتمسك الملك بحقوقهم القديم في تعيين الأساقفة ، وشدد في هذا التمسك الفونسو النبيل وفرديناند المقدس ؛ وشدد الكرسي الرسولي من جانبه في إنكار هذا الحق على الملك . كذلك كان على رجال الدين أن يقدموا الجند إلى الجيش أسوة بالأشراف ؛ بل كان على الأساقفة أن يؤديوا قسماً من أعتار الكنائس كضريبة حرب للمداونة في الكفاح ضد المسلمين . بيد أنهم لم يكونوا يؤديونه إلا بموافقة البابا . وفيما هذا ذلك كان رجال الدين يتمتعون بالإعفاء من الضرائب منذ أيام الفونسو النبيل ، ولم يتمتعوا بهذا الامتياز من قبل . كذلك تقرر في عهد هذا الملك ألا يضع الملك يده على تركات الأبحار وألا يستغلها بصورة مؤقتة ، بل تترك بجمعها إلى خلفائهم ، وكان على الأبحار مقابل ذلك أن يصلوا من أجل صحة الملك ورفاهته ؛ وكان فرديناند الثالث يشجع العمل على تحسين أخلاق الكهنة ؛ واستطاع المندوب البابوي ، الذي كثيراً ما تولى عقد الاجتماعات الكنسية ، وجماعات الرهبان الجديدة من الدومنيكيين والفرنسيسكانيين ، الذين ذاعت هيئاتهم في اسبانيا منذ تأسيسها في سنة ١٢١٨ ، بما أبدوا من ضروب الاعتدال والورع والتقشف ، أن يكونوا قدوة للكهنة الذين طفت عليهم المواطف الدنيوية وأن يردوم إلى حظيرة الدين . بيد أنه مما لا يمكن إنكاره أن التمصب الديني ، وشهوة الكهنة إلى السلاطنة ، واعتناق الخرافات الدينية ، قد أخذت يومئذ تنتشر في اسبانيا .

وهنا أخذت الحرب ضد المسلمين تزداد عنفاً وقسوة ، وأخذ اليهود قسراً إلى التنصير بالرغم من اعتراض البابا على ذلك ، وأرغموا على أن يلبسوا من الثياب

ما يجزهم ، ومنعوا من تحصيل أعشار الكنائس ؛ وعوقب الذين ينتمون إلى الألبين^(١) ، أو يمتنعون مبادئ غير الكتلكة بالموت حرقاً ؛ وكان الملك فرديناند الثالث يحقت الملاحدة أشد المقت ، حتى أنه تولى بنفسه في بالانسيا (سنة ١٢٣٦ م) إحرام النار في محرقة أعدت لإحراق ملحد . ولم يذع في عصر من المصور عن ظهور المعجزات مثلما أذيع عنها في النصف الأول من القرن الثالث عشر ؛ فحينما أحرز النصارى في الحرب نصراً باهراً ظهر القديس ياقب ، أو الفارس القديس جورج ، أو السيدة العفراء في المعركة ، ومعها مدد فير منتظر لأولئك الذين أشرفوا على الهلاك ؛ وقيل إن راهباً من ليون يدعى مارتن معروفًا بنبأه وجهله ، زل عليه القديس إيزيدور ، وأطعمه الكتاب المقدس ، فلي بذلك علماء وحكمة ، واستطاع أن يؤلف كتباً عديدة في أعوص المسائل الدينية ؛ ولما ذاعت التماثيل الإلحادية التي يرجع بعضها إلى مبادئ الألبين ، أصدر المجمع الديني المنعقد في طر كونه سنة ١٢٣٣ م قراراً بتحريم قراءة المهددين القديم والجديد على المدينين حتى في غير الاجتماعات العامة . وكذلك ذاع يومئذ اكتشاف آثار القديسين ورفائهم ، ووضعها في الكنائس في المدن الكبيرة ؛ وعرفت اسبانيا في ذلك الوقت أيضاً قديسين معاصرين مثل القديس دومنيك مؤسس الهيئة المروفة باسمه ، وقد أعلن قديساً في سنة ١٢٣٤ م

وكان من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين أن أسبغت حتماً على الأمة الاسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة ، ولم يحل دون تحولها إلى نوع من الهمجية المطلقة سوى شرف الفروسية والماطفة الدينية ، بيد أننا لا نجد أثر هاتين الخلتين الشهيرتين دائماً في الشعب الاسباني ؛ ففي أثناء حروب أسباني كاسترو ولارا في قشتالة ، والحروب الأهلية التي وقعت في عهد هنري الأول ، وأثناء حداته الملك جيايم ، بدا كأن الصفات الرفيعة قد غاضت في نفوس الفرسان ولم يبق مكانها سوى الرذائل من العنف والاضطهاد والعت والتفرد تسود هذه

(١) سبق أن أشرنا إلى مذهب الألبين في هامش ص ١١٠ من هذا الجزء .

الأراضي الثمينة ، حتى لقد كان رجال الدين والنساء فرائس لهذا الاعتداء . واما كان رجال الدين قد أترأوا من جراء الهبات للتواصل والإعفاء من كل الضرائب — بل ومن أداء ضريبة الحرب ضد المسلمين أحياناً — فكثيراً ما كان الفرسان والأشراف يحقدون عليهم ، ويتزعمون منهم بالعنف ما يرونه زائداً عن حاجتهم . وقد قتل مطرانان في طركونه بيد اثنين من أكابر أشراف المملوك ، وكثيراً ما وقع النهب والقتل والحرق دون خشية من الله ؛ ولم يبد الناس من الطاعة الملك إلا بقدر ما رأوه ضرورياً ؛ وكثيراً ما كان الملوك أنفسهم يقدمون الأمثلة السيئة من أعمال العنف ، مثل جاييم حينما أمر بقطع لسان أسقف جبرونه ، ونولم يمدد الفونسو النبيل في أواخر عهده وكذلك فرديناند الثالث إلى كبح جماح الفرسان بحزم وقوة ، لانهازت نظم الدولة كلها في فشتالة . ومن الدهش حقاً أن نرى رجال الدين في هذا العصر الذي ساد فيه قانون القوة ، يفتنون الفونسو النبيل بإلغاء « حق الإنفاذ »^(١) ، ومن عقوبات شديدة لن ينسكب النهب من السفن الجانحة .

وليس من المستغرب أن تزدهر الفنون والعلوم في مثل هذه المصير التي سادها الاضطراب والفوضى ، فقد دلت التجربة في كثير من البلدان على أنه كثيراً ما تزدهر العلوم في ظل قمقمة السلاح . وفي هذا العصر بالذات أسست الجامعات الأولى التي عرفتها اسبانيا النصرانية في بالانسيا وشلنقة . على أن ازدهار العلوم والفنون في فشتالة وأراجون يرجع بالأخص إلى العصر التالي ولا سيما في عهدي الفونسو العاشر والحادي عشر .

ولا تقدم إلينا المصادر فيما يتعلق بأراجون التي يحفل تاريخها بالندرة بكثير من المسائل الهامة ، قبل عهد جاييم سوى قليل من الوثائق المتناثرة ، كذلك من الواضح أن هذا الملك وحلفاءه قد سئوا كثيراً من النظم الدستورية التي لم

(١) المقصود هنا حق الاستيلاء على تمويش مقابل مساعدة الفينة على النجاة

نمثر على أسولها في عصور سابقة . وقد تناولنا فيما تقدم كل ما يتعلق بتاريخ أراجون الداخلي من الشؤون الهامة في القرون الأولى من المصور الوسطى ، وذلك عند الكلام على حكم الملك بيدرو الثاني ؛ أما غير ذلك من الشؤون فيرجع إلى عصر لاحق .

وقد نستعرض في لحظة سريعة تلك المصور التي قامت فيها السيادة النصرانية على شبه الجزيرة الاسبانية ، ونسأل بعد تأمل أهم حوادث هذه السيرة ، أليس من المسلم به أنها عبارة عن صراع دموي حافل بالتقلبات شهرة الاسبان ضد المسلمين في سبيل امتلاك شبه الجزيرة ، وهي مملكة رأت أبناء القوط دائماً أنها من حقوقهم الخالدة . وقد استطاع فرديناند المقدس وجايم الفاتح لأول مرة أن يحطوا تفوق الإسلام نهائياً ، وأن يحققوا للاسبان سيادة الأراضي الاسبانية بالرغم من أنها بقيت مدى حين مسرحاً لهذا الصراع ، وبقي المسلمون في مملكة غرناطة في رقعة من الأرض تمتد بين مملكتي قشتالة وأراجون وتشرف على المضيق .

إن السيف يفتح الأراضي ، ثم ينظمها القانون إلى دول ؛ وقد بق الفرسان ورجال الدين هما الدعائم التي تتمدنان الشعب الاسباني بالقوة اللازمة لسحق الصرح العربي الغربي . ولا خوف من الصراع الدائم ، ولم يبق المرء عاملاً بمعد عام يمشي في المعسكر ويخوض ميدان الحرب ، زادت عناية الاسبان بالزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون . ولم يكن من المصور قبل أن تسقط بالنسيئة وفرطية وإشبيلية في يد النصراني أن تزدهر الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم بين النصراني كما ازدهرت بين جيرانهم المسلمين . ذلك لأن النصراني كانوا يسيطرون فقط على القسم الشمالي المجذب من شبه الجزيرة ، ولأن الأيدي العاملة كانت تؤخذ دائماً للحرب ، ولأن الدول النصرانية فيما عدا قطلونية كانت منقطعة عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأن الحرب وحدها كانت سبيل الشرف والثراء والصيت . وكانت النظم التأسيسية ترى كلها إلى توزيع الحقوق ، حينما

تفرض أعباء الحرب ، ولم يكن يستثنى من ذلك رجال الدين . فلما توطدت حياة اسبانيا في شبه الجزيرة بعد صراع دام خمسة قرون أمكن أن يعنى التشريع بحقوق الأفراد بعد الجهود التي بذلت للعناية برعاية الدولة ورخائها ؛ ولم تكن الحرب أو الضرورة القاهرة عندئذ باعث النظم التأسيسية ؛ ولكن كان التوسع الحار في الحقوق هو الذي يوجه التشريع ، وكان التشريع ينظم أسس الدولة .

الفصل العاشر

نظم الدولة وفتون الحرب وأحوال الحضارة

في دولتي المرابطين والموحدين

كانت دولة المرابطين تنسب في قيامها ونعوها وادخلها خليفتهما ، دولة الموحدين شهماً عجيباً : كلتاها قد وضع أسسها داعية ديني ، وقاد الجند الذين غمرتهم الحماسة الدينية قادة عظام موهوبون من نصر إلى نصر ، وأنشأوا من هذه الفتوح دولة زودوها بنظم ، وأسرة ملوكية وراثية . بيد أنه ما كادت الموامل التي حركت هذه الشعوب — وظلت ونظمت كل شيء — يفيض مميهاً ، وما كادت حماسة الشعوب تنخبو ، وتفتقر هم السلطان الحربية ، حتى انهارت هاتان الدولتان المسكريتان بمثل السرعة التي قامت بها .

وكان من أشد الموامل التي ساعدت على بسط سيادة هاتين الدولتين في شمال إفريقيا ، رغبة البربر والمغاربة الذين فرض العرب عليهم سلطانهم ، في أن يحطموا نير السيادة الأجنبية ، وأن يلتفوا حول الأمر القومية ؛ واسكن الأمر كان على عكس ذلك في اسبانيا المسلمة حيث لم تكن كتلة الشعب من المغاربة ، بل كانت عربية (مصرية أسيوية) ، فقد كانت الدولتان المرابطتان ، تعتبران بالرغم من كونهما قد استدعيتا لمحاربة النصاري ، غاصبتين ليس غير ؛ وكان الزعماء والأمر الملوكية بالأخص ، وهم الذين جنت سيادة الإفرقيين على حقدوهم ، يبنضونهم ويحققون عليهم ؛ وحتى بعد أن فني معظم الأمر العربية المربية في

الأندلس وفي شرق اسبانيا ، لم يكن من اليسور إخضاع الشعب بغير القوة القاهرة . ومع أن الحروب المستمرة ضد النصارى الأسبان كانت تحتم الاحتفاظ في شبه الجزيرة بقوى ضخمة ، فإن اسبانيا المسلمة كانت مع ذلك ، في ظل دولة المرابطين ، وكذلك في ظل دولة الموحيين ، أغنى ولاية في الدولة المغربية ؛ كما أنها كانت في نفس الوقت أشد أجزائها تعرضاً لسف الحكام المسكرين ؛ وكان من الطبيعي أن يترتب على غزو هذه القبايل المغربية الخشنة ، انهيار الثراء العظيم والنماء السابقة اللذين عرفتهما الأندلس من قبل في عهد الدولة الأموية وعهد ملوك الطوائف ، وأن تفتقر العناية بالعلوم والفنون ؛ بيد أنه من المدهش أن نرى مسلمي الأندلس في تلك المصير المضطربة التي ساد فيها الخراب والميت ، ينافسون إخوانهم المسلمين في المشرق في جميع نواحي العلوم والحضارة .

١ — نظم الدولة وفنون الحرب عند المرابطين

كانت نظم الدولة التي قامت عليها مملكة المرابطين من صنع يوسف بن تاشفين ، فهو الذي أعطى المملكة حدودها ودعامتها الأساسية . واستطاع بعد أن أسس العاصمة مهاكش ، وافتتح أنظار المغرب والأندلس أن يتخذ — باعتباره زعيم المرابطين في الشؤون الدينية والدينية — ألقاب الخلافة وأمير المؤمنين دون أن يكون من فروع الدعوة النبوية ، تشبهاً في ذلك بأعظم أسراء الإسلام في عصره ، خلفاء بغداد العباسيين ، وخلفاء القاهرة الفاطميين ، وأن يجعل الملك متوارثاً في أسرته ؛ وكانت تقام صلاة الجمعة في المساجد باسم هذا السلطان المطلق ، وتضرب السكة باسمه في جميع أنحاء المملكة . وكان لون المرابطين السواد على مثل الدولة العباسية ؛ يحملون الأعلام السود ، ويرتدون المعاطف السوداء .

وكان كل سلطان يختار أثناء حياته ولي عهده بنفسه ، وكان يختار عادة من بين أبنائه أنجحهم وأكفاهم للاضطلاع بالحكم ؛ فقد اختار يوسف بن تاشفين مثلاً لولاية عهده أسنر أبنائه . وكان من أهم عوامل الخلاف على وراثة العرش فيما

بعد ، أنه لم يصدر قانون صريح ينظم وراثة العرش ، في حالة ما إذا مات أمير المؤمنين القائم أن يختار خلفه . وكان تعيين ولي العهد يجري وفقاً لرسوم نعمة ، فيمقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء ، وتعرض عليه رغبة السلطان ، ويصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولي العهد المختار سلطانهم المستقبل ويبايعونه بالطاعة إذا شاء ذلك أميرهم ؛ وللأمير إذا شاء أن يقبل ولي عهده وأن يختار بدلاً منه ؛ ويجب على الوزير أن يحرر وثيقة بوراثة العرش ، تودع في المحفوظات الملكية .

ومتى تولى سلطان الرابطين الحكم بايحه بالطاعة أولاً أفراد أسرته ، ثم الأشراف الرابطين ، وأقسموا له بيمين الإخلاص والطاعة ، ثم يتلوهم زعماء القبائل وعمال الحكومة ؛ ويخطر الشجب بمرسوم يتلى في الساجد ، ويستبدل اسم الملك الراحل في خطبة الجمعة باسم الملك الجديد .

ويعهد بحكم الأقاليم إلى الأشراف الرابطين الذين لم يولوا الملك ؛ وكانت الأندلس أهم هذه الأقاليم ، ويعهد بولايتها عادة إلى الأمير الذي يمين لولاية العهد ، ويلقب عندئذ بلقب خاص به وهو « النائب » ؛ ويتخذ مراكز الحكم على الأغاب في غرناطة أو إشبيلية أو قرطبة ؛ ويلي الأندلس في الأهمية ولاية فاس ، وهي عاصمة المملكة الثانية ، وفيها حاول الأشراف الرابطين من آل تاشفين أكثر من مرة أن ينشئوا مملكة مستقلة .

وبما أن أمير المؤمنين في القيام بأعباء الحكم مجلس للدولة مؤلف من الوزراء ؛ وينتقل هذا المجلس منه أثناء الحرب ؛ ويوزع الوزراء فروع الإدارة والحكم بين أنفسهم ؛ ويتولى رئاسة المجلس كبير الوزراء أو الوزير الأول ؛ ويتولى الوزير الكاتب إعداد جميع الوثائق الرسمية العامة .

ويقوم نظام الدولة كله على أسس عسكرية ؛ وأمير المؤمنين هو قائد الجيش الأعلى ؛ وولاه هم في الوقت نفسه من قواد الجيش يتزعمون منه أقساماً معينة ، بل كان قضاء الدين أنفسهم أيضاً من القواد المسكرين ؛ وكان معظم الموظفين في

البلاط وفي الولايات ينتمون إلى قبيلتي لتونة وكدالة الحريتين ، وهما اللتان يرجع إليهما أصل الرابطين أنفسهم . هذا وقد عمل يوسف بن تاشفين على الاحتفاظ بعظم طرائقهم في تنظيم فنون الحرب . وكان اللمتونيون شعباً وافر البراعة شديد المراس في الحرب لا يفرون أمام عدو مهما تفوق عليهم في العدد ؛ وكانوا يرتبون صفوفهم في المعركة ببراعة ؛ ومع أن قوتهم الأصلية كانت تقوم على الفرسان ، فإنهم كانوا يقدمون في الصف الأول أشجع جندهم من المشاة ، ينقلون الحراب الطويلة ، ويفرسونها في الأرض .

وقد أكل يوسف بن تاشفين تنظيم اللمتونيين وأعددهم للحرب أعظم إعداد ؛ وكانت دعامة جيشه قوة من الفرسان حسنة الدربة مزودة بأفضل سلاح ، وصل عددها في عهده إلى مائة ألف مقاتل ؛ وكانت كل فرقة تحمل عليها الخصاص من مختلف الألوان ، وعليه رسوم ونقوش خاصة ، ولها زعيمها الخاص ، ويخرج الجيش إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواق ، وقد رتبت الصفوف حسب القبائل .

وكان ترتيب المعركة عند الرابطين يقوم على نظام خماسي . ويتقدم الجيش ، الجند المشاة ، ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحلة القسي ، وحلة النبال ، ويرتبون في الجناحين ؛ ويتكون القلب من وحدات الفرسان الرابطة الثقيلة ، وهي التي كان لها على الأغلب الفول الحسم في المارك ؛ وكانت القوى الخلفية أو القوى الاحتياطية ، بقودها الخليفة بنفسه إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوف جنود الجيش ، وقوى الحرس المختلفة . وكان لسكل قسم من القوى المقاتلة قائده الخاص ؛ ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب الذي يمدد قبيل المعركة ويتلقون الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى ؛ وكان الجند ينظمون وفقاً للأقاليم والمدن ، فيؤلف الأندلسيون مثلاً قسماً خاصاً من الجيش ، يحمل أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها . ولكن قوى الحرس الخاص كانت تؤلف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوى القوام

الحسن ، والشجاعة الفائقة ، والقوة والبراعة . وجمع يوسف بن تاشفين بواسطة
تجار الرقيق في إقليم غانة عدداً كبيراً من العبيد ، واختار منهم أشهرهم وزودهم
بالسلاح والخيل ، ودربهم على جميع فنون القتال ، وأنشأ منهم حرسه الخاص
الأسود من أثنى رجل . وأنشأ على مثل هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين ،
يتألف من فتيان من النصارى المأهدين الذين يحتم عليهم اعتناق الإسلام ؛ وكان
يوسف محبوبهم بمطقة وصلاته ، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة
بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد . وكان علي بن يوسف أول
أمير مرابطي اختار حرسه الخاص من بين النصارى ، وهو نصرف كان له وقع
سي بين المسلمين المحافظين .

وكان الجند عند السير ينظمون كما لو كانوا على وشك خوض المعركة ؛ وكانت
الأفوات والخيام تحمل وراء الجيش على ظهور الدواب ؛ ويتبعها الرعاة وهم يقودون
قطعان الماشية من كل صنف ؛ ومتى حط الجيش رحاله ، أقام ممسكر في منتهى
الانتظام . وكان يوسف بن تاشفين لا يقتصر في استمهال الجبال على حمل الأثقال ،
ولكنه كان في حروبه بالأندلس ضد النصارى يستعملها بالأخص مكان الخيل
لسكى يستمين بمنظرها الغريب على بث الروح في نفوس الأعداء ، ويقال إن هذه
الخطلة نجحت في موقعة بطليوس ؛ ومما يلفت النظر أنه لم يرو فقط أنهم استعملوا
الفيلة في الحرب مثلما كان يميل القرطاجنيون القدماء .

وكان المرابطون في أيامهم الأول ، حينما قامت دولتهم وازدهرت ، يقاتلون في
الحروب تحت قيادة يوسف بمنتى الإقدام والشجاعة ، ويطلبون الموت شهداء
في سبيل الإسلام اجتناء لنعيم جنة الخلد ؛ ومن ثم كانت هجائهم من العنف
بحيث لم يقر أحد على ردم ؛ وكان هذا الشغف بالكفاح يبدو نوع خاص في
الجهاد ضد النصارى الأسبان ؛ وكانت الصلاة تقام قبل بدء المعركة ، وبتى تحت
مزينة المدو ، أقيمت أهرام من رؤوس القتلى النصارى ، وأذن المؤذنون عليها
للصلاة كأنها مأذن ؛ وأذيت أنباء النصر بين الشعب من منابر المساجد

وقرى منها للناس بيان أمير المؤمنين عن الواقعة .

وكان الخليفة يختص من القتائم بالغلس وفقاً لأحكام الإسلام ، ويوزع الباقي بين الجند .

والظاهر أن الرابطين بالرغم من بسالتهم في المارك ، وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون آلات الحصار وطرائق رميها ، لم يكونوا على براعة كافية بفنون الحصار ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن دعامة قوتهم كانت ترتكز إلى الفرسان ، وهم أقل براعة في فنون الحصار . على أنهم كانوا يجيدون الامتناع بالفلاح ، ويجيدون تحصينها ، وقد دللوا في مواطن كثيرة على أنهم يحسنون الدفاع عن الأماكن الحصينة .

وكان الأسطول يتألف من سفن النقل أكثر مما يتألف من سفن القتال ، وذلك لأن الفرض الأساسي من إنشائه ، هو حفظ المواصلات بين المغرب والأندلس ونقل الجند ؛ وقد استخدم الأسطول في فتح بلنسية والجزائر الشرقية (البليار) ولكن لم تنشب أية موقعة بحرية .

وكانت اسبانيا المسلمة فيها يتماق بالحكم والإدارة في ظل الرابطين ، كماها عبارة عن معسكر ضخم ، وذلك نظراً لاضطرار الحرب ضد النصارى بلا انقطاع ، ولأن الرابطين كانوا يرتابون في ولاء الأندلسيين ؛ وهكذا كانت الأندلس تعامل دائماً كولاية على وشك الخروج والثورة ، ويحتلها باستمرار سبعة عشر ألف فارس من الرابطين ، يقيمون في المدن والقلاع الهامة ؛ منها في إشبيلية حامية من سبعة آلاف ، وفي غرناطة حامية من ثلاثة آلاف ، وفي قرطبة حامية من ألف ؛ وكان كل فارس يتقاضى مرتباً شهرياً قدره خمسة دنانير مرابطية ، هذا عدا الطعام المجاني ؛ وكان قواد هذه الحاميات وكذلك الولاة وقضاة المدن ، ومعظم الموظفين من المغاربة ، ولاسيما من الامتوينين ؛ أما السلون من الأصول العربية والمصرية والسورية والفارسية فقد أمهلوا وأغضى عنهم ؛ وعلى هذا فقد كان من الطبيعي ألا يرى مسلمو الأندلس في الرابطين سوى طغاة ظالمين . وفي عهد يوسف بن

تأشفين كان من التمتع أن تبدو المساوي التي كان من المحتوم أن تترب على نظامه
وسنوف الظلم والإرهاق التي يرتكبها الولاة ، لأنه كان من وقت إلى آخر يطوف
بنفسه أرجاء مملكته الشاسعة ، ويتحرى أحوال المدن وحكوماتها ، ويستمع إلى
الظلمات ، ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن ؛ ولكن المساوي غابت
في عهد الملوك الضعفاء بسرعة ولا سيما في الأندلس ؛ وكان الأندلسيون أكثر
احتمالا لخشونة الجند والقادة ، لأنهم كانوا على الأقل رجالا تناب عليهم البساماة
والصراحة ، يبيدون عن الخداع والجشع ؛ ولكنهم لم يهتموا بالقضاء والعلماء
الذين اختصوا بالفصل في شؤونهم ؛ ذلك لأنهم بدلا من أن يولموا العدل والحماية
كانوا يفلتون في مآلاتهم الظلم والاضطهاد والخديعة والجشع وكل صنوف الشر
والإرهاق ؛ وكان الموكرون بتحصيل الضرائب عادة من اليهود ، يجمعون المكوس
من المسلمين والنصارى المأهدين ، طبقا لعدد الأنفس ، وكانوا بذلك أداة في يد
الوظفين بوجهونهم وفق أهوائهم وجشعهم ؛ ثم انتهى الأمر بأن هذا الجند
حذو الموظفين وأخذوا يمتدون في المدن على حريات الأفراد وأموالهم ، وهكذا
جنى الشعب إلى الثورة ، وانتهى الرابطلون بأن فقدوا الأندلس سراعا حينما
غزاهما الموحدون .

وكان لا يزال يقطن جنوبي اسبانيا في أوائل القرن الثاني عشر ، كثير من
النصارى المأهدين Mozarabes ^(١) ، وكانوا يتمتعون بحرية الشمار ، ويحتفظون
ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاةهم ؛ ولكن حدث أن نار النصارى
المأهدون ليرفعوا عنهم النير الأجنبي ، وليساعدوا ألفونسو الأول ملك أراجون
في حملته ضد غرناطة ومالقة ، فترتب على ذلك أن عمل خليفة الرابطين على تشريد
معظم السكان النصارى وتقلعهم من الأندلس إلى إفريقية ^(٢) ؛ فهلك معظمهم من
الحرمان وتغير الطقس ، ودخل بعضهم في جيش الخليفة ، وحارب معه ، وألقي

(١) راجع الخامس في ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) راجع تفصيل ذلك في الجزء الأول ص ١٥٤ — ١٥٦ .

أمير المؤمنين علي بن تاشفين أن النصارى يستعينون أن يؤدوا كثيراً من الخدمات ، فممن في بلاطه فرسانا من النصارى ، وأنشأهم فرقة خاصة في الجيش ، أسدت إليه خدمات طيبة في حربه ضد الموحدين ؛ وعهد إلى النصارى بتجهيل الضرائب في المغرب ، على نحو ما كان يحدث في الأندلس من قيام اليهود بهذا العمل .

ولم يتمتع اليهود — وكان عددهم كبيراً في المغرب والأندلس — بنوع من التسامح إلا في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين . وقد كان يوسف شديد العداء لليهود ، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام ، لأنهم في زعمه ، وكما ورد في بعض الكتب القديمة ، تمهدوا أيام النبي باعتناق الإسلام ، إذا لم يظهر مسيحهم المنتظر بعد خمسمائة عام . ولم يستطع اليهود اتقاء الاضطهاد إلا بعد أن بذلوا مبالغ طائلة من المال ، واشتروا بذلك سلامتهم وحرية شعائرهم .

ولم يبد سلاطين الرابطين كبير عنابة بأمر العلوم والفنون والشعر ، وتقدم المعارف ؛ وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل ؛ وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التي تنكرها التعاليم الرابطية ، وحظروا قراءة الكتب التي تحتويها وأحرقوها علناً ؛ وكذلك حرّمت وأحرقت جميع الكتب التي تتضمن قصص الفروسة والقصص المأدبى ، ولم يحذ الأشراف الرابطون حذو أسلافهم العرب إلا في فن المهارة ؛ فقد أنشأ يوسف بن تاشفين بالأخص كثيراً من المساجد والشكنات والقياسر ، والمساكن ، واختط الشوارع والأسواق ، ولم يدخر وسماً في العمل على ترقية جميع المنشآت الضرورية والنافعة .

٢ — نظم الدولة وفنون الحرب عند الموحدين

كانت نظم الدولة عند الموحدين ترجع إلى أسس دينية ؛ وكانت أقل طغياناً من نظم الرابطين ، وكان الموحدون أقل عداءاً للترسية والعلوم ؛ ومع ذلك فقد كانت نظامهم كلها ترمى إلى تأسيس دولة عسكرية ؛ ومن ثم فقد كانت دوائهم تشبه دولة الرابطين من وجوه كثيرة ، سواء في قيامها أو انحلالها ثم سقوطها .

وكانت دولة الموحدين ترى إلى إحياء مجد الإسلام الذابل في شمال إفريقية ، وإن لم يكن ذلك على يد أسرة عربية ، بل على يد أسرة من أهل البلاد . وقد وضع أسس هذه الدولة داعية ديني ، زعم أنه المهدي محي مجد الإسلام في المغرب وإمام الدولة الجديدة .

وقد لقيت نظم الدولة التي وضعها المهدي تغييرات جوهرية على يد مؤسس الدولة الموحدة ، ووارث سلطان المهدي ، ونعني عبد المؤمن بن علي ، وهو من أعظم القادة والساسة في المصور الوسطى ؛ وقد كان شأنه في تأسيس أسرته أعظم من شأن يوسف بن تاشفين بالنسبة للأسرة الرابطة . وبني بعض المؤرخين العرب سلاطين الموحدين ببني عبد المؤمن ، نسبة إلى مؤسس الأسرة . وكان عبد المؤمن أحد العشرة الذين اختارهم الإمام المهدي ليكونوا وزراءه . ووضع فيهم أعظم الثقة ؛ وقد زود منذ فتوته بأعظم سلطة ، واستماع بهد موت سيده ، بدهائه وعظيم هيئته وبراعته الحربية التي دلل عليها من قبل ، أن يستخلص السلطان لنفسه ؛ وبمد أن قضى على دولة الرابطين ، تبوأ عرش مراكن ، ونادى بنفسه خليفة الموحدين وأمير المؤمنين ، ووضع المهرمكة الجديدة التي شملت حدود الدولة الراحلة ، نظماً اشتقت من نظم الموحدين وتاهب المهدي وصيبتها بنظمه العسكرية الخاصة ؛ ودعى في الخطبة في المساجد التي ماهرت من جديد خليفة الموحدين كما كان يدعى خليفة الرابطين من قبل ؛ بل لقد أمر عبد المؤمن بهدم مساجد مراكن وبنائها من جديد ؛ وضرب الموحدون سكة جديدة مربعة مكان السكة الرابطة المستديرة ، ونقش عليها إلى جانب اسم الخليفة القائم والمبارات الإسلامية المتادة اسم المهدي أيضاً ، وهو مما يؤكد أصل الدولة الديني ؛ كذلك ذكر اسم المهدي في الصلاة ، وكان يحجج إلى قبره في تينال ، كما يحجج إلى قبر النبي . (كذا)

وكان لون الموحدين السياسي البياض ؛ ويرتدى الموحدون الماطف البيضاء ، في الحفلات الرسمية ؛ وكانوا يستعملون إلى جانب البياض ، اللون الأخضر ، يد

أنهم كانوا يقصرون استعماله ، فيما يظهر ، على بعض المناسبات الخاصة ، ولا سيما عند إعلان الجهاد ضد التصارى .

وكذلك لم يكن عند الموحدين قانون ثابت لوراثة العرش ؛ وكان السلطان يختار بنفسه ولى عهده من ولده وفقاً لشئته ، وذلك بفضل النظر من حقوق الولد البكر ؛ ولما انقطع تسلسل الوراثة من الأب إلى الابن ، مجلت المنازعات على العرش بانتهيار الملكة ؛ وكان بوسع أمير المؤمنين أن يحصل لولى العهد الذى اختاره على مبايعة بالطاعة من مجلس الدولة والزعماء ، بل كان يشركه أحياناً فى الحكم معه كشرىك فى الملك ، وفى تلك الحالة يذكر اسمه فى الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين ؛ وكانت مدينة نينبال التى دفن بها المهدي ، أيضاً مدفناً للملك الموحدين .

وعند ما يتولى السلطان الملك ، يبايحه بالطاعة أولاً الحاضرون من أمراء بني عبد المؤمن ، ثم الوزراء ، ومجلس الدولة ، والزعماء ، ثم الشعب أخيراً ؛ ويذاع نبأ جلوسه فى جميع أنحاء المملكة ؛ ويتخذ كل سلطان شعاراً خاصاً لتوقيعه وأعلامه الملكية .

وكان الأمراء الموجودون يسمون أنفسهم بلقب السيادة فيتقدم اسمهم دائماً لقب « السيد » ؛ وتوزع بينهم ولايات المملكة ؛ وكان ذلك من أهم الأسباب التى مجلت باضمحلال دولة الموحدين إذ ثارت المنازعات على العرش ، ولم يكن يعوز الأمير الطموح أن يميل لاستقلاله من العرش ، بل أن يدعى الخلافة لنفسه .

وكان يمارون أمير المؤمنين فى تصريف شؤون الحكم عشرة وزراء كان كبيرهم يتخذ لقب الحاجب كما كانت الحال أيام الأمويين ؛ وكثيراً ما كان السلطان يمين أولاده فى سلك الوزارة ؛ وكان الحاجب يقوم بتبليغ الراسم والأوامر التى يصدرها الخليفة شفويًا ؛ وإذا اقتضى الأمر إصدار مراسيم مكتوبة ، وقعها

الحاجب كما يوقعها الوزير الكاتب^(١) ، وكان يتولى الإشراف على القضاء ثلاثة من الوزراء يسمون قضاة في نفس الوقت ؛ وثلاثة ققهاء يقومون بالنظر في كل ما يتعلق بالدين والتعليم والمعارف ؛ ويتولى الشؤون المالية وزير يسمى والى الخزانة ؛ وهؤلاء الوزراء جميعاً لم يكن عملهم قاصراً على أعباء الحكم وشؤون الدولة ، بل كانوا أيضاً موظفين في البلاط ، عليهم أن يمنوا بكل ما يتعلق بشخص الخليفة ، باعتبارهم خدامه الأوائل ، وعلى ذلك فقد كان من بينهم الطبيب الخاص ، والنديم ، والقارى ، والأمين .

وكان نعمة إلى جانب هؤلاء الوزراء المشرة مجلسان يماونان أمير المؤمنين في تصريف الشؤون ؛ ولم يكن في اجتماع هذين المجلسين ما يحد من إرادة أمير المؤمنين أو سلطانه ، وإنما كان القصد من إنشائهما أن يجد أمير المؤمنين في معاونهما وسيلة لتخفيف أعباء المهام عن كاهله ؛ وكان أمير المؤمنين يمهّد بالبحث والفصل في الأعمال التي ليست لها أهمية خاصة إلى مجلس الخمين ، وبالأعمال الأقل أهمية إلى مجلس السبعين . ثم حدث أثناء حكم المستنصر ، وقت أن كان قاصراً نمت الوصاية ، أن اغتصب أعمامه وأبناء أعمامه السلطة في الأقاليم ، وانتزع مجالس الدولة أيضاً أنفسهم كثيراً من السلطة ، حتى أصبحت أعباء أمور ورئاسة العرش ، ويمينان أو بمزلاق ، وفق مشيئتهما ، خليفة بعد خليفة . ولكن الخليفة المأمون عول على أن يسترد سلطان العرش المطلق ؛ ولما أصدر أعضاء المجلسين قراراً بيزله أمر بهم فأعدموا ؛ وغير في نظام المجلسين وأنشأها من جديد حرساً على المظاهر ؛ وقصر عملهما على معاونة وزير العدل ، والفصل في المنازعات بين الأشخاص الماديين ، وحظر عليهما التدخل في أى شأن من شؤون الدولة . وأراد المأمون أيضاً أن يحمل الشعب على احترام نظامه الجديد ، فذهب إلى حد الطعن في نظام المهدي ، وفي شخص مؤسسه ، وأعلن أن المهدي مخاتل مخادع ، وكذب

(١) هو الوزير الذى يتولى كتابة الوثائق السلطانية وصياغتها ؛ ومنصبه يقابل منصب كاتب ديوان الإنشاء في الدول العثمانية .

كتاباً في المساوي التي يرتكها مجلسا الدولة ، ونوه بأهمية المبدأ القائل بأنه لا يصح أن يوجد إلى جانب الحكومة العالقة أمة ساطعة أخرى أو قوايين أخرى غير شريعة الله (أي القرآن) وإرادة الأمير .

وكان عبد المؤمن قد قام قبل ذلك بإحداث بضعة تغييرات في النظام الأسامي الذي وضعه المهدي ؛ وكان المهدي قد قسم الموحدين جميعاً إلى عشر طوائف ؛ وكانت هذه الطوائف العشر تأتي قبل باقي الشعوب الخاضعة لسلطان الموحدين ؛ وكانت الطبقة الأولى وفقاً لهذا النظام تتألف من الوزراء المنيرة ، وتتألف الثانية من مجلس الخمسين ، والثالثة من مجلس السبعين ، والرابعة من العلماء ، والخامسة من الحفاظ والمحدثين ، والسادسة من أقرباء المهدي ، والسابعة من أبناء قبيلة هرغة وهي قبيلة المهدي ، والثامنة من أهل نينال ، والتاسعة من أهل جرميوت ، والعاشر من باقي جنس الموحدين ؛ وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكان خاص للاجتماع في السلم ووقت الحرب ، وعند السير ، وحين إقامة المعسكرات . ولا تنوي عبد المؤمن الحكم ، أنني نظام الطوائف العشر ولم يُبين منه سوى مجلسي الخمسين والسبعين . أما النظام العسكرية فتركها برمتها على ما كانت عليه وقت المهدي ، ولم يحدث فيها سوى تحديتات يسيرة برصفه قائد الجيش الأعلى ؛ وكانت دعامة جيش الموحدين ، على نفيس جيش الرابطين ، تركز إلى قوة المشاة ؛ وكان تقسيم الجيش كله ، يجري حسب الطريقة الجرمانية القديمة ، على نظام المشربات ؛ ولكل وحدة قائدها الخاص ؛ وكانت الصفوف تتكسب على هذا النحو براعة في حركاتها ونحولاتها ، إذ كان الحند والقيادة على جانب عظيم من المراتب ؛ وكان المشاة من جنود الموحدين يحشدون بالأخص من القبائل البربرية ، ويحملون حراً ما طولها اثنتا عشرة قدماً ، وتسمى « الأكراس » ، يلقونها في وجوه أعدائهم بمنتهى العنف .

وكان إنشاء جيش الموحدين يقوم على عناصر مختلفة من الجند ؛ وكانت نواة الجيش تتألف من الجند النظاميين والحرس ، وهم نخبة بارعة في جميع ضروب

القتال ؛ وكان الحرس يتألف من السبيد ومن رجال القبائل ؛ وفي أواخر أيام دولة الموحدين أنشئ أيضاً حرس من الأندلسيين ، وحرس من الأسبان . أما باقي الجند النظاميين فكانوا من الذين يجب على القبائل الغربية أن تقدمهم إلى الخدمة العسكرية وفقاً لنظام خاص ، وكانوا يدربون على الفنون العسكرية زمناً طويلاً ؛ وإلى جانب هذه الجنود النظامية التي كان يزودها الأمير بالسلح ، ونمى الدولة بالاتفاق عايمها ، كانت القبائل عند ما تنشب الحرب تقدم نصيبها من المشاة والفرسان وال سلاح والمؤن ؛ وعند ما تنشب حرب الجهاد ضد الأسبان النصارى كان يدعى المتطوعون إلى القتال في سبيل الله ؛ وكانت هذه الجنود المختلفة تحارب في المعركة ، تفرق بينها أعلامها المختلفة الألوان والأشكال ، ولكن بحيث يتخذ قوادها بالاتفاق مع القائد الأعلى نفس الأماكن التي خصصت لهم من أمير المؤمنين .

وكان كل ما يتعلق بالحرب ينظم تنظيمًا دقيقاً ؛ وكان النظام الصارم يسود أثناء السير وفي المعسكر ؛ ولما كنا قد تحدثنا فيما تقدم في تاريخ عبد المؤمن عن نظام السير لدى الموحدين ونظام إقامة المعسكر ، فلما نكتفي بالإحالة عليه أثناء التكرار^(١) .

وكانت تتخذ قبل الإقدام على خوض المعركة عدة إجراءات ، فبمقدار عادة مجلس حربى ، يبحث فيه أمير المؤمنين — أو القائد الأعلى في غييبته — مع قواد الوحدات المختلفة خطة المعركة ، ويتقرر فيه متى وأين تقوم كل فرقة بالهجوم أو الارتداد ، أو الانتظار في المؤخرة . وكان من أهم فنون الحرب لدى الموحدين ، خدع الحبيب ، ولم يشتركوا في موقعة ما دون أن يدبروا فيها نوعاً من الكمين لأعدائهم ، كأن يتصنعوا الفرار ونحو ذلك ؛ وكانوا يستطلعون على يد عيونهم وقواتهم الخفيفة كل ما يتعلق بالعدو من عدده ومواقفه وأحواله ، ثم يرتبون خطتهم على أساس هذه المعلومات .

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن ذلك في ص ٥٥ و ٥٦ من هذا الجزء .

ومتى استقر الرأي على خوض المعركة ، فإن أمير المؤمنين بمد أن يستعرض الجند ، وبعد أن يتم ترتيبهم للقتال ، بضرب قبته الحمراء ، يخفق عليها مله الأبيض ، ويستحضر فرسه المطهمة ، ثم يرتدى ثوب عبد المؤمن الحربي ، ويجلس في خيمته على درعه ، وفي إحدى يديه سيفه السلول ، وفي الأخرى المصحف ؛ وكانت هذه نذر اقتراب المعركة

وكان نظام المعركة يقوم عند الوجودين عادة على فكرة الترتيب^(١) ؛ وكل قسم من الجيش يوضع تحت إمرة قائد خاص ، ويؤلف جانباً من الزوايا الأربع لترتيب المعركة ؛ وكانت قوة الجيش الرئيسية تتألف من المشاة النظاميين ، ونوض في الصفوف الأولى ، وتسليح بحراب طويلة جداً ، يتفلقها الجنود بأيديهم وأرجلهم ؛ وبلى هؤلاء صفوف من الجند قد سلحوا بالسيوف وتقلدوا الدروع الكبيرة المستديرة ، ثم يليهم حملة النبال والقيس ؛ وكانت قوة الفرسان تحتل المكان الأوسط من المربع ، ويخصص لها أماكن معينة في جميع جوانب المربع وتفتح لها مخارج سرية ، بحيث تستطيع صفوف الفرسان أن تنطلق منها كما تنطلق من القلعة المحصورة ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تخل بنظام المشاة ؛ ويقوم بالهجوم الأول أولئك التطوعون الذين وهبوا أنفسهم في سبيل الله ، تحت قرع الطبول وصوت الأبواق والقرون ، رافعين أعلامهم الخضراء ، تؤيدهم القوات الخفيفة ؛ فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء وأن يتقدم حتى مواضع الجنود الموحدة النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدي الذي لا يخترق ، واستقبل حملة القسي والنبال المهاجمين بسيل من السهام والحجارة ؛ فإذا استطاع العدو أيضاً أن يخترق صفوف حملة الحراب ، وقف أمامه حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وأمكن للفرسان أن يخفوا إلى معاوتهم من الأماكن الداخلية ؛ وحتى لو استطاع العدو أن يتغلب على القلب والجناحين ، ولاح له بعد احتلال الأماكن الداخلية أنه قد أحرز النصر ، ففي الإمكان أن

(١) راجع الملل الروحية ص ٩٨ ؛ وقد أشير إلى هذا النظام في الجزء الأول ص ٢٠٩ .

تستمر المقاومة ؛ وحينئذ تتقدم قوات الصلح الرابع من الربع ، وهي الاحتياطي
المكون من صفوة الجند ، ولا سيما جند الحرس الخاص ، وبفؤدها للقتال أمير
المؤمنين بنفسه ، وكثيراً ما كانت تحمى النصارى بشجاعتها وخبرتها ؛ وكانت هذه
القوات تمتنع أحياناً داخل دائرة من السلاسل الحديدية ، تبرز منها الحراب
الطويلة ، فتشحن بذلك في العدو قتلاً ؛ ولما كانت قوة الجيش الرئيسية لدى
الرابعين والنصارى الأسبان تتألف من صفوف الفرسان الثقيلة ، فقد كانت
هذه الطريقة في ترتيب أوضاع المعركة ، تفيد أبعاً فائدة في رد العدو الذى يتدفق
في قوى الفرسان .

وكان الموحدون يتفوقون كثيراً على الرابعين في فن الحصار ، وكانت أمتع
المدن تتعطل أمام آلات الحصار والفدح التى يستعملونها ؛ وكان عبد المؤمن
بنوع خاص أستاذاً في هذا الفن الحربى ؛ وكان يستعين بتأييد العناصر ، حينما
مجزت شجاعة الجند وآلات الحصار ؛ ففي حصار فاس التى قاومت أسوارها
النيمة كل جهوده ، استعان على إسقاطها بجياه النهر ، وذلك بأن ساعها على المدينة
بمد أن حجزها حيناً في خزانات كبيرة ، ثم أطلقها فجأة في مجارى صناعية على
أسوار المدينة ؛ وأحرق وأسقط أبراج وهران بواسطة نار محرقة يؤيدها نصف
الآلات ؛ وافتتح المهدية بوسائل مماثلة ، وحطم جدرانها التى بلغ من سمكتها أن
كان يسير عليها فارسان متجاوران ؛ واستطاع الموحدون أيضاً الاستيلاء عنوة
على سراكس وذلك بالرغم من قلاعها النيمة وسكانها الكثيرين ؛ واستولى
الموحدون في الأندلس على كثير من القلاع ، حسبما ذكرنا في سياق تاريخهم ؛
وسقط في أيديهم كثير من القلاع الواقعة في أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية
وذلك بفضل آلات حصارهم النيفة التى كانت تقذف كتلاً هائلة من الحجارة .
وكرات ملهبة من الحديد ، وليس في رسمنا أن نقول بطريق التحقيق أن هذه
الآلات كانت مدافع ، وإن الموحدين كانوا قد عرفوا البارود يومئذ ؛ بيد أنه
يحتمل أن تكون هذه هي الحقيقة . ذلك أنه لم ينعى قليل على ذلك ، أعنى في

أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، حتى شاع بين مسلمي إفريقيا استعمال الآلات القاصفة التي تقذف الكرات المثلبية ؛ ووصف هذه الآلات لا بدع مجالاً للشك في أن هذه الكرات كانت تقذف بواسطة البارود .

كذلك كان للموحدين قوة بحرية لا بأس بها ؛ فضرورة الاتصال الدائم بين إفريقية وإسبانيا ، ونقل مئات ألوف الجند إلى شبه الجزيرة كانتا تحتملان الاحتفاظ بأسطول نقل ؛ بيد أن أصحاب الموحدين كانوا إلى جانب ذلك يحتفظون بأسطول حربي ؛ وقد افتتحوا الجزائر الشرقية وكثيراً من الثغور الواقعة على البحر بماونة أسطولهم ؛ وفي عهد يوسف أبي يعقوب ، نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطالبيين على مقربة من طرطوشة ، وأحرز أمير البحر الموحدى كثير آمن ضروب التفوق . وفي حصار المهدية التي كان يحتلها النورمانيون أصحاب صقلية ، قدم من صقلية أسطول نصراني من مائتي سفينة لمحاول إنقاذ المدينة فهاجمه أمير البحر الموحدى عبد الله بن ميمون ، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية كبيرة ، لم تكن فيها براعة النورمانيين في البحر شيئاً ، وأحرز المسلمون عليهم نصراً باهرأ ، وأحرقوا وأهرقوا جانباً من سفنهم واستولوا على جانب آخر منها .

وكان عبد المؤمن قد وضع حدود الولايات والناطق المختلفة ، وفرض على كل منها الضرائب المناسبة لحالتها وثروتها ومحاصيلها ، وكذلك ما يجب أن تقدمه كل منها من الجند من مختلف الأصناف سواء في حرب الجهاد المقدسة ضد النصارى أو في مقاتلة أى عدو آخر من أعداء المملكة . وكان ينظر في ذلك إلى عدد السكان وحالة المكان ؛ فمثلاً كانت مراكش تقدم أربع مائة بحار وثلثمائة وخمسون ، وتقدم كل من طنجة وسبتة . ومرسى عريف ووهران ومرسى حنين مائة بحار ، وتقدم الأندلس ثمانمائة ؛ وكانت قبيلة كومية وحدها وحى من بطون زناتة تقدم عشرين ألف فارس ، وذلك لشهرتها بترية الخيل ؛ كذلك كان يحدد نصيب كل منطقة وحائرة من السلاح عدداً وصنفاً ، وعدد الخيل ودواب

الحل والجمال ؛ وكانت تقام مصانع السلاح في مختلف أنحاء المملكة ، وتصنع فيها السهام والسيوف والحراب والدروع وغيرها من أدوات الهجوم والدفاع .

وأنشئت المدارس الحربية لكي تحفظ الروح العسكرية بين الموحدين وتعاون على إخراج القادة الأكفاء والمحاربين البواسل ؛ وكان يجمع لها الفتيان بالآلوف وبالأخص من قبيلة مصمودة ، وزاعى بينهم وحدة السن ، فيدرسون آثار المهدي وتعاليمه ويحفظونها عن ظهر قلب ، ثم يتدربون على استعمال جميع صنوف السلاح وفنون الركوب والسباحة ، ويدرسون كل ما يتعلق بالحصار والبحر والقتال ؛ وكانوا يتبارون في السباق ، ورمى الحراب ، والقتال بالقوس والدروع ، والركوب ، والسباحة ؛ وكانت تقام بحوار مها كش بركة ، وضمت فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة ، وفيها يتعلم الطلاب التجديف ، وقيادة السفن ، وكل ما تتطلبه الحرب البحرية من فنون ومهارة ؛ وكان هؤلاء الفتيان الذين يسمون بالحفاظ يمرضون من وقت إلى آخر أعمالهم وبراعتهم أمام أمير المؤمنين ؛ ويخص أولئك الذين يمتازون منهم بالبراعة والجرأة والزم وحضور البديهة بجوائز الأمير وصالته ، أو يتلقون منه تناء ومديحه في عبارات مشجمة . فكان ذلك يذكى هم الفتيان للحظوة برضى الأمير وعطفه ؛ وكان التعليم في هذه المدارس الحربية على نفقة الحكومة ويمنح الطلاب الخليل والسلاح مجاناً ؛ وكان يتخرج فيها بين أولئك الحفاظ معظم القواد ، وحكام القلاع ، وكبار الضباط .

وهناك كثير من الدلائل تؤيد أن الجند النظاميين الموحدين كانوا يتفاضون مرتباً ؛ وذكر بعض المؤرخين المسلمين أن بعض الأسراء كانوا يهبون الجند كثيراً من المال لكي يكسبهم إلى جانبهم .

وفيما يتعلق بإدارة المملكة التي أمر عبد المؤمن بمسحها جميعاً من حدود الصحراء إلى جبال سيارا مورتيا (جبل التارات) في إسبانيا ، ومن المحيط الأطلنطي إلى الحدود المصرية ، فقد رأى أمير المؤمنين عبد المؤمن زولا على رغبة أشياخ القبائل ، أن يقسم إدارة الولايات بين أبنائه الأسراء (السادة) على أن نكون .

هذه الإدارة وراثية في عقبهم ؛ وكان يقوم بالعمل إلى جانب هؤلاء السادة من من الحكام (النواب) والوزراء يتوارث أبناؤهم وأقاربهم مناصبهم أيضاً ؛ وكانت هذه الولايات أو الإمارات تقسم إلى دوائر ، لكل دائرة حاكمها أو قاضها الخاص ؛ فمثلاً كانت ولاية بلنسية تشمل دوائر شاطبة ودانية ومرسية والجزائر الشرقية ؛ وكانت ولاية قرطبة تشمل دوائر بياسة وجيان وأبده وأندوجار وغيرها ؛ وولاية إشبيلية تشمل دوائر الغرب وشريش وشذونة وأستجة وقرمونة ومالقة ؛ وولاية غرناطة تشمل دوائر المرية ووادي آش والتكرب وغيرها . وكانت الفرائب تفرض على الولايات وفقاً لحالة السكان وتربة الأرض . وكذلك وفقاً لحصصها وإنتاجها ونوع الإنتاج وتروتها من الدواب ، وكان من المتبع عند جلوس الخليفة الجديد أن تترك المكوس المتأخرة ، وأن يوزع بيت المال مبالغ كبيرة على الفقراء ؛ وكان المشرف على بيت المال والمدير لأموال الدولة يلقب بوالى الخزانة . وكان الوزراء ورجال البلاط والحشم يتقاضون مرتباتهم من الخليفة ، وكذلك يتناول القضاء والفقهاء من الخزانة الموحدة جوايات منتظمة ، وكثيراً ما كانت تزداد هذه الجوايات في عهد الأمراء الأجواد ، وكانت جميع المنشآت العامة مثل المساجد والحصون (القصور) والقصور والأبراج وجسور الماء والشوارع والفنادق ، والمستشفيات والملاجئ ينفق عليها من خزانة الدولة ؛ وكذلك يتقاضى الأطباء والمرضون في المستشفيات مرتباتهم منها ؛ وكان الدخل يتكون في المملكة الموحدين ، فضلاً عن الفرائب العامة ، من محصول الذهب والفضة المستخرج من مناجم إفريقية والأندلس ، ومن الغنائم التي تؤخذ في الحرب ، حيث كان للخليفة وفقاً للشريعة الإسلامية أن يتقاضى منها الخمس . وقد كان هذا الدخل عظيماً بلاربيب ؛ يدل على ذلك ما قام به الخليفة يوسف أبو يعقوب وولده المنصور في المغرب والأندلس من الأبنية العظيمة من متحصنات التاجم وغنائم الحرب . وكان المنصور سبي الأداء بالنسبة للقائمين بشأن البناء ؛ وقد كان هؤلاء يضطامون بنفقات البناء ، بيد أنهم قلما كانوا يصبرون على هذه النفقات نظراً لضخامتها ؛

ذلك لأن حقوقهم كانت تؤدي ببطء ، ولما كانوا يجرأون على المطالبة بها ؛
فاذا وقفوا إلى تقديم مطالبهم برفق ولباقة وفي الوقت المناسب ، ألفوا قبولاً من
الخليفة وأداء مريباً .

ولما أخذت مملكة الموحدين في الاضمحلال عقب موقعة المذاب في عهد
حكومة المستنصر الضعيفة ، واستطاع الولاة (السادة) من أعضاء الأسرة المالكية
أن ينشئوا لأنفسهم حكومات مستقلة ، عمدوا إلى تنظيم الإدارة والمناصب وإجراء
المدالة وفقاً لأهوائهم ؛ فكان القاضي أو الوالي لا يستطيع الاحتفاظ بمنصبه
إلا إذا لم يتقدم آخر إلى إحراز هذا المنصب بدفع ثمن أكبر مما دفعه هو . ذلك
أن المناسبات كلها عدت سلباً فباع وتشتري ، وعكف الموظفون الذين جروا على
شراء مناصبهم بالمال الطائل ، بدلاً من تحقيق المدالة والنظام بين الناس ، على
امتصاص دماهم بشراة ؛ فكان هذا من المواصل التي عجبت بسقوط
دولة الموحدين .

٣ — لحظة عن حضارة الأندلس

في عهد الرابطين والموحدين

ظهر الرابطون من بين سكان الصحراء البدو الساذجين ، فكانوا أعداء
لكل حضارة عربية ؛ ومن ثم كانت حكومتهم كرجح الصحراء اللافت حين يهب
على الفياض النضرة ، نمل لتعطيم جميع العلوم والفنون والصنائع التي وصلت
في ظل السيادة العربية في الأندلس إلى ذروة التقدم والازدهار ؛ وكان أولئك
الحكام النساء عفتون القبائل العربية وثقاتها ، ويميلون على سحق هذه الثقافة
بكل ما يسمونها ؛ فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون
كتبهم ، ويميلون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التي كانت تجد
متمتها في قريض الفروسة والقصص الغرق . وكانت قراءة هذه الكتب تحظر
ويماقب قارئها بأشد العقوبات ، وتعد أيتها وجدت ؛ وكانت المعاهد والمدارس

والسكتيات تنافس شيئاً فشيئاً ، وكان قيام البقية الباقية منها يرجع إلى أن سيادة الرابطين لم تطل بعد القضاء على الأسر الملكية في الأندلس أكثر من نصف قرن ، وإلى أن الآخر من ملوك الرابطين قد غمرهم سحر التمدن دون أن يشعروا فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة العربيتين ، ومالوا إلى مصادنة الشراء والملاء ، ولاسيما أولئك الذين شادوا في نظامهم ونثرهم بدمج حكومتهم وغزوانهم . على أن سيادة الرابطين كان لها من جهة أخرى أثر حسن في تكييف روح الشعب الأندلسي ، فقد حلت في ظلها مكان الفروسة المائعة ، والملاهي الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوي : روح حربية قوية ، واعتدال متعشف ، وذكاء فطري ، ورجولة متينة .

ولقي فن المارة ، الذي بهواه أغلظ الطغاة لدى الرابطين قبولاً وتشجيعاً ؛ بيد أنه لم يصل في ظاههم إلى ما وصل إليه في عهد أسلافهم ، أو عهد أخلافهم الموحدين ؛ ومعنى ملوك الرابطين بالأخص بإنشاء المساجد المديدة ذات الأبراج العالية ، وإنشاء الأسوار القوية حول المدن ، والقلاع المنيعة (القصبات) ، والقصور الشامخة ؛ وقد أنشأوا مع ذلك بعض أبنية من الممر ذات حدائق فخماء ، وفساق بديمة ؛ على أن هذه المنشآت الفخمة كانت دائماً قليلة فادرة بحيث عني المؤرخون بذكرها عناية خاصة .

ولم يكن الموحدون أيضاً من حماة العلوم والحضارة ؛ وقد نشأوا أيضاً في مهاد القبائل العسكرية الساذجة ؛ بيد أنهم لم يبدوا من النلو في مطاردة الثقافة مثل ما أبداء أسلافهم ؛ وقد أبطلوا مطاردة القبائل العربية ، وأباحوا دراسة تماليم الفيلسوف الفزائي بعد أن حظرت في عهد الرابطين ، وأباحوا قراءة كتبه وغيرها من الكتب المحظورة ، وأطلقوا حرية العلوم والفنون ؛ ولما وقفوا على أسرار الحضارة العربية التي أخذت تنهض من جديد ، غدوا من حماها ، وعنوا بتشجيع بعض أصناف العلوم ونشرها ؛ وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في نفس

الوقت في جميع أنحاء المملكة ، وغمرت الشعب موجة من الرخاء ، وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلي بين الشعوب ؛ وازدهرت الزراعة في الأندلس بنوع خاص ، وعولجت بالأساليب الفنية ، وتقدمت زراعة الفاكهة ، وكانت تزرع في ولايتي بلنسية وإشبيلية بالأخص مساحات كبيرة من قصب السكر ؛ وتنمو حول مدينة إشبيلية غابات كبيرة من الزيتون ، وبالقرب منها نحو مائة ألف معصرة لاستخراج الزيت ؛ وكانت الترع تخترق جميع أرجاء ولاية بلنسية وتروى أراضيها ؛ وكانت تقوم إلى جانب مصانع السلاح المديدة ، مصانع مختلفة أخرى ولاسيما مصانع الصناعات الجلدية في قرطبة ، ومصانع الورق في شاطبة ؛ وقد عرف ورق الكتان في إسبانيا منذ القرن الثاني عشر ، وكتبت معاهدة صالح عقدت في سنة ١١٧٨ م بين الفونسو الثاني ملك أراجون والفونسو ملك قشتالة على ورق من هذا النوع ؛ وكانت التجارة تزدهر أيا ازدهار في نفور المرية ، وبلنسية ، ودانية ، ومالقة ، وإشبيلية .

وكانت المعاهد والمدارس التي أسست في مراکش وفلمس ترمى بالأخص إلى تخرج الجند البارزين أكثر مما ترمى إلى تخرج العلماء ، بيد أن العناية في هذه المؤسسات لم تكن تقتصر على تربية الأجسام وتدريبها على فنون الحرب وحمل السلاح ، بل كانت تشمل تثقيف العقول ، وتزويدها بالمعارف الضرورية ، وتعاليم المهدى الدينية ؛ ثم كانت تنشأ معاهد خاصة بالعلماء ، وتميز طوائفهم وفقاً لمختلف الدرجات والكفايات ، ويمتحنون مختلف الهبات والمصالحات ؛ وفي ذلك كله ما يبدل على أنب الموحدين كانوا يمنون بنواح أخرى غير الحرب وأنهم كانوا يشجعون العلوم والفنون ؛ بيد أنه لا ينكر أن ملوك الموحدين كانوا يمنون قبل كل شيء بالعلوم والفنون الضرورية التي يمكن الانتفاع بها في الحياة بسهولة ، أكثر من عنايتهم بالعلوم النظرية الخالصة ، فتراهم مثلاً يشجعون الطب والأطباء ، ويرفمونهم أحياناً إلى مرتبة الوزارة ، وينشئون المستشفيات للمرضى وذوى المساهات والمعنى والمرج والضعفاء ، وينشئون

الشوارع والفتاخر ؛ وفي البقاع المنزلة القليلة السكان ينشئون الفتادق وأحواض الماء والآبار لينتفع بها السابلة ، ويحصنون الحدود ، ويزودون المدن بالقلاع والمساجد والشكنات والمخازن وجسور الماء .

وابتلى عبد المؤمن من الأموال التي غنمها من الرابطين عدة أبنية نفحة في صراكس ؛ وكان من بين المساجد والمعاهد التي أنشأها المسجد الجامع الذي يتبع القصر ، وهو من صنع المهندس الشهير « الأحرص » الماني ، وقد أنشأ على أبداع طراز وفن ؛ وكان بهذا المسجد مخارج وأروقة بدعنة الصنع ، وعمرات سرية تمتد خفية إلى القصر ، بحيث يستطيع أمير المؤمنين أن يزور المسجد وأن ينادره دون أن يراه أحد . وكان منبر هذا المسجد قطعة فنية رائعة ، صنع من خشب الصندل الأحمر والأسفر ، وصنع كل ما فيه من إطارات ومزاليح ومقاطيع ومسامير من الذهب والفضة صناعة فائقة ؛ وكانت المقصورة التي يجلس بها أمير المؤمنين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب ؛ فقد كانت حسب أقوال المؤرخين المسلمين تسع نحو ألف شخص ، وكانت تتحرك بواسطة محلات ثبتت في أسفلها ، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة ؛ وقد صنعت هذه المحلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت ، بل تدور جميعاً في أنم سكون ، ونظمت الحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعاً في وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين إلى المسجد عند صلاة الجمعة ؛ وكانت المقصورة تبرز من جانب ، ويبرز المنبر من الجانب الثاني ، وتلتف الجوانب في نفس الوقت حول مجلس أمير المؤمنين ، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب ، وينلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه ، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر لهذه الحركات ، كذلك نظمت أبواب المقصورة على هذا النمط ذاته .

وأنشأ عبد المؤمن في ظاهر صراكس حديقة غناء تبلغ مساحتها ثلاثة أميال مربعة وغرس فيها أطيب الفواكه وأندر الفراس وأكثرها تنوعاً ؛ وكان الماء

يجلب إليها من أعماق ، وقد صنعت فيها عدة فساق يديعة ؛ وكان إيراد أشجار الزيتون بقدر وحده في كل عام بثلاثين ألف دينار موحدي .
 وأنشأ في تونس ، في أعلى مكان منها ، حصناً ذا أبراج جميلة ، مثلثة الزوايا ، وأقيمت بين المدينة والحصن عدة مدارس ومعاهد ؛ وأوصل الماء الحلو من رباط الفتح إلى سلا بواسطة قنطرة مائية ؛ وأراد أن يخلد ذكرى زعيم من زعماء القبائل افتداه بحياته في مؤامرة دبرتها لقتله ، فابقي له مدفنًا عظيمًا ، وأمر أن تبنى حوله مدينة جديدة سميت بالبطحاء وغدت مزاراً يحج الناس إليه من كل فج^(١) . كذلك أتم عبد المؤمن تحصين جبل طارق ، وأشرف على إتمامها الأخص المهندس الفنان .

وكان يوسف ولد عبد المؤمن أيضاً من عشاق البناء ؛ وفي عهده أنشئ في مارتله برج شاهق الملو ؛ وعنى بالأخص أن ينشئ في إشبيلية عدة أبنية عظيمة منها مسجد نفم وإلى جانبه عدة مدارس ومعاهد ، ومنها قنطرة من السفن على نهر الوادي الكبير ، بُنيت فيها السفن معاً بالسلاسل ، وغازن كبيرة ، وأواق للفاكهة ، ورصيف بطول النهر ، ومراسي للتفريغ زودت بالدرج ؛ كذلك أنشأ قنطرة مائية عند إشبيلية بماء الشرب ؛ وعنى عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة في إفريقية والأندلس ، وكان منها مناجم غنية جداً في مدينة جيان . وكان بمقرب المنصور ولد يوسف أشد منه شغفاً بالأبنية الفخمة ؛ وقد ذكر المؤرخون المسلمون بين المنشآت العديدة التي أمر بإقامتها عدة ؛ منها في مراکش مساجد بأبراج عالية وقصور ذات حدائق غناء ، وحصن ذو أبراج عالية ، ومنها مدينتان جديدتان إحداها بجوار سلا ، وهي رباط الفتح ولها مسجد نفم ، والأخرى في الأندلس على نهر الوادي الكبير وتسمى حصن الفرج ؛ وأتم المنصور مسجد إشبيلية الكبير ذا المنارة العالية ، وزود برجه بزر ضخم ؛ وكان هذا الزر من الضخامة بحيث اقتضى الأمر توسيع الباب الذي أدخل منه ؛ وكانت الأعواد

(١) راجع ص ٥٩ من هذا الجزء .

الحديدية التي تحملها زن أربعين ريباً ، وصنعها ورفعها إلى أعلى المنارة العلم أبو الابلث
المقل ، وسوحت تلك التفاتيج بما قيمته مائة ألف دينار ؛ وسعى هذا البرج فيما بعد
بالجبر الدا Giralda ، وكان يستعمل في الوقت نفسه مرصداً لرصد النجوم^(١) ؛
ورفع الزر المنجم إلى قمة المنارة بطريقة فنية استعملت فيها الآلات ، وذلك بانتراف
الرياضي والفلكي الشهير جبر الذي ينسب إليه اكتشاف الجبر خطأ ؛ وابنتي محمد
ولد المنصور حول مدينة فاس أسواراً جديدة ، وكان عبد المؤمن قد هدم أسوارها
وزودها بقلعة ضخمة ، وأنشأ في كثير من المدن الأخرى تحصينات قوية ؛ وأنشأ
في مراكنش مسجداً فخماً في مكان بمنزل قليل السكان ، وأمر سكان الأحياء
المجاورة أن يصلوا فيه وأن يناقوا المساجد التي في أحيائهم ، وزود الحى الذي
يقعانه الأندلسيون بماء الشرب بواسطة قنطرة مائية ، وأنشأ المأمون قبل أن يعتلى
العرش ، وقت أن كان والياً لإشبيلية في تمر مملكة قصر أعظيما سعى بالقصر السميد .
أما فيما يتعلق بالعلوم ، وهي التي استؤنفت في عهد الواحدين ، فقد كانت الماهد
المغربية في مراكنش وفاس ونونس ، والماهد الأندلسية في إشبيلية وفراطية
وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ يجمع العلوم والمعارف التي كانت دائمة في ذلك
العصر ؛ وكان على رأس هذه الماهد عمهاء ، كان منهم بعض اليهود الذين أبدوا
في العلوم براعة خاصة في ظل الواحدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛
وكانت هذه الماهد تقدم إلى الطلاب كتباً دراسية في كل العلوم لتكون لهم مقدمة
وتمهيداً ، وكانت المحاضرات تفتح وتختتم بالاحتفالات والخطب ؛ ويؤدى الطلبة
بعد إتمام الدراسة امتحاناً في مختلف العلوم ؛ وكانت هذه الماهد كلها مزودة
بالمكتبات ، ولا يزال يوجد إلى اليوم في مكتبة الاسكوريال فهرس للمكتبات
والمؤلفات التي كانت موجودة في معاهد غرناطة في أوائل القرن الثالث عشر .
وإذا استقينا المؤلفات التي تعنى بالثقافة العربية أو الأندلسية المحضة والتي
لم يكن لها تأثير في سير الحركة العقلية الأوروبية ، مثل كتب الدين والفقه واللغة

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ . وكذلك الخامس في ص ٨٨ من هذا الجزء .

والبلاغة والشعر ، التي كتبت في الأندلس في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ،
والتي عرفنا من بعضها أجزاء كاملة كما عرفنا محتويات البعض الآخر وذلك
بالأخص من مؤلف العلامة النزيرى^(١) ، فانه يبقى علينا أن نتحدث عما أداه
الأندلسيون والمغاربة في عهد المرابطين والموحدين ، في الفلسفة والرياضة والعلوم
الطبيعية والتاريخ ؛ ولا بد لنا هنا أن نذكر الكتاب اليهود الماصرين ، وم
الذين كتبوا عن آثارهم الدينية وعن اللغة العبرية ، كما كتبوا عن الفلسفة والعلوم
الطبيعية والطب ، وذلك لأنهم وضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية أو تلقوا دراستهم
بالأخص في المعاهد العربية أو تولوا التدريس فيها .

فإن القرن الحادى عشر وضع يهوذا شويج القاسى قاموساً عبرياً ، ومباحث
قيمة عن الإنشاء والترقيم في اللغة العبرية ، لم يطبع منها شيء حتى وقتنا ، وفي
القرن الثانى عشر ازدهرت المباحث العلمية اليهودية في اسبانيا بنوع خاص ،
وكتب الرّبن يهوذا لاوى المتوفى سنة ١١٥٣ م عن الحقيقة والإلهيات في الدين
اليهودى ، ووضع ابن عزرا الطليطلى المتوفى سنة ١١٦٧ م ، والمسمى بالحكيم
الكبير ، شرحاً لفظياً لنصوص كتب العهد القديم ، وكتب عدة مؤلفات في
النحو والفلسفة والفلك والطب ، ولم يطبع من كتبه العلمية سوى القليل ؛
واشتهر آل كحى ، وم يوسف الأب ، وكان موجوداً نحو سنة ١١٦٠ م ، وابناه
موسى وداود اللذان عاشا في أواخر القرن الثانى عشر ، بشرحهم للعهد القديم
والأجرومية العبرية ، على أن أشهر مشاهير الكتاب والعلماء اليهود هو الرّاب
موسى بن ميمون القرطبي المولود سنة ١١٣٩ م والمتوفى سنة ١٢٠٥ م ، وهو
علامة ضليح تولى التدريس في جامعة إشبيلية ، ثم عين طبيباً لسلطان صلاح
الدين ، ثم عميداً لأحد معاهد الإسكندرية ، ثم عميداً لأحد معاهد القاهرة ،

(١) مؤلف النزيرى Casiri المنار إليه هنا ، هو الفهرس الذى وضعه النزيرى اللباني
في أواخر القرن الثامن عشر باللاتينية للكتب العربية الموجودة في قصر الأسكوريال . عنوان
« المكتبة العربية الاسبانية » Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis وسم
فيه محتويات هذه الكتب وأتى على ملخصات الكثير منها .

وبها توفى ، وكتب ابن ميمون مؤلفات عديدة في جميع العلوم تقريباً ، ولكن لم يطبع منها سوى القليل ؛ وهى تناول بالأخص شرح الكتب الدينية اليهودية والطب والفلسفة ؛ وقد أرغمه القرار الذى أصدره عبد المؤمن — مهدداً اليهود بالموت ومصادرة الأملاك — على أن يمتنع الإسلام فى الظاهر ؛ بيد أنه سرعان ما انتهر الفرصة للسفر إلى مصر ، وهناك اشتغل حيناً بالتجارة فى الأحجار الكريمة .

وازدهرت الفلسفة بالأخص فى مهاد الأندلس ؛ وكانت العلوم الطبيعية والرياضية ترتبط بالفلسفة عادة ؛ ومنذ النصف الأول من القرن الحادى عشر نبغ أبو على الحسين بن سينا^(١) المتوفى سنة ١٠٣٧ (٤٢٨ هـ) فى الفلسفة والطب .

وكتب أبو حامد محمد الغزالى الطوسى المتوفى سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) عدداً عظيماً من الكتب واشتهر بالأخص بكتابه «تهافت الفلاسفة» ، وألقى جميع مهاد الأندلس والمغرب باشارة ساطعان الرابطين بأن هذا الكتاب يحتوى على آراء إلحادية ، ومنعت قراءته وأحرقت نسخة أينا وجدت^(٢) ؛ ولكن مؤسس دولة الموحدين (المهدى) أعاد مكانة أعظم فلاسفة الإسلام الدينيين فى المغرب إلى ما كانت عليه ، بل عادت أعظم مما كانت فى أى وقت ، وذلك بالرغم من أن كثيراً من علماء الأندلس كانوا يخالفون آراء الغزالى ؛ بيد أنه من الأسف أن مؤلفات هذا المفكر العظيم الذى تحتل كتيبه وحدها جزءاً عظيماً فى الآداب الدربية لم ينشر منها سوى القليل^(٣) .

وكان أبو جعفر بن اللطيف الأشبيللى المتوفى سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) أوفر

(١) يسمى الأفرنج ابن سينا Avicenna كما هو معروف وسوف تثبت الأسماء الأفرنجية لأولئك العلماء فى نهاية الكتاب مع مقابلها العربى .

(٢) هذا ما ذكره للؤلف ولكن الحقيقة أن كتاب الغزالى منع وصوله بالأندلس والمغرب فى عهد الرابطين هو كتاب إحياء علوم الدين (راجع الحاشية فى ص ١٩٦ من الجزء الأول) .

(٣) كتب المؤلف ذلك منذ نحو قرن . أما اليوم فإن عشرات من مؤلفات الغزالى قد طبعت غير مرة ، وهى ذاتة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

حظا ، فقد طبعت رسالته الشهيرة « حى بن يقطان » بنصها العربى ، وطبعت ترجمتها اللاتينية والألمانية ، وحازت إعجاب الفكر العظيم لايبنتز^(١) ؛ وهى قصة مبي ترك وحيدا فى جزيرة منعزلة ، واستطاع بواسطة التأمل وحده أن يؤمن بوجود الخالق وأن يتعرف قوانين الطبيعة .

واشتهر أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد بالأخص من بين الفلاسفة الأندلسيين الذين استطاعوا بتراجمهم وشروحهم وتعليقاتهم أن يمهّدوا لدراسة الفاسفة اليونانية ولاسبها فلسفة أرسطو بين المفكرين المسلمين ؛ وقد ولد بقرطبة وتوفى سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ؛ وكان كثير الكتابة متضلعا فى علوم كثيرة ؛ وقد تفرّق بنوع خاص فى الطب والفلسفة ؛ ومن مؤلفاته التى طبعت وذاعت شرحه القيم لفلسفة أرسطو ، وشرحه لجمهوريّة أفلاطون (وهو فيلسوف لايميل إليه المفكرون المسلمون على العموم) ، وردّه على كتاب الفزال « نهافت الفلاسفة » بكتاب سماه « نهافت النهافت » . كذلك يحتل ابن رشد المقام الأول بين علماء الأنداس فى علم الطب ، ولاسيما من أجل نظارياته الطبية التى يحاول أن ينوّه فيها بالفروق القائمة بين تماثيل أرسطو وتماثيل جالينوس ، وأن يدافع عن نظريات الأول ضد نظريات الثانى^(٢) .

وإلى جانب مشاهير الأطباء مثل أبى بكر بن زكريا الرازى ، وابن سينا وابن ميمون مؤلف « مختصرات جالينوس » وماسويه بن حمّش الماردىبى التوفى سنة ١١٦٠ م مؤلف كتاب « الأدوية والمعالجة » ، يجب أن نذكر أبا القاسم خاف ابن عباس القرطبى التوفى سنة ١١٢٢ م (٥١٦ هـ) ، وقد نبغ فى الطب والجراحة والصيدلة نبوغا قائما ، واشتهر بكتبه القيمة عن الجراحة والآلات الجراحية ، وعلاج النقطة ، والأورام البسرطانية ، وأمراض النساء ، وتحضير الأدوية ؛ ولم يطبع بعد كتابه الجامع فى علم الطب ؛ والظاهر أنه كان عارفا باستعمال حرق المخروط القطاعى على الجلد ؛ وكان يستعمل عملية استخراج الحصى من القضيب بنجاح .

(١) لايبنتز Leibnitz فيلسوف وعالم رياضى ألمانى (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

(٢) أوردنا ترجمة موجزة لابن رشد فى هامش نرس ٦٥ من هذا الجزء .

واشتهر أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلي المتوفى سنة ١١٦٨ م (٥٦٤ هـ) بالأخص بقوة الملاحظة الخاصة ، وهو أوفر الأطباء المسلمين علما وبراعة ؛ ويبدو ذلك بوضوح في كتابه « التيسير في المداواة والتدبير » ؛ وقد شغل مدى أعوام طويلا منصب الطبيب الخاص لسلطان الموحدين أبي يعقوب .

وأما في العلوم الطبيعية ولا سيما في التاريخ الطبي ، فقد نبغ بالأخص العلامة النباني ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن البيطار الماتى المتوفى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) وقد تولى الوزارة في أواخر حياته لحكومة دمشق ، وسما شانه ؛ وساح في جميع الأنظار المعروفة يومئذ في أوروبا وإفريقية وآسيا ، وضمن نتائج دراساته وبحوثه كتابه المعروف عن عمالك الطبيعة الثلاث ، وفيه يتحدث بالترييب الأبجدي عن خواص النبات والسموم والحيوانات ؛ ولم يطبع من مؤلفه سوى جزء صغير .

وأما في الكيمياء - وهي في الواقع علم ندين به كله إلى العرب - فقد قام الأطباء والعلماء الطبيعيون الأندلسيون باكتشافات هامة ؛ بيد أنه من الصعب أن ندين الأوقات التي نمت فيها هذه الاكتشافات .

كذلك يدين العالم في الرياضيات بكثير من الفضل للعلماء العرب والأندلسيين وقد كان علم الجبر أهم ما اكتشفوه في هذا الميدان ؛ على أن هذا العلم لا يستحق اسمه من اسم العلامة جبر الأشبيلي الذي عاش في القرن الثاني عشر ، والذي كتب كتابا عن « الدوائر » ، ولكن يستقيم من كلمة « الجبر » العربية ، ومنها جبر الأعداد الكسرية إلى مجموع واحد ؛ ويسمى العرب مانهيه نحن « بالجبر » « الجبر والمقابلة » ؛ والمعروف عن ثابت بن قره أنه كان من أعظم علماء الجبر ؛ كذلك كان ابن رشد متفوقا في الرياضيات ، وقد وضع مختصر الكتب « المجسطى » لبطليموس ؛ وطبقت الرياضة أبتأ في دراسة الموسيقى ، وعرف الأندلسيون الأنغام المسجلة « النونات » قبل أن يعرفها مكتشفها الزعوم جيدى أريقتو ويذهبها في إيطاليا .

وكان الفلك من العلوم المحبوبة عند العرب ؛ وكان المورك ، وكذلك الأمر

المغربية يشجعون دراسته تشجيعاً كبيراً ؛ وكان التنجيم يرتبط بهذا العلم أبما ارتباطاً . وقد ابتنى سلطان الموحدين يعقوب النصور في سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) في مسجد إشبيلية الجامع برجا عالياً ليكون مرصداً ؛ ومن الواضح أنه أول مرصد بني في أوروبا ؛ ووضع النصور في سنة ١١٥٧ م (٥٤٥ هـ) أزياجاً فلكية عن كدوف الشمس ، وكتب معاصره البتراجي Alpetragius المراكشي رسالة عن الأجرام ترجمت إلى اللاتينية وطُبعت ، ولكن أزياج النصور لم تطبع .

أما كون البوصلة اختراعاً عربياً فما لاشك فيه ، يدل على ذلك ما كان يستعمل من قبل من الألفاظ لوصف اتجاه الأبرة المغنطة مثل قولهم « الشارون » للدلالة على الشمال ، و « الأفرون » للدلالة على الجنوب ، وهي ألفاظ اشتقت من العربية ؛ ولم يقتصر العرب على استعمال هذا الاختراع في رحلاتهم البحرية منذ القرن الثاني عشر ، بل استعملوه أيضاً في رحلاتهم الصحراوية ؛ كذلك كان يستعمل في الحياة اليومية لتعيين اتجاه القبلة للصلاة ، ومعرفة مواقع الجهات الأربع .

كذلك وضع مسلمو الغرب في تلك المصنوعات قيمة في علم الجغرافيا ، وأهم هذه المؤلفات هو الكتاب الضخم الذي وضعه الشريف الإدريسي ، أبو عبد الله بن محمد السبتي القدي عاش حوالي سنة ١٠٩٩ إلى سنة ١١٧٥ م ، (٤٩٢ - ٥٧٠ هـ) . وقد وضع الإدريسي مؤلفه في صقلية في سنة ١١٥٣ م (٥٤٨ هـ) بمنوان « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . بيد أنه لم يطبع منه سوى مختصر فقط^(١) ، وعمل الإدريسي أيضاً ملك صقلية روجر (رجار) الثاني ككرة أرضية جغرافية من الفضة ، وقد طبع كوندى من « نزهة المشتاق » الجزء الخاص بإسبانيا ، ونشر منه العلامة الألماني هارتمان قطعاً أخرى .

(١) طبع مختصر نزهة المشتاق المشار إليه في سنة ١٥٩٧ م في رومة في مجلد واحد ؛ ويوجد بدار الكتب نسخة جغرافية غير كاملة من نزهة المشتاق ؛ وقد طبعت منه أجزاء مختلفة ؛ وتولى العلامة المستشرق دوزي نشر القسم الخاص بالأندلس والمغرب مع ترجمته الفرنسية .

وأما فيما يتعلق بالتاريخ ، فإن عصر المرابطين لم يكن مشجعاً على كتابته ، إذ كانت حكومتهم تُخضع المؤلفات التاريخية لرقابة صارمة ، وكانت تأمر بإحراق جميع الكتب التي لا تروق لها . فلما جاءت حكومة الموحدين أبدت تسامحاً في البداية وألغت رقابة المؤلفات التاريخية ، وصححت بالكتابة عن تاريخ الدولة ؛ ومع ذلك فقد كان لزاماً على المؤرخين أن يكتبوا بمعاف عن الأسرة الموحدية ، وقد هدّد خلفاء عبد المؤمن المؤرخين بالموت إذا كتبوا عن حكومتهم أموراً لا تسر . ومع ذلك فإننا نجد في بعض المؤلفات الأندلسية المعاصرة أقوالاً تدل على أن مؤلفيها لم يخشوا من قول الحقيقة ، وكثيراً ما ترد بها مظاهر شديدة على سلاطين الموحدين ووزرائهم ؛ ولم يطبع إلى اليوم مؤلف منها بنصه الكامل ولكن الغزيري أورد شذوراً منها ، وترجم أقسام كبيرة وصغيرة منها في مؤلفي دومي Dombay وكوندي Condé ، وإليك أهم أولئك المؤرخين :

أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان المتوفى سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) كتب تاريخاً للأندلس في عشر مجلدات ^(١) ، ومؤلفاً تاريخياً آخر في ستين جزءاً ، وكتابه أهم المصادر بالنسبة لبداية عصر المرابطين ، ومن أهم المؤلفات التاريخية في عصره ، ويغلب الصدق على روايته .

الحُمَيْدِي ، وهو أبو عبد الله بن محمد بن أبي نصر المتوفى حوالي سنة ١١٠٠ م (٤٩٣ هـ) ، وقد كتب تراجم لشاهير رجال الأندلس ، وهو فِيم بالأخص فيما يتعلق بتراجم العلماء ^(٢) ، وأهم منه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) ، ومؤلفاته مصدر في متعَي الأهمية لتاريخ القرن

(١) هو كتاب المقتبس في أخبار أهل الأندلس ؛ ولم يصلنا منه سوى قطع صغيرة ؛ وقد طبعت إحداها أخيراً بناية بعض المستشرقين ؛ وأما الكتاب الثاني فهو كتاب «المين» ؛ وقد ترجم له ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٠) وذكر أن مولده في سنة ٣٦٧ هـ ووفاته سنة ٤٦٩ هـ .
(٢) كتاب الحميدى المشار إليه هو كتاب جفوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس وترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٤) .

الحادى عشر وقسم من القرن الثانى عشر^(١) .

أبو علي بن رشيد وابن ختم ، وقد عاشا فى أواسط القرن الثانى عشر وعاصرا المهدي ، وكتبوا من قيام دولة الموحدين وحياة المهدي ، وحملوا عليه صراحة ، وقد اختصرهما أبو مروان الذي عاش فى القرن الثالث عشر .

ابن الأبار القضاعى البلبسى الذي عاش فى أواسط القرن الثالث عشر ، وقد انتفع فى تاريخه عن إسبانيا بكتب المؤلفين السابقين ؛ وهو بالنسبة لتاريخ بني هود فى مرسطة والمرابطين والموحدين مصدر فى غاية الأهمية ؛ وقد وصف لنا أحوال دولة الموحدين فى أواخر أيامها ، وكذلك فتوح النصارى فى الأندلس ، وصف معاصر وشاهد عيان^(٢) .

ابن الخطيب (وهو لسان الدين محمد بن عبيد الله بن سعيد) ، وقد ولد بمدينة لوشة من أعمال غرناطة سنة ١٣١٣م (٧١٣هـ) وتوفى سنة ١٣٧٤م (٧٧٦هـ) ؛ ألف فضلا عما كتبه من المؤلفات التاريخية المعيدة كتابا عن تاريخ ملوك الاسبان ، وكتابا آخر عن أعلام الاسبانيين وكلاهما قيم فى بابيه ، وقد أورد الغزيرى منهما شذورا فى مجمعه^(٣) . وكان من معاصريه ابن عبد الحليم الغرناطى ،

(١) أشهر كتب ابن بشكوال كتاب الصلة الذى قبل به على كتاب علماء الأندلس لابن الفرضي ، وقد تناول فيه أخبار علماء الأندلس وأعيانها حتى عصره ؛ وطبع فى مجلدين ضمن للسكينة الأندلسية .

(٢) كتب ابن الأبار للتوفى سنة ٦٥٩ هـ نسكلا لكتاب الصلة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها ، وطبع فى مجلدين ضمن السكينة الأندلسية ، وله أيضا كتاب الحلة السيرة فى تراجم بني أعيان الأندلس منذ الفتح إلى عصره ؛ طبع بناية المستشرق دوزى وهو قيم جدا بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس فى القرن السادس الهجرى .

(٣) كان ابن الخطيب من أعظم وزراء الأندلس وكتابها وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى ؛ وله ثبت حافل من المؤلفات التاريخية والأدبية ، منها كتاب الاحاطة فى أخبار غرناطة ، وهو أشهرها ، وتاريخ الدولة النصرية ؛ ورعاية الكتاب . والسر والشعر . والسكينة الكاملة فى أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أورد له القرى صاحب تنقيح الطب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

وقد كان مؤرخاً ذا شأن لدولى الرابطين والوحيدين ، وقد ترجم مؤلفه التاريخى من فاس ومراكش — وهو الذى اعتمد فى وضعه على المصادر العربية فى تاريخ إفريقيا والأندلس وكذلك على المحفوظات الملكية — بنصه إلى الاسبانية بمنابة كوندى ، وقد نقل فيه عن المؤرخين السابقين مثل ابن حيان وغيره ، أحياناً شذوفاً ومنها وأحياناً بطريق التلخيص^(١).



« تم الكتاب »

(١) كتاب ابن عبد الحليم الفرنجى المشار إليه هنا هو كتاب « الأتيس المطرب بروش القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » وهو فى الواقع من تأليف أبى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع القاسى ، ونسبته إلى ابن عبد الحليم الفرنجى ضعيفة ، وقد نشر هذا الكتاب بمنابة المستشرق تودنبرج مع ترجمة لائىية بمدينة أوبسالة سنة ١٨٤٣ ؛ وقد انتقد به المؤلف انتقاداً كبيراً .

ملحق

لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية

نشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٦٩) فهرساً للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ومقابلها الأوربي ؛ وقد وردت بالجزء الثاني أعلام جغرافية وتاريخية جديدة لم ترد بالجزء الأول ، فرأينا أن نشبعها في هذا الملحق على النحو الآتي :

Abulcasis	أبو القاسم (خلف بن عباس القرطبي)
Alcantra	القنطرة
Alcázar, Alcazar da sol	القصر أو قصر أبي دانس
Alicante	لقنت (وقد وردت مخرفة في ج ١)
Avempace. Avenpace	ابن باجه
Avenzoar	ابن زهر الأشبيلي
Averroes	ابن رشد
Avicenna	ابن سينا
Burriana	بريانه
Cintrin	شنترين
Quadelete.	وادي لكة
Maimonides	موسى بن ميمون
Miqueneza, Miquenenza	مكناسة الأندلس

Navas di Tolosa	حصن المقاب أو موقعة المقاب
Osma	أوسمة
Rasis	الرازي (أبو بكر بن زكريا)
Salvatierra	سربطرة أو شربطرة
Segura	نهر شقورة (ولد وردت محرفة في ج ١)
Turgiello-Turillo	ترجالة
Urgel	أورقلة
Xucar	شقر — جزيرة شقر

فهرس الموضوعات

الجزء الثاني

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومات الخماسية النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية

صفحة

- الفصل الأول : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ وفاة القيصر ألفونسو ديغونديز
حتى ولاية الملك الفونسو الثاني الأرجوني الحكم ... ٢
- الفصل الثاني : قيام جماعات الفرسان الدينية في اسبانيا والبرتغال ... ١١
- الفصل الثالث : صراع أمرقي كاسترو ولارا في سبيل السيادة في قشتالة ١٩
- الفصل الرابع : تاريخ مملكة البرتغال وليون منذ وفاة القيصر الفونسو
إلى وفاة الفونسو هنريكز وفرديناند الثاني ٢٧
- الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية في عهد الفونسو الثاني ملك
أراجون ٣٥
- الفصل السادس : تاريخ الموحدين في الأندلس منذ افتتاح غرناطة ، حتى
وفاة بمقوب المنصور الظاهر في معركة الأرك ٤٩

صفحة

- ١ - تنظيم حكم الموحدين في عهد عبد المؤمن ٤٩
- ٢ - باقى غزوات الموحدين فى الأندلس بقيادة عبد المؤمن ٥٩
- ٣ - حكم أبى يعقوب يوسف وحروبہ ٦٤
- ٤ - يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك ٧٦

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين وازدياد تفوق قشتالة وأراجون

فى النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول : حال اسبانيا بعد موقعة الأرك حتى موقعة تولوزا أو موقعة

المقاب ٩٤

الفصل الثانى : موقعة نافاس دى تولوزا أو موقعة المقاب ١٠٥

الفصل الثالث : بيدرو الثانى ملك أراجون ١٢٥

الفصل الرابع : تاريخ مملكة ليون وقشتالة منذ موقعة المقاب حتى

اتحادهما ١٣٦

الفصل الخامس : اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين فى الأندلس ١٥١

الفصل السادس : نزاع جاييم الفاتح مع عمه وحروبہ ضد المسلمين فى الجزائر

الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه المملكة لسيادة

أراجون ١٦٧

الفصل السابع : فتوح فرديناند الثالث فى جنوبى اسبانيا ونهاية ساعان

الموحدين فى الأندلس ١٨١

صفحة

الفصل التاسع : تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول حتى افتتاح الفونسو

الثالث لولاية الغرب ٢٠٠

١ - سانشو الأول الملقب بالمعمر ٢٠١

٢ - الفونسو الثاني الملقب بالبادن ٢٠٣

٣ - سانشو الثاني الملقب بذي الثوب السكوني ٢٠٧

٤ - فتوح الفونسو الثالث في ولاية الغرب ٢١٥

الفصل التاسع : أحوال الدول الأسبانية حتى وفاة فرديناند الثالث ... ٢١٧

الفصل العاشر : نظم الدولة وفتون الحرب وأحوال الحضارة في دولتي

المرابطين والموحدين ٢٣٢

١ - نظم الدولة وفتون الحرب عند المرابطين ٢٣٣

٢ - نظم الدولة وفتون الحرب عند الموحدين ٢٣٩

٣ - لمحة عن حضارة الأندلس في عهد المرابطين والموحدين .. ٢٥٠

ملحق لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية ٢٦٤



٢٥-١٧
٢١٤

الإشراف اللغوي : عزة شبل

الإشراف الفني : محسن مصطفى

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة